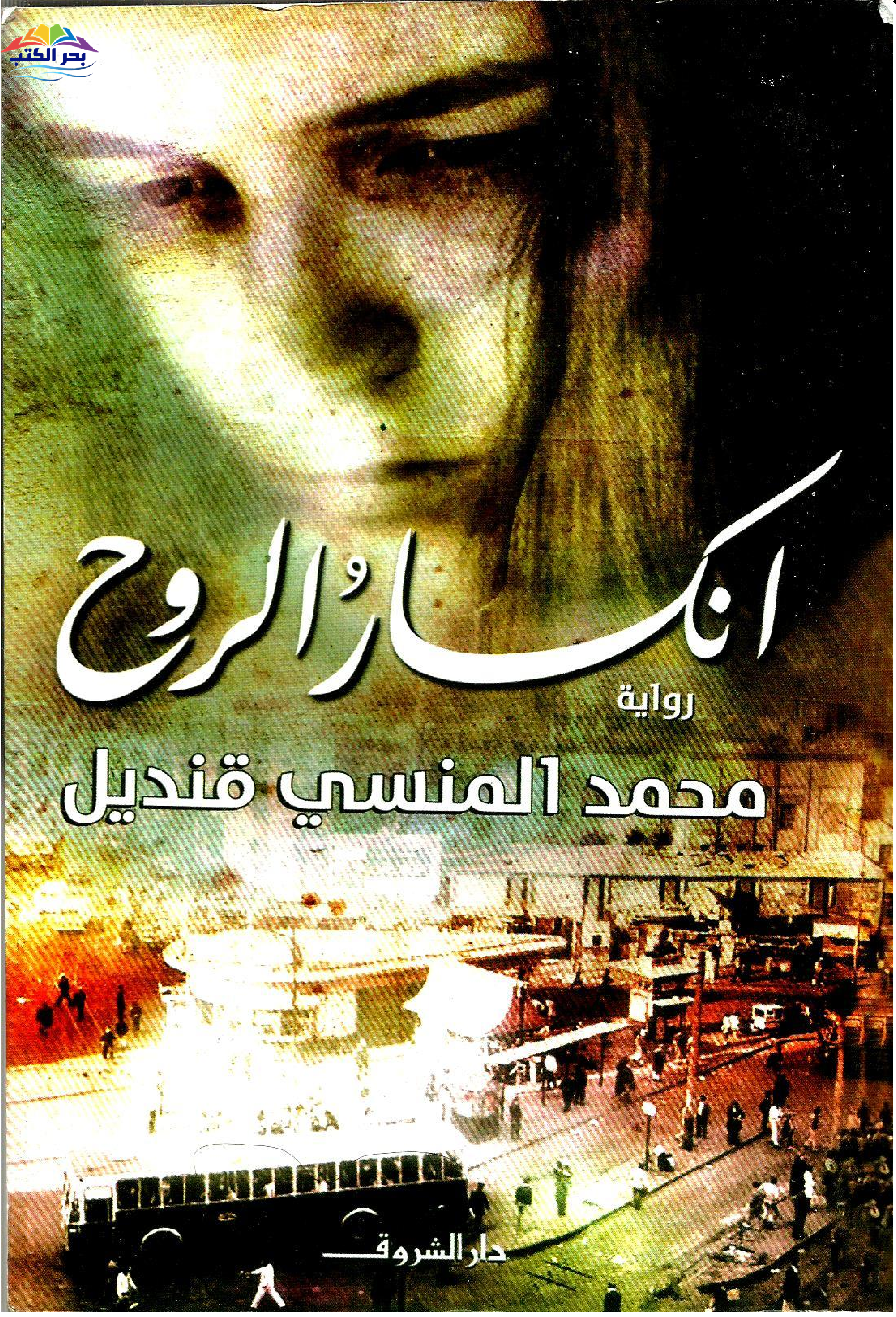

بحر الكتب
انكسار الروح
رواية
محمد المنسي قنديل
دار الشروق



انكسارُ الروح



إنكسار الروح

د.محمد المنسي قنديل

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

طبعة الشروق الأولى ٢٠١٣

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٣/٣١٦٦
ISBN 978-977-09-3217-9



محمد المنسي قنديل

انكسار الروح

دار الشروق





ماذا أقول لك يا فاطمة، يا غرامي الحزين؟

يا لها من بداية تقليدية أبدأ بها حكايتي معك..

لكني خائف أن أسلك إليك طرقا أخرى فأتوه منك وتتوهين مني، كما هي العادة، من الصعب أن أصف لك الارتجاف الذي يهز كل خلية في جسدي لذكراك، أو أمنع الدمعة التي تكاد أن تطفر من عيني حين أذكر حروف اسمك الخمسة، أن الزمن قد حول شوقي إلى جوع جارف، وإن العشق لشديد الوطأة على قلبي يا فاطمة، ابرزي لي، تجلي ذات لحظة، مسي قلبي بأطراف أصابعك لعله ينتفض وتعود شغافه الميتة إلى الوجيب، إن عشقك يا فاطمة هو زمن تكويني، وصبابتي إليك تمتد من شوارع المدينة الضيقة حتى شرايين دمي، أني مسكون بك، منذ لحظة البراءة الأولى التي رأيتك فيها، حتى درجة اكتمال وفساد كل شيء.

من أين يمكن أن أبدأ لحظتي الأولى معك، من الألم الغريب والبهجة الغامضة والأحلام التي لا تفسير لها؟ أم من ذلك الصباح البارد الذي يشبه لمعة الأصداف الخالية، عندما كنت أهبط فوق درج سلمنا المتآكل، وسط صفائح القمامة المتراكمة التي دائمًا ما



يتأخر جامعو القمامة عن حملها، على ظهري حقيبتي المدرسية المتآكلة، تبرز منها أطراف الكتب وتتساقط أقلام الرصاص؟ أم عندما رأيت القطط الصغيرة على الدرجة الأخيرة قرب مدخل البيت مكومة ومرتعدة، تلتصق ببعضها البعض التماسا للدفء خمس قطط، أذكر عددها، كحروف اسمك ولون جلودها وعيونها المغمضة، لم تكن معها أمها الكبيرة التي ظللت اسمع مواءها طوال الليل لعلها ضجرت من كثرة الشكوى، وقلة الطعام فتركت الصغيرات ورحلت، كانت القطط جائعة وبردانة، عرفت ذلك لأنها كانت ترتجف بالطريقة نفسها التي أرتجف بها، جلست بجانبها، تحسست شعرها الناعم وعظامها الطرية، تقوست أجسادها تحت لمسات أصابعي وهي تهر في صوت خافت، تتوسل إليّ أن أفعل شيئا ما، تلفت حولي حتى أتأكد من أن أحدًا لا يراني، أنزلت حقيبتي المدرسية من فوق ظهري، أخرجت «السندوتش» الذي لفته أمي في عناية حتى آكله في «فسحة» المدرسة، بدأت أقطعه إلى قطع صغيرة وأضعه أمامها، مدت القطط أنوفها الصغيرة وتشممت الفتات قليلا ثم عاودت الانكماش، ربما لم يعجبها نوع الطعام، كانت بالغة الضآلة، لم تتعد مرحلة الرضاعة، كنت حزينا لأنها ستظل جائعة، وفي هذه اللحظة سمعت صوتا بجانب أذني يقول لي هامسا:

ـ هذه القطط المسكينة.. لماذا لا تأكل.. لماذا حزينة هكذا؟

لم أنس اللحظة التي رفعت فيها رأسي فرأيت وجهك يا فاطمة، يا ألله.. كم كان صغيرا ودقيق الملامح وبه مسحة من الشحوب

والزرقة بسبب برد الصباح، لكم عشقت هذا الوجه في تلك اللحظة بهذه الزرقة الباهتة كالحليب، كلما تذكرته، تذكرت قطع السكر النبات، سريعة الذوبان وصافية وحلوة المذاق، تقدمت وجلست بجانبي، كنت ترتدين مريلة «تيل نادية» قديمة وحائلة اللون ولكنها نظيفة وتفوح منها رائحة الصابون،وكان شعرك ملموما «بفيونكة» حمراء، تهتز كلما اهتزت رأسك، فيتلون الصباح الرمادي بألوان قوس قزح، وكان في عنقك خال أسود صغير، يتحرك أيضا كلما تكلمت، وعلى ظهرك حقيبة مثل حقيبتي ولكنها ليست ممزقة، ورأيت أسنانك صغيرة وبيضاء حين تبتسمين، كانت الشمس تبرز فجأة من خلف غيب مجهول، وتضيف على كل شيء لمسة من دفء الحياة، ثم تعاود الاختفاء، لم أكن بحاجة إليها، كنت تحدقين فيّ بعينيك المتألقتين فلا يغادر الضوء قلبي، تقولين لي بنفس الصوت الخافت:

ـ أليست تشبه القطط الفرعونية المرسومة في كتاب التاريخ؟

بدأت أنظر إليها من جديد، وأدرك مدى أهمية وجودها في هذا المكان ومدى الجمال الكامن في دقة تكوينها، قلت:

ـ إنها قطط وحيدة..تركتها أمها..

مددت أصابعك نحوها ولمستها في خفة، كأنما تبثين فيها بعضا من روحك، لم تقوس أجسادها،استسلمت للمساتك كأنها تتوق إليها، توقفت عن الهرير الخافت، وانتصبت قائمة على سيقانها الواهنة وبدأت تأكل فتات طعامي، أخذت تزدرد كل ما أمامها



دون مضغ، وأنت تتأملينها مبتسمة، مستغرقة في إطعامها كأن الطعام يستقر في معدتك، في هذه اللحظة أدركت مدى موهبتك في صنع المعجزات الصغيرة، كانت القطط تنفض مافيها من جوع وبرد، تحرك الفراء الذي يكسوها، تبددت رعدتها وحلت بدلا منها مويجات متتابعة من النشوة، بدأت تموء في خفوت، تقولين لي:

ـ كم هي جميلة..هل يمكن أن آخذ واحدة منها؟

لم أكن أملكها ولكن سؤالك أصابني بلمسة من الزهو، أحسست أنني أمتلك شيئا قادر على منحه، قادر على إسعادك، قلت:

ـ شريطة أن تقولي لي ماهو اسمك أولا.

قلت.. فاطمة، نطقت كل حرف بمفرده، تجمعت كل الحروف داخل أذني، لم تغادرها نبرات صوتك بعد ذلك أبدا، تداخلت مع أنسجة جسدي، وطبعت بصمتها على روحي، أشرت لك أن تأخذين ما تريدين، ولكنك ابتسمت وأنت تقولين:

ـ اختر أنت..

اخترتك أنت يا فاطمة، ولكن هذا الاختيار أورث قلبي الحسرات، وملأ عيني بالعبرات، وهل كنت أملك إلا أن أختارك أنت في تلك اللحظة النادرة من هذا الصباح البارد،كان عليّ أن أبحث عن أجمل القطط وأن أحملها بين أصابعي وأضعها بين كفيك، فتستكين القطة لدفئك وتمنحيني ابتسامة رائعة كمكافأة لي.



فطنت إلى أنها المرة الأولى التي أراك فيها، لا أعلم من أين جئت ولا أين تسكنين؟ في هذا البيت؟ في هذا الحي؟ كيف لم أرك من قبل، كيف أشرقت فجأة هكذا؟ كنت أسأل كأنني ألهث، وكل ما فعلته أنك مددت أصابعك الصغيرة ووضعتها على خدي فسكتت كل أسئلتي، وشعرت بدفء يسري من أطراف أصابعك إلى وجهي ويتسرب إلى بقية جسدي، من قمة شعر رأسي حتى أطراف أصابع قدمي التي تخرج من الجورب الممزق، كأن شمسا صغيرة قد توهجت بداخلي، أوشكت أن أصيح بصوت عالٍ، منشدًا كل الأناشيد المدرسية التي أحفظها، وقصائد الشعر المقررة علينا، وعندما سحبت أصابعك من على خدي ظللت أشعر بها كأنها لا تزال موجودة في مكانها، تركت وشمها على جلدي.

نهضت واقفة والقطة بين ذراعيك، ونهضت معك، سرنا سويًّا خارجين من باب المنزل إلى عالم نصف معتم ونصف مشمس، غامض ومحاط بضباب من أثير، نظرت القطة الصغيرة إليّ بعينيها البراقتين، ولا أدري إن كانت تشكرني لأنني اخترتها لتنام في أحضان فاطمة، أم أنها تلومني لأنني انتزعتها من بين أخواتها، سرنا بمهل، قالت فاطمة:

- سوف تتأخر عن مدرستك..

قلت: لقد تأخرت بالفعل، ولكني لم أخسر شيئًا..

واصلنا السير معًا، تحول الضباب إلى قطرات باهتة من الندى، وبدت الشوارع كأنها مرآة مليئة بالخدوش ولكنها متألقة، وظهر

صهريج المياه العالي، تنام عليه طيور تحدق فينا بعيون نصف مفتوحة، قالت فاطمة:

- كم أتمنى أن أصعد فوق هذا الصهريج وأمسك السحب بيدي..

بدت السحب كأقرب ما يكون، وتنفس الصبح، فخرجت الأبخرة من قدور الفول ومن حلل المحشي ومن أفواه عمال «وردية» المصنع وهم يسعون حثيثًا، دوت صفارة الدخول من بعيد مختلطة بأغنية لعبد الحليم حافظ، كأنه يخبرني أن حكايتي معك ستكون حزينة مثل أغانيه، ولكنك تضحكين، والفيونكة تهتز، والبائعات القادمات من القرى المجاورة يشيدن أهرامًا من قطع الجبن والزبد، وبقايا التلاميذ المتأخرين مثلنا يلهثون سريعًا ويرمقوننا في حسد، والندى يغلف كل شيء بعذوبة براقة، تقولين فجأة:

- أنا أعرف أنك قدمت طعامك الخاص للقطط، وسوف تقضي بقية يومك جائعًا.

قلت في صوت حازم: أنا كبير بما يكفي حتى لا أشعر بالجوع..

وهل كان يمكن أن أشعر بالجوع وذلك الدفء يملؤني من الداخل.

قالت: سأعوضك عن ذلك، سأوصلك إلى باب المدرسة.

وانحرفت دون سؤالي إلى الشارع الذي يؤدي إلى مدرستي، توقفت إحدى عربات «الكارو» يجرها حصان هزيل، وساعدنا



صاحبها، دون أن نطلب منه، لنركب بجانبه، بدأ الحصان يستعيد عافيته ويدق الأرض في إيقاع رتيب كأنه وجيب قلبي، تمنيت أن يطول الشارع إلى الأبد، وأن يضبط الزمن نفسه مع إيقاع الحصان، غاب صوت عبد الحليم، وظهر سور مدرستي، السور الأصفر نصف المهدم الذي كنا نكتب عليه أسماءنا وشتائمنا ونقفز من فوقه عندما ينشغل حضرة الناظر مع مدرسة الرسم الجميلة، كانت البوابة نصف مغلقة وهذا يعني أن عقاب التأخير في انتظاري، وقبل أن أقفز من فوق العربة قلت لها:

ـ متى أراك ثانية يا فاطمة؟

قالت وهي تهز الفيونكة في حركة بالغة الشقاوة:

ـ في عمرك كله.. لن تفعل شيئًا إلا أن تراني..

وهكذا دخلت المدرسة دون مبالاة بالعقاب، جمعت الأوراق المتسخة من الحوش، وكنست الطرقة، تحملت الألم من مدرس الألعاب وهو يشد أذني، ورأيت الناظر جالسًا وحيدًا في حجرة الرسم كأنه على وشك البكاء، ولم تكن مدرسة الرسم موجودة، كان مستغرقا في تأمل رسومها المعلقة على الجدران، أعطاني مدرس الحساب أطول مسألة في «الجبر» فحللتها وساويت بين السين والصاد، بسهولة وعذوبة، اشتدت حرارة الشمس وظل اليمام نائمًا يحلم على المزاريب الصدئة، وانساب تراب الطباشير مختلطا بالماء المتساقط منها مكونًا بحيرات صغيرة تخرج منها زهور برية غريبة الألوان، توالت الحصص وأنا لست بردانا ولا



جائعًا، كل ما في الأمر أنني لم أعد أطيق رائحة دورة المياه، ولم أعد قادرًا على اللعب حتى تتسخ ملابسي في تل الرمل المجاور، ولم أعد أفكر في القفز من فوق السور، بل إنني تعاطفت مع حضرة الناظر ورثيت لحرقة قلبه رغم أنه كان قد ضربني قبل ذلك ثلاث مرات على الأقل.

لم أجد فاطمة عند نهاية اليوم الدراسي، بدا لي هذا غريبًا ومثيرًا للحزن، كنت متأكدا من أنني سأراها وأنها سوف تمد أصابعها وتلمس خدي الثاني، لم أكن أعرف اسم مدرستها ولا عنوان بيتها فسرت في نفس الشوارع التي عبرناها معا في الصباح، تبدد الندى وبدا الوحل عاريًا وقبيحًا تحت الشمس، حتى الباعة أصابهم التعب فجلسوا هامدين بجوار بضائعهم البائرة، توقفت أمام صهريج المياه العالي وبدأت أراه من جديد، لم أكن أدرك مدى قربه من السحب، كانت تتحرك من خلفه فيخيل إليّ أنه يميل ويوشك على السقوط، كانت الصفائح التي تكسوه من معدن لونه فضي داكن، تنمو تحته أحراش من النباتات الوحشية المتشابكة الغزيرة الخضرة، توالدت ونمت من قطر الماء الذي لا يكف عن التساقط، وخرجت من أغصانها زهور كبيرة مفلطحة زاهية الحمرة، التفت حول العوارض الحديدية نباتات لا تكف عن التسلق، تحاول الوصول إلى الجزء العلوي من جسم الصهريج لتشرب منه مباشرة دون انتظار لسقوط القطرات، كانت تغلف الصهريج بطابعها الوحشي وتعطي المأوى للعصافير وللعشاق الخائفين



عند باب السور المحيط بالصهريج، كان حارسه جالسًا يحدق في نسوة السوق بعينه الواحدة النفاذة، يستند بذقنه على فرع من الصبار الجاف ما زالت أشواكه مشرعة، كنت في حاجة إلى خمسة قروش، «شلن كامل» أعطيه له فيهبني امتياز صعود الصهريج ومحاولة إمساك السحب البعيدة، ولكن.. من أين لي مثل هذا المبلغ الباهظ يا فاطمة؟

سرت منكس الرأس، حملت أمي الغداء من أمامي دون أن أتذوق لقمة واحدة، وظللت أغافلها كل بضعة دقائق فأهبط السلم وأراقب القطط ثم أعاود الصعود، لم تظهر فاطمة، وحين استجمعت شجاعتي وقلت لها كاذبًا: أريد خمسة قروش من أجل النشاط المدرسي، قالت متبرمة، ما لنا والنشاط، راتب أبيك يكفي بالكاد للإيجار والطعام، قلت في يأس: والنشاط، قالت: عندما ينشطون تظاهر أنت بالنوم، وقفت صامتًا بجوار النافذة، فاجأني صوت بائع «الروبابيكيا» كأنه يهبني الخلاص، أخذت الجرائد والكتب القديمة والكريات الزجاجية وشرانق دود القز وانتهزت فرصة وجود أمي في المطبخ وهبطت السلم لاهثًا، لكنه لم يعطني إلا قرشًا واحدًا، كان من المستحيل أن أحمل هذه الأشياء وأعود من جديد، أخذت القرش ومشيت مقهورًا، حدقت في الوحل وفي التراب وعلى الرصيف ووسط الأسفلت، كنت على يقين من أنني سوف أعثر على «شلن» ضائع باق في انتظاري، سرت كثيرًا ولم أجد سوى قطع البراز الجافة، سمعت صوت صفارة المصنع فأدركت أن موعد عودة أبي قد حان، عدوت صاعدا على السلم، حدجتني أمي بنظرة



غاضبة لأنني تأخرت، وجاء أبي كعادته ملوث الذراعين بالشحم وأخذ يتحدث إلينا بصوت صاخب وهو يغسل يديه بالصابون الزفر، صاح فيّ: كيف حالك أيها العامل الصغير، وكانت أمي واقفة بجواره وهي تمسك المنشفة، وكانت كلما رأته على هذه الحالة من المرح الصاخب انتابها القلق، قالت: هل حدثت مشاكل مع رجال النقابة؟ قال أبي في سخرية: المشكلة أن النقابة التي كانت دائما ملكا للعمال، ولكن هناك من يحاول إهداءها للحكومة، لم أعرف من أين دسوا علينا هؤلاء العمال، أشكالهم غريبة وكلامهم أغرب، تقول أمي محاولة أن تطيب خاطره، المصنع كبير يا أسطى، وأصابعك لا تشبه بعضها، ولكن أبي يجفف يده ويرد في إصرار: أنا أشم رائحة العامل الحقيقي عندما أراه، هؤلاء ليسوا كذلك، لقد أعلنت احتجاجي أمام الجميع، ولن أكون وحدي في ذلك، سنقاوم كل من يحاول أن يأكل حق العمال، شحب وجه أمي، فحين يتحدث بهذه الطريقة تدرك أننا نقف من جديد على أبواب المشاكل، لم أكن أفهم جيدًا ماذا تعني كلمات أبي، ما أعرفه أن له متاعب في العمل لا تتوقف، كان يقول لي إن تعليمه منخفض حقا، ولكنه صنع دماغه بنفسه، كنت أراه يجلس الليالي الطويلة يقرأ في كتب ضخمة يردد ألفاظا غير مفهومة، انسحبت أمي من أمامنا وتشاغلت بإعداد الطعام، وأدخل أبي يده في شعري وهز رأسي بسرعة وهو يقول: أتدري لماذا أحبك أيها العامل الصغير، لأنك المستقبل، وأنا أحب أي شيء من رائحة المستقبل، ثم قام بحركة مستحيلة الوقوع تقريبًا، أدخل يده في جيبه وأخرجها وفيها قطعة من النقود، «شلن» من الفضة مرسوم عليه



وجه أبي الهول بكل وقار، قال لي: خذ.. مني إليك، قبضت عليها والدموع تكاد تطفر من عيني، قبلته فضحك وضربني على ظهري، وأحضرت أمي الطعام فأكلت في شهية واستمعنا إلى المسلسل الإذاعي، ونمت فحلمت أحلامًا كثيرة.

في الصباح رأيت فاطمة جالسة بجانب القطط الأربعة كانت تتقافز بين يديها في حبور فتقافزت أنا أيضًا فوق درج السلم حتى أصبحت بجانبها، هزت «الفيونكة» الحمراء وهي تحييني، هتفت في انبهار:

ـ اليوم سنصعد إلى الصهريج..

أريتها الشلن الفضي وضحكنا في تواطؤ، وسرنا بخطوات قافزة كأننا نرقص، ولمست خدي الثاني قبل أن أتركها وأختفي خلف سور مدرستي، كان موعدنا بعد انتهاء اليوم الدراسي، رفضت أن تدلني على مدرستها وقالت إنها قادرة على أن تجدني دومًا، وجدتني بالفعل في نهاية الحصص وأخذتني إلى حيث كان الصهريج في انتظارنا والشلن في جيبي، درنا حول السور فلم نجد الحارس الأعور، وللمرة الأولى شعرت بالتردد وبالخوف، قلت:

ـ نأتي في وقت آخر، عندما يكون موجودًا.

ولكنها هتفت في استهانة وهي تجذبني من يدي:

ـ وما أهمية وجوده، سنصعد ونوفر الشلن.



رأيت في عينها بريق المغامرة ولذة الوقوف على حافة الخطر، فانجذبت وراءها،سرنا على عشب طري وسط نباتات مبللة، هرعت خلفها وأنا أداري خوفي في ولهي بها، مدت قدمها على أول السلم ثم قفزت إلى أعلى كطير ينتفض شوقا للفضاء، رأيتها وقد صعدت عاليا حتى خفت أن ترحل مع السحب هتفت: أنا قادم خلفك يا فاطمة، رميت ذعري وتلقيت على وجهي رذاذ الماء، وأزحت أذرع النباتات المتسلقة وأخذت أواصل الصعود، وسمعتها وهي تهتف بي من أعلى:

ـ لا تنظر إلى أسفل حتى لا تدوخ رأسك..

لم أكن بحاجة للتحذير، لم أكن أنظر إلا إليها، فيزداد جسدي خفة، وتمتلئ وروحي ببرودة الهواء النقي، وعلى العوارض الحديدية، تمد العصافير أعناقها من خلف أعشاشها، وهي ترقبني، تظهر ببطء بيوت المدينة الواطئة، عليها أكوام من قش الأرز وعيدان الحطب وزلع الجبن القديم، تجلس نسوة يمشطن شعور بناتهن في الشمس، مسترخيات بثيابهن السوداء فوق القش الأصفر، تهتف فاطمة بي أن أواصل الصعود، تظهر بيوت العمال والموظفين في الجانب الآخر من البلدة، أكثر ارتفاعًا وأفضل شكلا، عليها حبال الغسيل والثياب مازالت تنقط ما فيها من ماء، عقود البصل والثوم متراصة حول بناني الحمام، على آخر حدود تظهر البيوت العالية، لا أعرف من يسكنها بالضبط لأنهامغلقة ومتجهمة ولا يوجد عليها أي معلم من المعالم، ترمق البيوت الواطئة التي تحاصرها في احتقار



دائم، يصفعني الهواء وينفذ برده إلى عظامي، أقبض على العوارض الحديدية وأنا أرتعد، كيف تصعد هي بهذه السهولة واليسر، كأن هناك شيئًا ما يجذبها إلى أعلى ويفك ارتباطها مع كل ما هو أرضي، تهف بي مشجعة: لم تبق إلا درجات قليلة، واصل الصعود..

ولكن السحب لاتكف عن الحركة، كأن صهريج المياه غير ثابت في مكانه، وأخيرا مدت يدها فأمسكت بأطراف أصابعها، الشيء الدافئ الوحيد الذي جعلني أتشبث بمواصلة الصعود، ماذا تفعلين بي يافاطمة؟ ومن أين تستمدين هذه الطاقة السخية التي تتحركين بها؟ وجدت نفسي وقد أصبحت خلف الحاجز العلوي، بجانب خزان الصهريج، بعيدًا عن النباتات المتوحشة، قريبًا من السحب، العصافير تطير تحت أقدامي المعلقة، والمدينة كلها هاجعة تنتظر إشارتي، تعرف أن هناك غلاما عاشقا استطاع أن يعلو بجسده النحيل فوق نطاقها، لم يعد فوقه سقف يجعله خافض الرأس، جلسنا متلاصقين، نسمع حفيف السحب الخافت وهي تواصل الرحيل، هبط الخوف، استكن وسط طين الشوارع، وامتلأت روحانا بنشوة صافية الزرقة، من بعيد بدا النهر الأخضر الذي يشق المدينة، بجانبه شريط السكة الحديد وقطار طليق ينفث دخانًا ليس أسود، ولكن خليطًا من ألوان، يسير ببطء دون أن يأبه بالوقوف في أي محطة، استندنا بظهورنا على الخزان وظلت أقدامنا مدلاة في الفضاء، والمدينة هامسة الصوت واللحظة التي نعيشها ممتدة بلا نهاية، كعذوبة كل الأنهار، وحفيف كل الأجنحة، فيها ميلادي وعشقي ورغبتي وموتي، نستمد من تلاصقنا دفئا خاصا، رغم الهواء البارد



والماء الذي يضطرب خلفنا داخل الخزان، كانت تمد يدها إلى أعلى فيخيل إليّ أن السحاب ينزل إليها طائعًا، أحست العصافير بالأمان فحلقت حتى حطت على أكتافنا معًا فظللنا صامتين سويًّا حتى لا نزعجها.

فجأة تناهى إلى أسماعنا صوت ضربات مكتومة تنساب عبر عوارض الصهريج الحديدية فتحنا أعيننا وطارت العصافير مبتعدة، عاد الحارس الأعور ثائرًا وأخذ يضرب عوارض الصهريج بساق الصبار الجافة، يأتينا صوته من أسفل مضخما بالصدى وهو يصيح:

ـ انزلوا، يا أولاد الكلب..

ابتعدت السحب مذعورة، وزمجر الماء داخل الخزان، قلت في فزع:

ـ ماذا سنفعل؟

قالت: سنهبط.. طبعًا.

وحاولت أن تتقدمني ولكني أمسكتها من يدها:

ـ هذه المرة سأهبط أنا أولًا، وإن كان ثمة عقاب فعليّ أن أتلقاه.

تظاهرت بشجاعة لم أكن أتمتع بها، أخذت أهبط وهو يكف عن الصياح وضرب العارضة، كلما توقفت صرخ فيّ أن أهبط حتى لا يصعد ويمزقني.

هبطت حتى رأيت ملامحه المرعبة بوضوح، ولمحت النار الكامنة في عينه الواحدة، وارتعدت من حدة الأشواك في غصن



الصبار الذي يمسك به، كان يتهيأ ليغرسه في جسدي، توقفت عن الهبوط متجمدًا في مكاني، وتوقفت فاطمة في أعلى الدرج، صاح مهددًا وهو يضرب العوارض في جنون أحسست بجسدي كله وهو ينفلت والهواء يحيط بي، شعرت بنفسي وأنا أرتطم به، ونحن نسقط سويًا على الأرض، صاح في غضب:

ـ وتسقط في رأسي أيضا يابن الكلب..

وقف أمامي متحفزًا وهو يرفع الغصن الجاف، كدت أموت رعبًا، ولمحت فاطمة مسمرة فوق السلم، وفي محاولة يائسة أدخلت يدي في جيبي وأخرجت القطعة الفضية وأنا أهتف في سرعة:

ـ هذه لك، أقسم إنها لك..

وفتحت كفي أمامه، لم يهدأ غضبه، انتزعها مني وهو يدمدم، كل ما في الأمر أنه أنزل الغصن الشوكي وصاح:

ـ سوف تقصفون أعماركم يا أولاد الحرام، أين المحروسة الأخرى؟

وفوجئت أن فاطمة قد اختفت، أحسست بالراحة الشديدة ولم أعد أبالي بأي عقاب ينزله بي، تظاهر بالبحث عنها، وظللت جالسًا حتى تأكدت أنها غير موجودة وأنها ابتعدت لمسافة كافية ثم أخذت أعدو عبر النباتات المتوحشة حتى غادرت السور الحديدي.

في المساء حلمت بفاطمة تحوط بها السحب كغزل البنات، ولم يكن الحلم واضحًا، بدت كأنها آخذة في الابتعاد عن عيني،تلفها



السحب وتكاد أن تحجبها، لم يعث الحلم بالسعادة في داخلي، استيقظت مبكرًا وأعطيت القطط طعامي وسرت وحيدًا وسط أنفاس الصباح،انتظرتها فلم تأت، وصلت متأخرًا إلى المدرسة دون داع ونلت عقابي بلا ثمن، لم تأت أيضا في اليوم الذي يليه، ولكن لَمستها ظلت باقية على خدي، سرت في شوارع المدينة، نظرت إلى كل البنات اللاتي يرتدين مريول «تيل نادية» وبحثت عبثًا عن «فيونكة» حمراء متألقة، جلست وحيدًا، وطلبت من أمي أن أحمل صينية الشاي إلى أبي وصديقه، كانا يجلسان في غرفة المسافرين، كان أبي غاضبًا وهو يهتف في حدة: هذا هو ما يحدث دائما، تتغير إدارة المصنع، ويأتي مديرون جدد، ولكن استغلالهم لنا لا يتغير، لا أدري من أي «ملة» يأتون بهم، هدأ صوته فجأة عندما رآني، نهض صاحبه وأخذ مني الصينية وصافحني وقال لأبي وهو يشير إليّ: بعيدا عن كل هذه «الدوشة» هذا أفضل عمل قمت به في حياتك، اهتم بتربيته ودع المصنع لخالقه، ولكن أبي همهم غاضبًا، تركتهما وجلست بجانب النافذة، وفي هذه اللحظة رأيت فاطمة، كانت في الحارة الجانبية هي وثلاث بنات يلعبن لعبة الصندوق، كانت تتقافز، ترفع قدمًا إلى أعلى وبالقدم الأخرى تدفع قطعة مربعة من الحجر عبر خطوط الطباشير، خفق قلبي وأنا أراقب «فيونكتها» الحمراء مثل جمرة تشتعل بقلبي، كدت أصطدم بأمي وأنا أعبر صالة المنزل، وأوشكت على الانكفاء وأنا أتقافز على الدرج، وتعثّرت في القطط فماءت في دهشة ولكنها لم تخمشني، خرجت من باب البيت وأنا أرتجف فلم أجدها، وجدت البنات



الثلاث، والصندوق المرسوم بالطباشير، وقطعة الحجر المربعة إلا هي، سألت البنات عنها فقلن إنها انصرفت لأنها تأخرت، سألتهن عن بيتها عن مدرستها فلم يعرفن، أخذت أعدو في مختلق الاتجاهات، وصلت إلى النهر الأخضر، وعدت إلى الصهريج، ثم عدت نحو أزقة المدينة الضيقة، ولم أدر لماذا تظهر فجأة، ولا أين تختفي فجأة؟..

مرت أيام كثيرة، وتبدد دفء لمستها من جسدي، وأحسست بمدى وحدتي، كأنني كبرت فجأة فلم أعد قادرا على مشاركة زملائي في لعب الكرة، ولم أعد أضحك على نكاتهم، ونفرت من تعلم شرب السجائر،حتى القطط الصغيرة كبرت هي أيضًا فجأة، غادرت أماكنها وانضمت لبقية القطط الضالة، لم يبق راسخا في مكانه إلا الصهريج، ولكن الريح ظلت تدفع السحب بعيدًا عنه، تكنس ذكرياتي، أصبحت أخاف من أن أتذكر فاطمة حتى لا أتألم بشدة، حاولت أن أتغلب على هذا الحزن الدائم، خرجت في يوم شم النسيم مع أصحابي، لونت لي أمي أربع بيضات بألوان مختلفة، ذهبنا إلى متنزه البلدية، قالوا نلعب «صياد حمام» وكان الدور عليّ، أخرجوا منديلًا ولفوه حول عيني ثم تفرقوا خلف الأشجار وتركوني في الظلام أتعثر بين أحواض الزهور، وأسقط في بقع الماء المختفية تحت الحشائش، كانوا قد أجادوا الاختفاء حقًا وعرفت أنني سأعود بلا صيد، مددت يدي فلمست يدًا أخرى دافئة، ورفعت المنديل فرأيتك يا فاطمة أمامي، كبرت في أيام الغياب، وأصبحت ابتسامتك أكثر عذوبة واختفت الفيونكة الحمراء واستطال شعرك



حتى هبط مسترسلًا فوق كتفيك، هتفت باسمك عاليًا من فرط حرقة قلبي، ضحكت بشقاوة وأمسكت المنديل وعصبته مرة أخرى حول رأسي وأحسست بأصابعك تدخل في شعري قبل أن يسود الظلام، فطنت للخدعة ومددت يدي سريعًا وفككت المنديل ولكنك لم تكوني موجودة، لكنهم كانوا هناك، وكان البيض عطنًا رغم أن أمي اشترته طازجًا، اتهموني أنني أغش في اللعب، فأخذت أعدو بطول الحديقة وعرضه، أتعثر في الجالسين، وأفسد ولائم الفسيخ وأخذت الفراشات وأسراب النحل تطاردني من مكان لآخر، بحثت خلف كل شجرة وظل تعريشة، حتى المقاعد بحثت تحتها، وصعدت فوق شجرة الجميز العالية لأرى الحديقة في نظرة واحدة، وسب الحارس أبي وأمي وهو يدفعني للنزول، عدت إلى البيت حزينًا وقد أدركت أن نصيبي منك هو لمحة خاطفة.

جاءت قطط أكثر جوعًا، ولكن لم يعد هناك طعام، ولم تعد هناك صفائح للزبالة فوق السلم، ولم يعد اللحم يدخل بيتنا إلا مرة كل شهر، وظل أبي غاضبًا على الدوام، لا يهدأ إلى حين يراني واقفا أمامه، وينزل الكتاب الذي كان مستغرقا في قراءته ويهتف بي: كتب على عمال هذا المصنع الظلم، الإنجليز كانوا يصادرون أقمشتهم أيام الحرب، والباشوات كانوا يستغلونهم، وهاهم العسكر ينهبونهم نهبا، كانت أمي تراقبه وهي منتفخة البطن، وتخشى أن تناقشه حتى لا يثور، ثم تأوهت فجأة ذات ليلة وذهبت إلى مستشفى الشركة، وعادت بعد يومين بلا بطن ولا طفل، وأغلقت عليها حجرتها



وأخذت تبكي، قال أبي: الله يعوض علينا، أعطينا طفلا للجنة، ثم هدأت أمي وعادت تطبخ لنا طعامًا بدون لحم ولكنه كان ساخنا ولذيذا، وحلمت ذات ليلة بفاطمة حلمًا جميلًا فذهبت إلى المدرسة متأخرًا، وعاقبني مدرس الألعاب بالوقوف بجانب دورة المياه بحيث يراني الجميع ويسخرون مني، لم أتحرك من مكاني، وسمعت مدرس التاريخ وهو يناقش مدرس العربي كانا يتحدثان عن يوم إجازة عيد الجلاء، وقال مدرس التاريخ إنه لا تكفي إجازة ليوم واحد، لابد من يوم من أجل جلاء الهكسوس، ويوم للفرس، وآخر للرومان والترك والفرنسيين ثم أخيرًا الإنجليز، وقال إننا لو أحصينا عدد من غزوا مصر لاحتجنا لعام كامل من الإجازات ورد مدرس العربي عليه في ثقة ولا مبالاة: يكفي أن الله قد أعز مصر بالإسلام، وبدا مدرس التاريخ متشائمًا، ربما لأنه قرأ،مثل أبي، في الكتب القديمة أكثر مما ينبغي، في هذه اللحظة مرت مدرسة الرسم عبر فناء المدرسة، وعلق مدرس العربي وهو يعدل نظارته أن الفتنة والغواية تكمنان في هذين الساقين الجميلتين، وقال مدرس التاريخ إنها رغم أنها تشبه إيزيس إلا أنها ليست عصية كما يبدو، وأكد أنها جاءت، وتوسلت إليه، وألحت وهو الذي رفض، هتف به مدرس العربي مرعوبًا أن عليه أن يكف عن أحلام اليقظة هذه وأن يخفض صوته حتى لا يسمعه حضرة الناظر، ولكن مدرس التاريخ كان لا مباليًا فعاد يؤكد له أنها ترغب في كل المدرسين بلا استثناء ما عدا حضرة الناظر، ورأيت نفسي أبتعد عنهما في رعب، جريت دون توقف حتى قفزت من فوق سور المدرسة الأصفر.

في مساء اليوم قالت أمي وكأنها تتنبأ: هذا الشتاء لن يمر على خير، تحولت السحب إلى اللون الأسود وهطل المطر لأيام متوالية ثم توقف تماما، جفت الوحول وظلت المدينة ملوثة، تسري في أرجائها انتفاضات قلقة وحالات خفية من السخط، بدأ أبي يتأخر عن موعد انتهاء «الوردية»، وظلت أمي تعاني من قلق مضاعف، تعجز عن تناول العشاء وتظل جالسة تنتظر بجانب النافذة رغم أنني يئست من عودة فاطمة ولم أعد أنتظرها، وعاد أبي متأخرًا جدًّا، كنت بين اليقظة والنوم وسمعته يتناقش مع أمي في حدة، كانت أمي تهتف به: أنت أسطى قد الدنيا، لا شأن لك بالعمال ومشاكلهم، ولكنه قال محتجًّا: أنا عامل مثلهم تمامًا، الاستغلال لا يفرق بين الأسطى والأجير، قالت في أسى: دعك إذن من مشاكل العمال الموسميين، هؤلاء تراحيل ومشاكلهم لا تنتهي، ولكن أبي كان مصرًّا على رأيه، هتف: هم أيضًا عمال مثلي ولا أن أرضى بأن يأخذوا نصف الأجر فقط ويتضور أطفالهم جوعا، يجب أن تعرف الحكومة أننا يد واحدة، وتنهدت أمي، أدركت أنها تخوض معركة خاسرة، كان يتحدث في اندفاع وهي تنظر إليه، ووجهها محمل بمرارة من خسر كل المعارك، وفي الصباح قال لي أبي:

- من الأفضل ألا تذهب اليوم إلى المدرسة، سوف تصبح شوارع المدينة خطرة..

ودوت صفارة الوردية فاتسعت حدقتا أمي من الرعب، لم يتوقف أبي وانصرف سريعا، سمعنا صوت أقدامه وهي تهبط السلم،



وجلست أمي في الركن ساهمة تمامًا، أنزلت حقيبة مدرستي، وجلست بجانبها، لمست ذراعها فانتفضت، قلت في خوف:

ـ ماذا حدث؟

قالت في صوت خافت ومرعوب: لا أحد يعلم ماذا سيحدث سوى الله، عمال المصانع سوف يضربون اليوم..

لم أفهم وقتها بالضبط ماذا يعني الإضراب، ولكن المدينة كلها كانت تعرف أن أيام الشدة قد جاءت ولن تنتهي سريعا، ومرت ساعات اليوم طويلة بطيئة، جاءت نسوة شاحبات يرتدين السواد، جلسن بجوار أمي صامتات، في عيونهن فزع من كل الأيام المقبلة، لم يكن هذا زمن يصلح للأحلام، ولأجل هذا اختفت فاطمة وتفرقت السحب ولمت الطيور أجنحتها واستكانت في أماكن مجهولة، ظللن جالسات وسط صمت بارد، عاجزات عن تناول الطعام وعن تبادل الحديث، مرة واحدة انتفضت أجسادهن عند الظهيرة عندما انطلقت صفارة الوردية، دخلت الوردية الجديدة ولم تخرج التي سبقتها، أغلق المصنع أبوابه على الجميع، انضم إلينا المزيد من النسوة، وأصبح الهم لا يطاق، لم أستطع أن أبقى جالسًا، تسللت دون أن تراني أمي، هبطت إلى الشوارع شبه الخالية، والمساء يهبط في بطء والأنوار المعتمة تجعل المدينة بالغة الغموض، لم يفتح التجار الدكاكين، وانسحب باعة الأطعمة الجوالين، كانوا يبلغون قمة نشاطهم في أوقات تغيير الوردية، ولكن أسوار المصنع تمتد عالية ومتنائية، لا أحد يدخل أو يخرج، ترى ماذا يدور خلفها؟



وماذا يفعل أبي وسط زملائه من العمال؟ ولماذا اختار كل العمال هذا الوقت للقيام بهذا الشيء المسمى الإضراب.

من بعيد لمحت صفا من العربات السوداء الضخمة قادمة في بطء من خارج المدينة، تزحف كسلاحف ضخمة، أجسادها فيها لمعة غامضة من وميض الغروب، وعندما أصبحت أمامي رأيت الجنود بداخلها على رءوسهم الخوذات الحديدية وفي أيديهم عصي غليظة أكبر من عصا الناظر عشرين مرة، كانوا يحدقون أمامهم بوجوه جامدة، دارت السيارات حول سور المصنع، وقفت واحدة منها عند كل زاوية وتجمعت أربعة أخرى أمام بوابة المصنع الرئيسية، كان هبوط المساء قد أجل كل المواجهات، ولكن من يدرى؟

لم يعد أبي إلى البيت طوال المساء، ولم يطلق المصنع صفارته، ولم ينم أحد من أهل المدينة، وظلت النسوة جالسات حول أمي، زهور سوداء، صامتات وعلى وشك الذبول، تسللت أنا في صباح اليوم التالي مبكرا، كنت أتوقع أن يكون الخوف قد جعل شوارع المدينة خالية، وأن أقابل فاطمة في مصادفة أخرى نادرة، ولكن الرعب كان في انتظاري في الشارع الرئيسي، غادر الجنود السيارات وانتشروا في المدينة، أخذوا يلوحون بعصيهم الطويلة، وهم محتمون خلف الدروع اللامعة، بينما كان يقف أمامهم بقية عمال المصنع الذين لم يكونوا داخل الأسوار، ثيابهم زرقاء ووجوههم شاحبة ومحتقنة وهم يهتفون صارخين، يطالبون



بالعديد من الأشياء التي كنت أسمع أبي يتحدث عنها دائمًا: رفع الأجور، منع الفصل التعسفي، تثبيت العمال الموسميين، أجر أضافي عن أيام الجمع، وكنت أعرف العامل الذي يقف في مقدمتهم، كان صديقًا لأبي واسمه «عم جبريل»، يأتي دائما ليشرب الشاي معه، يمسك عصا طويلة على هيئة مشنقة معلق فيها دجاجة ميتة، لم أعرف ماذا يعني بها؟ ولكن الدجاجة كانت نحيفة جدًّا ولا تستحق الشنق، انتقل الغضب من العمال إلى بقية الأهالي، غادروا بيوتهم وانضموا للجمع الذي أصبح كثيفًا، رأيت عربات الجنود التي جاءت بالأمس وهي تقف بينهم وبين البوابة الرئيسية، كان بقية العمال يريدون الانضمام إلى زملائهم داخل الأسوار وكنت أريد أن أنضم لأبي، وفجأة بدأت قنابل الدخان تتساقط في اتجاهنا، تناثرت في كل مكان من حولنا، لم ندر من أين تنطلق، حاصرتنا بستائر من الدخان الخانق، اخترقتنا بدويها المكتوم ورائحتها النفاذة، تصاعدت الأدخنة بيضاء كالسحب، حمراء كألسنة اللهب، وبدأ الصراخ والصياح، جرى البعض ولكن العمال لبثوا في أماكنهم، ردوا هجوم الجنود وأخذوا يضربونهم بالأحجار، ولكن الجنود كانوا ماهرين في استخدام دروعهم، رفعوها وتلقوا عليها كل الأحجار، وصرخ ضابط في صوت مسلوخ:

ـ أطلقوا النار..

ارتفعت في الجو أصوات طلقات متتابعة من الرصاص الحي، أحسست بجسدي كله يرتجف، هذه هي المرة الأولى التي أسمع



فيها صوت طلقات حقيقية بعيدا عن شاشة السينما، سقطت أمامي إحدى قنابل الدخان، جريت واختبأت خلف باب أحد المحلات، وظللت أراقب الدخان وهو ينساب من فوهتها، وعندما سكتت اقتربت منها، كانت ساخنة فأمسكتها بطرف القميص رأيت كلمات إنجليزية مكتوبة على جسدها المعدني، امتلأت شوارع المدينة بمثل هذه الفوارغ، دب الذعر في العمال بسبب الرصاص، أخذوا يجرون في كل اتجاه، والجنود يطاردونهم بالعصي، من مخبئي رأيت أحد الجنود يمسك بندقيته ويطلق النار في الهواء في جنون، حمدت الله أن أبي داخل أسوار المصنع، كان سيتصدى لهم بالتأكيد، تواصلت قنابل الغاز حتى أصبحت الشوارع مختفية تحت سحابة كثيفة وخانقة.

ثم بدأت المدينة تتحطم، ظهر غلمان هيئتهم غريبة، لم يكن يزيدون عن عمري إلا قليلا، ولكن ثيابهم كانت رثة، ووجوههم مليئة بالندوب، لم أتصور أبدا أن في مدينتنا كل هذا العدد منهم، حطموا الأسوار والمقاعد الخشبية في شارع البحر، وكشك التليفزيون، وزجاج محطة القطارات، وكل المصابيح الساطعة التي كانت تنير الشارع، واحترق كشك الموسيقى الذي كان عساكر الشرطة يعزفون فيه كل يوم جمعة، والقنطرة الخشبية التي كانت تعبر النهر، ومحل الدراجات المؤجرة، وعربات غزل البنات الملونة، فعلوا ذلك بحنق كأنه لا يوجد ما يربطهم بأي شيء، كل المعالم التي عشت بينها منذ أن شببت في شوارع المدينة كانت تتحطم، أيامي الماضية وذكريات عشقي القصير العمر، كلها كانت تتهاوى



متناثرة يضاف إلى ذلك قسوة عصي الجند وهم يسدون علينا منافذ الهرب، احتضنت القنبلة الفارغة، لم أجرؤ على قذفهم بالأحجار من فرط خوفي، ولم يكن هذا مجديًا ماداموا يتلقونها على دروعهم بهذه المهارة، واستطعت أخيرًا أن أصل إلى شارع جانبي لم يغلقه الجنود بأجسادهم، ظللت أتخبط في الدروب الضيقة المليئة بالوحل حتى وصلت إلى بيتنا، ونظرت النسوة إليّ، تتداولن القنبلة الفارغة بين أيديهن، وتحسستني أمي في هلع وهي لا تصدق أنني عدت حيًا، ثم تركتني أجلس وحيدًا مرتعدًا عاجزا عن الكلام.

في منتصف الليل انصرفت النسوة والقذائف ما زالت تدوي، ثم خمد كل شيء وساد سكون مطبق قاس، وفتح الباب فجأة وظهر أبي، كان متعبًا، مليئًا بالجروح الصغيرة في وجهه وساعديه، وثيابه الزرقاء ممزقة تقريبًا، سقط مجهدًا على «الكنبة» وهو يهتف:

ـ أوغاد الحكومة، اقتحموا المصنع وأرادوا أن يحطموا الماكينات، ولكننا حميناها بأجسادنا.

وبدت أمي كأنما قد شاهدته خارجًا من القبر، ارتمت بجانب قدميه وأسندت رأسها إلى ركبتيه وبدأت تبكي، ومد أبي يده الضخمة ووضعها على رأسها وقد هدأ تمامًا وقال:

ـ أنا بخير، ألا ترين، أنا فعلًا بخير.

ومرة أخرى انبعثت أصوات الطلقات، وشرد أبي وهو يقول:

ـ ولكن، هل بقية الزملاء بخير حقًا؟

ثم دوت طرقات عالية على الباب، مدت أمي ذراعيها وأحاطت ركبتيه، ودق قلبي، ونظر أبي إليّ آمرا: افتح..

ولكن أمي صرخت: لا..

أحكمت ذراعيها حول ركبتيه، حاولت أن تكتم صرخاتها وهي تقبض على قماش بدلته الزرقاء، قال أبي:

ـ لو لم نفتح فسوف يكسرون الباب..

كانوا قد كسروه بالفعل، اندفعت أجساد الجنود بثيابهم السوداء كالخفافيش، احتلوا المكان المحيط بنا، دفعوني بعيدًا، وحاولوا انتزاع أمي التي تشبثت بساقي أبي، ولكنه صرخ فيهم بشراسة:

ـ لا يلمسها أحد منكم..

تراجعوا ووضع أبي يده على رأسها في رقة وهو يقول:

ـ امسحي دموعك وراعي ابنك.. حافظي عليه حتى أعود..

ابتعدت عنه واحتضنتني، انقضوا على أبي وأمسكوه من ذراعيه، ثم بدءوا يحطمون بيتنا، قلبوا كتبي، شقوا المراتب والوسائد وأخرجوا حشوتها، كسروا حقائب السفر الموجودة فوق الدولاب، جمعوا كتبه الضخمة وأخذوها، ثم دفعوا أبي عبر باب الشقة، ورأيت نظرة عينيه الأخيرة وهو يتطلع إلينا محذرًا أمي من الصراخ، جريت إلى النافذة، كانت العديد من السيارات الضخمة واقفة في انتظاره وحده، والجنود يملئون الشارع، كأنهم يستعدون لمعركة، رأيتهم وهم يدفعونه خارجين من باب البيت، يرغمونه على الصعود ثم



يصعدون جميعًا خلفه، أغلقوا أبواب كل السيارات في ضجة عالية، ثم اندفعوا مخترقين الشارع حتى غابوا في الظلام وهدأ كل شيء، ولم يعد هناك أبي.

في هذه الليلة كنت في حاجة لأن أراك يا فاطمة، لم أرك حتى في الليالي التي تلتها، لو أنك رأيت كل السيارات التي سدت شارعنا والجنود التي حشدوها، من أجل رجل وحيد، لا تخلو يداه من الشحم،لعرفت مدى القهر الذي أحسست به، لم أكن سأبكي، البكاء كان للأطفال وأنا منذ ذلك اليوم لم أعد طفلًا، مسحت دموع أمي، واحتضنت جسدها المرتعد وظللنا جالسين مستيقظين طوال الليل، ثم نهضت في تثاقل وارتمت على سريرها وأخذت تهذي، ظللنا وحيدين وصامتين، مرّ علينا نهار آخر وليلة أخرى، حاولت أن أزيل ركام الحطام من الشقة، وأزيل الحرارة من جسد أمي، لم تهدأ الحمى رغم أن كل شيء قد بدأ يهدأ، المدينة، والناس، ولكنها واصلت الارتعاد..

عادت صفارة المصنع تدوي، وانتظمت الورديات، سار العمال فيها منكسي الرءوس، وانسحب الجنود بعد عدة أيام، ولم يعد أبي ولا غيره من بقية العمال الذين شاركوا في الإضراب، كل شيء كان متكسرًا، والجميع لا يتكلمون، صامتين تحت مرّارة الهزيمة التي ترسبت في أعماقهم، عدت إلى المدرسة، وبدأ كل شيء يزداد ضيقًا من حولنا، تناقصت أصناف الطعام داخل البيت، لم يعد منها إلا صنف واحد هو البطاطس، بطاطس في الصباح، وبطاطس في المساء، وجبتان في اليوم ثم وجبة واحدة، كانت النسوة يزرننا،



ويتهامسن مع أمي، يمصمصن شفاههن وهن ينظرن إليّ، لم يكن يعد هناك لا شاي ولا سكر ولا زيت.

وفي الصباح بينما كنت أحمل الحقيبة وأستعد للمدرسة جلست أمي أمامي، أمسكت مفتاح الشقة وقد ربطته في خيط غليظ وعقدته حول رقبتي وهي تقول:

ـ أصبحت الآن كبيرًا يا علي، ستحافظ على هذا المفتاح، تعود من المدرسة كل يوم فتفتح الشقة وتعد الطعام لنفسك وتذاكر حتى أعود.

كنت متخوفًا لا أدري ماذا سيحل بنا، قلت:

ـ وأنت.. أين ستكونين وقتها؟

أخفت وجهها، لم تنظر في عيني، قالت وهي تبلع ريقها:

ـ لن أعود إلا آخر اليوم، كل يوم، لن أعود إلا آخر النهار.

سرت والمفتاح حول رقبتي، ومازالت آثاره موشومة على جلدي حتى الآن، تعاودني في لحظات الحزن والافتقاد، أصبحت نهاراتي خالية من أبي ومن فاطمة وخالية منها أيضا، أيام طويلة وباردة وأخرى حارة وقائظة، كانت أمي تتأخر أحيانًا، يدخل الليل عليّ وهي غير موجودة، وأنا أجلس واجفًا، كل حركة وكل صوت عابر يملأ جسدي بالارتجاف وعندما تعود كان شكلها يبدو متعبًا لدرجة تثير الشفقة، تحدق فيّ بعينيها الواسعتين وعندما أحتضنها تتأوه في خفوت، يفوح من ثيابها رائحة الصابون المبشور وتبدو يداها شديدتي البياض، مشققة ومقشرة الجلد، أحيانًا كان يفوح



منها رائحة الكيروسين، أو تظل قطع العجين ملتصقة بها، تعودت على كل هذه الروائح، ولكن لم أتعود أبدًا على درجة الإنهاك التي كانت تعود بها كل مساء كأنها على حافة الموت.

تعودت على أكل الظهيرة البارد، قطعة دائمة من الجبن لا تنفد أبدًا، وإذا تحسنت الظروف كانت هناك بيضة، ولكن وجبتنا الأساسية كانت في المساء، عندما نجلس سويًّا وتفتح لفة الطعام التي تحضرها معها، طعام بارد، خليط فيه كل شيء، الخضار بالأرز بالمكرونة بقطع اللحم الصغيرة التي يغلب عليها الدهن، في البداية كنت أشمئز من هذه اللفافة، ثم اكتشفت أنني أنتظرها، أتمنى فقط لو أنها لم تكن باردة لهذه الدرجة، ومختلطة إلى حد يصعب فصلها، ثم تعودت أن أزدردها كل يوم دون أن أفكر في طعمها.

بدأت درجاتي في المدرسة تتراجع، وطلب حضرة الناظر نقله إلى منطقة تعليمية أخرى، ولم تعد هناك صباحات ندية تغمر المدينة، كنت وحيدًا، عاجزًا عن اللعب، تعود أمي متعبة في المساء لدرجة تجعلها غير قادرة على الكلام معي، فتزداد وحدتي، وبدأت أصوات المسكن الخالي تصيبني برعب يصاحبني حتى في أحلامي، ولم أجرؤ على تذكر لحظات السعادة القصيرة التي عرفت فيها فاطمة، هتفت أمي ذات مساء:

ـ غدًا سنذهب لزيارة أبيك..

حدقت فيها بدهشة، هل هناك مكان لأبي، بل ويمكن زيارته أيضًا؟ كانوا قد قالوا لي في المدرسة إنه وراء الشمس، وبدا المكان



قصيا لدرجة لم أجرؤ على السؤال عنه، طوال هذه المدة كنت أنا وأمي نتجنب الحديث عنه بصورة مباشرة، ولكنه كان موجودًا في صمتنا، في تفاصيل الشقاء اليومي، في كل لقمة باردة، في الشوارع التي تحاصرنا، والوجوه التي نعرفها، لم تغادر رائحته الشقة منذ أن غادرها، شحم وعرق وبهجة زائفة، لم تكن يداه تعرفان النظافة إلا بعد أن يغسلها بالصابون «الزفر» أربع مرات، ولم يكن يكف عن الحديث، وكانت يده ضخمة وحنونة..

مدت أمي يدها في الكيس الذي تحمله وأخرجت دجاجتين مذبوحتين، دمهما مختلط بالريش، منذ وقت طويل لم يدخل الدجاج بيتنا مذبوحًا، دبت في البيت حياة جديدة، ذاب الصمت وبدأت الضجة، أحضرت أمي «الوابور»، وضعت الماء ثم أسقطت الدجاجتين فارتفع الزغب الدقيق وبقع الدم الداكنة على سطح الماء، ثم خرجتهما وقد أصبحتا رخوتين أمسكت أمي واحدة وأخذت تنزع ريشها بمهارة، فأمسكت أنا الأخرى ونزعتها بعنف ولم تعترض أمي، بدا جلد الدجاجة عاريًا ومشدودًا ومشربًا بالحمرة يلمع تحت وهج المصباح.

بدأ الطهي فتصاعدت الرائحة عبقة ودسمة، أزاحت الرطوبة من الغرفة الباردة، كانت حبيبات الدهن تسبح حولنا في الفضاء، ووابور الجاز يطن، تسقط عليه بعض من رغاوي الحساء فيتحول لونه إلى الأحمر والأخضر والأصفر ثم يواصل الاشتعال وترتفع على سطح «الحلة» طبقة من الريم الأشهب تفصله أمي بالملعقة وهي تبتسم.



المرة الأولى التي أراها فيها تبتسم منذ أن أخذوا أبي، كانت منهمكة في تقشير البطاطس كمن يقوم بطقس مقدس، أمسكت أنا أيضًا البطاطس وأخذت أقشرها، وانضم أبي إلينا يقشر معنا بيده المليئة بالشحم وحاولت أمي إزاحته حتى لا يلوث كل شيء، وضحك هو وأكل البطاطس قبل الطهو.

أوغل الليل في الظلمة، ونضج الطبيخ كما لم ينضج من قبل، أخذنا نصر كل شيء ونربطه بإحكام، أحضرت أمي «قفة» جديدة ورصت أصناف الطعام في قاعها بعناية، أصبحت القفة ساخنة، ترتعد بما فيها من أطعمة بالغة العذوبة، الفراخ تقلت بالسمن، وذابت البطاطس في الطماطم، وتفتق الأرز متوهجًا ناصع البياض، أتمت أمي كل شيء، ثم وضعت قطعة من القماش على فوهة القفة وبدأت تخيطها بخيط غليظ.

أحكمت أطرافها بعناية ولم يعد ظاهرًا من الوليمة إلا رائحتها، وجلسنا بعد ذلك صامتين، مجهدين، سعيدين، ننتظر مرور ساعات الظلام، يملأ الشقة من حولنا دفء ذو رائحة عذبة، رأيت أبي يبتسم، ويأكل.. ويمسح فمه بظهر يده، ويغمز بعينيه لأمي وهو يقول لها إن طبيخك هو الذي يعطي طعما لهذه الدنيا.

ارتفع صوت آذان الفجر، نهضنا سويًا، حملت القفة على رأسها وأطفأنا الأنوار، ثم أغلقنا باب الشقة في عناية، كان الظلام ساجيًا، وبعض المتوجهين للصلاة يغمغمون بالآيات القرآنية طلبًا للمؤانسة والغفران، وقالت أمي دون أن تلتفت ناحيتي لأن «القفة» كانت فوق رأسها:

ـ تمالك نفسك أمام أبيك، لاتضعف وتبدأ في البكاء، يجب أن يعرف أنك أصبحت رجلًا..

حتى لو أردت البكاء يا أمي فلن أستطيع، لم تكن تنتظر مني جوابًا لأنها أضافت بعد قليل في تردد وخجل:

ـ لا داعي لأن تذكر له موضوع الخدمة في البيوت، هه، سيعرف كل شيء بعد أن يخرج، أليس كذلك يا علي؟

إلى متى نداوم على هذا الانكسار؟ إلى متى نمضغه مع كل ضوء من أضواء الفجر؟ كلما هلَّ علينا الصباح وعرانا الضوء أوشكنا أن نموت خجلا، مبنى المحطة أمامنا، نوافذها مازالت محطمة خالية من الزجاج، وبلاط الرصيف ناعم وزلق وبلا لون، لم أدر كيف فعلت أمي كل هذا، كيف حصلت على تصريح الزيارة وعرفت المكان الذي يوجد فيه، والقطار الذي سوف يحملنا إليه، كيف تحمل جسدها النحيل كل هذه الأعباء؟

في البداية لم يكن هناك إلا باعة الجرائد وهم يقفون حول أكوام الصحف التي هبطت لتوها، كل واحد يتسلم حصته، ثم بدأن في التوافد، نسوة مثل أمي يرتدين السواد، ويحملن السلال والمقاطف واللفائف، كبيرات وصغيرات ولكن ملامحهن متشابهة، بعضهن كن زوجات أصدقاء أبي وبناتهن، والبعض الآخر لا أعرفهن، تجمعن، وضعن السلال والمقاطف في أحد الأركان ثم جلسن جميعًا في دائرة وهن يتهامسن، يناقشن مشوار اليوم، يتبادلن الخبرات، والأحـزان المكتومة والضحكات المبتورة، أشرن للمقاطف تحدثن عن المأكولات عن لحظات الأمس النادرة، عندما نضج الطبيخ وتصاعدت روائح الدسم..



أقبل النهار ببطء، وأطفأ ناظر المحطة المصباح الذي يحمله، وأخذ يراقبنا وهو يفتل شاربه، جاء عسكري الحراسة ودار حول المقاطف وهو ينظر إليها في ارتياب، ثم دار حول النسوة، وصرخ القطار قادمًا من خلف الأفق فدبت في الجميع حركة محمومة، نهضن، اندفعن يحملن السلال، وتوقف القطار أمامنا لاهثًا، وأشار لنا ناظر المحطة إلى عربة خالية تمامًا في آخر القطار.

جلست بجوار أمي، ووضعنا القفة فوق الرف الخشبي، تكومت النسوة المتشحات بالسواد وأحمالهن في نفس العربة، لم يجرؤ أحد من بقية الركاب على الركوب معنا حتى بعد أن سار القطار وتعددت المحطات وصعد من صعد وهبط من هبط وامتلأت بقية العربات عن آخرها لم يقترب أحد من عربتنا.

بدأت الحقول تعدو ولم تكف أعمدة التلغراف عن التراجع، وعادت أمي تهمس في أذني:

ـ قل له إننا نأكل لحمًا كل يوم..

حتى الكمساري لم يدخل ليراجع التذاكر، أطل علينا من فتحة العربية الأخرى ثم تراجع وغاب وسط الزحام، كنا وحدنا، والعربة التي نركبها لا تنتمي لشيء، تسير فقط بدافع من توقنا ورغبتنا الحارقة، ولو توقفت فسوف ننفجر جميعًا بالبكاء، كم محطة مرت، لا أدري.. يبطئ القطار أحيانًا لدرجة التوقف، ويسرع أحيانًا لحد الجنون، تختفي الأرض الخضراء، وتتراجع بيوت الطين وتستدير الشمس ويتكاثف الغبار لحد الاختناق، تنظر أمي إلى «القفة»

وقد ساورها القلق من أن تتلف بسبب طول الرحلة، ومرة أخرى أمسكت يدي وهي تقول في توسل:

ـ قل له إن الجميع يسألون علينا، وإنك الأول في المدرسة، ولا تقل له أبدًا، أبدًا إنك تعاني من الخوف والوحدة وأنت تنتظرني طوال النهار..

توقف القطار، أسرعنا ونحن نلهث إلى رصيف آخر، وقطار آخر كان يقف في انتظارنا، كان خاليًا، مهدمًا، عالي الصوت، كثيف الدخان، يخصنا وحدنا، ويقودنا إلى محطة تخصنا وحدنا أيضًا، قطيع معزول، يرتدي السواد، مثقل بالسلال، يمضي إلى مكان مجهول، يتحاشاه الجميع.

توقف القطار الثاني بعد أن أنهكنا تمامًا في محطة نصف محطمة، رصيف تكسوه الرمال، عروق من الخشب المتهالك هي بقايا المبنى، ولافتة على وشك السقوط، هبطنا جميعا،وظل القطار واقفا في انتظار عودتنا، خضنا وسط الرمال والأحجار ونباتات التين الشوكي التي تحاصر طريقنا، أوشكت أمي أن تنكفئ لولا أنها تشبثت بي، بدا أمامنا العراء مثيرًا للرهبة، رمل ممتد تدور عليه دوامات من الغبار، وأحجار متكسرة، جبل عال متجهم يحتل الأفق ولا يترك إلا مساحة ضئيلة للسماء.

تنتظرنا عربات «كارو» تجرها أحصنة بالغة الهزال، يحط عليه الذباب الكثيف وهي مستسلمة له بعد أن تعبت من مقاومته، اندفعت النسوة ونحن معهن، كانت عربات الكارو غريبة تشبه أشكال العربات الحربية التي نراها في كتاب التاريخ، تحورت

وتبدلت وأصبحت تنقل زوجات المساجين وأطفالهن التعساء، كأن طقس الزيارة المرير، يتواصل بنفس هذه الصورة منذ آلاف السنين، من أيام الفراعنة الذين كانوا بالتأكيد هم أول من اخترع نظام السجون، وكنا نحن دوما المسجونين.

ساعدن بعضهن البعض على الصعود دون أن يتحرك «العربجي» كأن ما يحدث على عربته لا يخصه، لم يقدم لهن يد المساعدة، تأملهن بنظرة متراخية دون اي تعاطف حتى تأكد من امتلاء العربة، جلسن دون راحة فوق سطح العربة المنكسرة المليئة بقطع الحديد البارز، ثم صاح في صوت أجش:

ـ الدفع أولًا...

أخرجن القطع الفضية المرسوم عليها وجه «أبو الهول» فتذكرت القطعة الفضية التي أعطاها لي أبي وتلك اللحظة النادرة من الحياة السعيدة، قبل أن ينهار عالمي القديم، حاول الحصان أن يشد العربة فلم يستطع، حشر الرجل النقود في جيبه ثم رفع العصا وهوى على ظهر الحصان بعنف مبالغ فيه، لم يكن أمام الحصان إلا أن يستجمع كل قواه ويندفع فجأة إلى الأمام حتى أوشكنا جميعًا على السقوط لولا أن تلاصقنا معًا في خوف.

سارت العربة ونحن صامتان، نخشى أن نتحدث حتى لا نزيد من وطأة العبء على الحصان، ويبدأ الدرب الصخري الضيق يرتفع وينخفض دون أن نقترب من أي مكان، كان «العربجي» يشرع عصاه ويبدأ في ضرب الحصان بلا هوادة حتى يصعد دون توقف،



ويتركه مع كل منحدر فيجري سريعًا متوهمًا أنه قد تحرر، ظلت أحراش التين الشوكي تلاحقنا، والشمس الحارة تكوي أجسادنا وتغمرها بالعرق ثم يندفع التراب الناعم ليلتصق بجلودنا ويتسلل داخل المسام فيملأ عروقنا بالرمال ويحيط بنا الجبل من كل جانب فلا نرى أي أفق مفتوح.

توقف الحصان فجأة، وعندما هوى عليه الرجل بالعصا صهل بصوت خافت، ثم سقط فجأة على الأرض، صاح الرجل في فزع حقيقي:

ـ انهض يا حمار يابن الكلب..

لم تجد معه الضربات ولا كلمات السباب، نظر إلينا في حنق فتكومنا في ذعر، صاح فينا:

ـ انزلوا، انزلوا سريعًا، وشّكم فقر..

قفزنا في رعب، نظرت للحصان، ركبتاه مسلوختان، داميتان والذباب يلغ فيها دون رحمة، بدا واضحا أنه عاجز عن السير لخطوة أخرى، توقف الرجل عن ضربه يائسًا، ذابت ملامح الشراسة والجهامة التي كانت مرسومة على وجهه طوال الرحلة، اقترب من الحصان ومد أصابعه المترددة يتلمس الجرح، ثم صاح فينا بصوت مختنق:

ـ اتركونا وحدنا، السجن قريب من هنا، اذهبوا..

أمسكت بيد أمي وبدأنا نتعثر فوق أحجار الطريق الناتئة، أي مكان مؤلم هذا الذي قادوك إليه يا أبي؟ يظهر سور السجن، يبدأ



من الجبل، ويمتد بلا نهاية، كلما اقتربنا ظهرت تضاريسه، الأحجار المتراصة، لفات الأسلاك الشائكة الممتدة فوق حافته، أبراج الحراسة كل عدة أمتار، وكثير من الجنود، ونحن نواصل الاقتراب، كتلة خائفة ومرتعدة وكل ما يحيط بها يهددها، كانت هناك نسوة أخريات قدسبقننا وجلسن مكومات أمام الباب الكبير، انضممنا إليهن، وبدأنا جميعًا نتشارك في لعبة الانتظار، تحت الشمس الحارقة وسط التراب الخانق.

إلى متى ظللنا جالسين؟ كم مرة فتح الباب الخشبي المرصع بقطع الحديد الغليظة، وأطل منه أحد الجنود وألقى علينا نظرة عابرة ثم اختفى؟ كم من النسوة والعجائز والأطفال انضموا إلينا؟ كم ساعة انقضت علينا ونحن متناثران على الرمل الأصفر بحثًا عن بقعة من الظل، ومكان نستند إليه بظهورنا، كم قطيع من السحب مر من فوق رءوسنا، كم من غربان حامت فوقنا، كم من ذرات الملح والرمل تسللت إلى أفواهنا وسارت في عروقنا؟ كم من الكلمات والأمنيات والذكريات استهلكت وأعيدت؟ وأخيرًا قالت أمي وهي تكافح كي تكبت إحساسها بالقهر:

- لا تقل له كيف تعبنا حتى وصلنا إلى هنا، ولا كيف انتظرنا طويلًا، ولا كيف ذقنا المرار حتى سمحوا لنا بزيارته.

وأخيرًا فتح الباب الكبير قليلا، خرجت منه مجموعة من الجنود في سرعة، ووقفوا في صف واحد، ظهورهم إلى السور وعيونهم مسلطة علينا، ثم خرج ضابط كبير يمتطي جوادًا رائعًا، النجوم التي



على سترته تخطف البصر، وقطع النحاس والزرد التي تزين الجواد تتألق متوهجة من الشمس، كان قد برز فجأة يحمل لنا جميعًا الخلاص، نظر إلينا من خلف نظارته السوداء، سار متمهلًا بجواده أمام صفنا الطويل المرتعد كأنه يحصي عددنا، أو يحاول أن يسبر غور قوتنا وضعفنا، كان الجنود الآخرون يحركون العصي والبنادق في تحفز، كأن مجرد رؤيتهم لنا تثير غضبهم، ذهب الضابط وجاء بالحصان أكثر من مرة ثم رفع غطاء رأسه، ومسح عرقه وقال في صوت هادئ ولكنه واضح تمامًا:

ـ تم إلغاء الزيارة اليوم، سلوك المساجين هذا الشهر كان سيئا، مجرد حثالة يجب أن تأخذ على رأسها حتى تصبح نظيفة..

في البداية لم نفهم ما يقول، ولا ماذا يعني، لم نتصور أن ينتهي هذا المشوار من العذاب هكذا، تعالت صرخات الجميع، أخذت امرأة تعدو فجأة، ارتمت أمام الجواد، زمجر الجنود، وغضب الجواد، حركوا العصي وبدءوا يقتربون، ظلت المرأة ملقاة على الأرض، وبدأت بقية النسوة يلطمن خدودهن، والبعض الآخر يهيل التراب على رأسه، وقال الضابط بهدوء:

ـ بدلًا من هذا الصياح علموهم كيف يكونون مؤدبين..

وأدار عنان الجواد وعاد إلى داخل السور قبل أن أفهم ماذا يعني كل هذا بالضبط؟ وكيف يمكن أن ينتهي الأمر بهذه البساطة الباترة، دخل الجنود خلفهُ، وانغلق الباب وتواصل بكاء النسوة، اقترين وأخذن يضربن الأبواب والأسوار بقبضات أيديهن، دون جدوى.



اختفت الشمس خلف الجبل، واختلطت الصفرة بلون الرماد وظل وجه أمي جامدًا تمامًا، تحدق في السور والباب وهي غير مصدقة، وربتت عليها امرأة سمينة كانت تقف بجانبها:

ـ لا تحزني يا شابة، هكذا هم دائمًا، مرة تصيب ومرة تخيب..؟

وبدأن في السير، منسحبات، مهدودات، أمي مازالت تحمل السلة فوق رأسها، والهواء أصبح فجأة قارص البرودة، كنا نرتعد، ونتعثر في الأحجار، نحاول أن نبتعد عن هذا السور القاسي الذي لم تكن تلوح من فوقه أي لمحة من الضوء، لا صوت سوى لهاثنا، وأقدامنا وهي تتعثر، وفي منتصف الطريق كانت العربة مازالت موجودة والحصان مازال مكبيًّا على الأرض، والرجل جالس بجانبه واضعًا يده تحت خده وهو يبكي..

المحطة المهدمة، والقطار البطيء الخالي، والعربة التي يتحاشاها الجميع امتلأت كلها فجأة بالروائح العفنة، انبعثت من كل السلال والمقاطف واللفائف، فسدت كل الأطعمة، كل شيء قد ضاع، أمسكت أمي القفة في حنق، وأزاحت غطاء القماش حتى مزقته وغاصت بيدها في عفونة الدجاج والطبيخ، وكنت جائعا لحد قاتل ولكنها في حركة واحدة قذفت من النافذة القفة بأكملها، وظل القطار يواصل سيره في الليل.

كيف عدنا، كيف انقضت الأيام بعد هذه الرحلة المرعبة، كيف انتظمت أنا في المدرسة، وعادت أمي للخدمة في البيوت، وتواصلت حلقات الحياة، وتتابع الليل والنهار، كيف هدأنا ونسينا، وشربنا الماء غير المستساغ، وأكلنا الطعام المعجن البارد – أقسم

أن كل هذا قد حدث - عدت من المدرسة، وجلست وحيدًا في الشقة الخالية، وفقدت الرغبة في الخروج أو في اللعب في الشارع، لم أكن أتحمل أي احتكاك، كل ما يدور حولي كان مرعبا، والشقة الخالية تشبه سجن أبي، وصوت سنابك الجواد يلاحقني في أحلامي لليال طويلة.

عندما دق الباب في منتصف النهار، ولم يكن هذا موعد عودة أمي، ارتجفت في فزع، فتحت الباب مترددًا وأنا أتوقع شيئًا سيئًا كالعادة، ولكني وجدت فاطمة واقفة أمامي كأنها لم تغب للحظة واحدة، صحت عاليًا بأقصى ما أستطيع:

ـ اللعنة عليك يا فاطمة، لا أريد أن أراك أو أعرفك، تركتني فانهار كل شيء، بحثت عنك حتى اليأس، وانتظرتك لدرجة المرارة، جعلتني أفقد كل أمل، وأخاف حتى أن أحلم بك، وأتجول في الطرقات كالمجانين، في كل يوم تضيع مني روحي ونفسي، وأنت بالغة البعد قاسية كأسوار السجن.

صرخت، عويت مثل كلاب الطرق المجروحة، وهي واقفة، تتطلع إليّ هادئة،مسلطة عينيها الواسعتين عليّ، وأنا أهذي حتى توقفت، ثم بدأت أراها، لم تكن هناك «فيونكة» كان شعرها طويلا، وكانت ترتدي «بلوزة» بيضاء وجيب زرقاء وكانت عيونها واسعة كعهدي بها دائمًا..

وعندما توقفت عن الكلام أخيرًا تقدمت خطوة، ودخلت الشقة ثم أغلقت الباب، وتمنيت فقط آلا يأتي المساء، وألا يحين موعد عودة أمي، جلسنا متقابلين وأنا أهتف في مرارة:





ـ أين كنت يا فاطمة؟

قالت في هدوء، وكانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها صوتها:

ـ ليس هذا مهما، المهم أنني عدت إليك..

هل عادت إليّ حقًّا؟ وهل يعود أي شيء يذهب؟

جلسنا نحدق في بعضنا ثم نهضنا وسرنا ببطء شديد، متجاورين، أريتها السرير الذي أنام عليه، والكتب التي أذاكر فيها، والصور التي أحتفظ بها، وعبوة القنبلة المسيلة للدموع، فمدت أصابعها الرقيقة وأخذت ورقة ملونة، ثنتها في يدها ثم صنعت منها شيئًا يشبه الوردة، وضعتها في فوهة العبوة الفارغة فغيرت من جو حجرتي المقبضة، مدت يدها ولمست خدي مرة أخرى ووهبتني نفحة من معجزاتها الصغيرة، كنا جائعين، وكنت أملك الكثير من الأشياء بيضتين، رغيفين من الخبز، قطعة من الجبن، برتقالتين، وجبة استثنائية، سلقنا البيض وأخذنا نقشره في بطء، أكلنا البياض أولًا، ثم أكلنا الصفار والتهمنا الجبن ثم تذكرنا أن هناك خبزا فأكلناه بنفس المتعة، واصلنا الحديث كأنها لم تغب لحظة واحدة، قلنا كلمات صغيرة، حولت كل ما مر بي من مآسٍ إلى أحزان صغيرة، شجن خافت، ما أن قلتها لفاطمة حتى تخفف قلبي منها وحلت فيه السكينة، كانت نبضاتها تملأ البيت، تبعث فيه بهجة غامضة، حتى صورة أبي على الجدار كانت تبتسم في انكسار، ولو أن أمي عادت في هذه اللحظة لغسل وجود فاطمة من على وجهها كل علامات الإجهاد، وأزال من على ثوبها كل آثار روائح الخدمة في البيوت، سألتها:



ـ ما أخبار القطة؟

ضحكت في انشراح حقيقي وهي تقول:

ـ لقد كبرت، وحملت، وولدت، مثل كل خلق الله..

قلت في أسف حقيقي:

ـ أنا قد كبرت مائة عام على الأقل في تلك الأيام السابقة، أما أنت، فمازلت أنت، لم تكبري يا فاطمة.

ضحكت في نعومة وقالت في صوت خافت:

ـ حقًا، ألم تلاحظ أنني كبرت حقًا، الأولاد دائمًا لا يلاحظون جيدًا.

ومدت يدها وفتحت أزرار البلوزة البيضاء، هل كانت تخبئ بعضا من وهج النجوم في صدرها؟ يا الله يا فاطمة، ماذا تفعلين؟ أمسكت أنفاسي مبهورًا، وتوقفت كل الصنابير التالفة عن ذرف المياه، وخفت ضجة الشارع، كان صدرها ناصع البياض، لكنه لم يعد مسطحًا، هناك بروزان، صغيران، واضحان، قمتهما حمراء كلمعة من لهب متوهج خاطف للبصر، شفتاي ترتعدان، جسدي كله يهتز وهذا البياض يدخل عيني في دفقة واحدة، قالت برقة:

ـ لا تخف، اقترب..

اقتربت يا فاطمة حتى شممت رائحة الدفء المنبعث من بشرتك، أخذت رأسي ووضعتها بين البروزين تمامًا فوق الصدر

الناصع أبدا، أحسست بالنار تنبعث من قفص صدرك الطري، أي وسادة تلك، ناعمة وعذبة، بعدها لن يهنأ لي نوم ولا راحة على أي وسادة أخرى، سيبقى طعم هذا اللحم المشدود العذب بين شفتي مادمت حيا، لا أدري من منا قاد الآخر، ولا كيف وصلنا إلى سرّ هذه المتعة؟ سمعت ضحكاتك الخافتة والنشوة تغمر عروقي، كنت أتعلم على جسدك أول تجاربي وأصل إلى ذروة متعتي، والنور يتسلل إلينا من أخصاص النافذة شاحبًا، بالغ الوداعة، كأن فجرا يبزغ بعد أن تبددت كل ظلمات الجوع، كان صدري أنا أيضًا ناعمًا، ولكن دون بروزات، دون شعر أيضًا، أضحكك هذا كثيرًا وأنت تتحسسينه بأصابعك الرفيعة، تحصين عدد أضلاعي واحدًا بعد الآخر، فقلت لك شاكيًا:

ـ لماذا تغيبين دائما يا فاطمة؟

تقولين وعيناك تلمعان من دمع محبوس بداخلهما:

ـ أنا لا أغيب، أنت الذي يخيل إليك ذلك، أنا معك دائمًا..

أكشف عن الجزء الغائر في بطنها الضامرة، أتأمل الدوائر التي تحيط به، رفيعة ومرسومة بزغب خفيف أشهب، أقول:

ـ هل أقبلها؟

تقولين: كل مكان في جسدي صالح للقبل..

كنا عاريين حتى المنتصف وخلايا جسدي تنفض ما فيها من رمل وملح وحزن، ولمساتها هي دوائي وبلسمي ومعجزاتها

الصغيرة التي رأيتها عندما جعلت القطط تأكل الفتات، تمارس الآن لعبتها في جسدي، تمسه فتجعله متوهجًا تواقا للحياة، أي سحر في هذه الأصابع الرفيعة الشاحبة؟ أقول لها:

ـ يا فاطمة، أنت من الإنس، أم من الجن؟

تضحك وهي تقول: تحسس جسدي وتأكد بنفسك..كيف أبدو؟

وما أدراني يا فاطمة، من أي مادة خلق هذا الجسد، ولا إلى أي عالم ينتمي ولا من أين يستمد كل هذا الفيض الهائل من البهجة والسحر، ما أدراني يا فاطمة إن كنت يقظًا أم أن هذا حلم جميل عابر؟ قالت:

ـ هل مازلت حزينا من أجل والدك؟

ـ ما يؤلمني أنني لا أعرف عنه شيئا، حتى ونحن نقف تحت أسوار السجن، لم أكن واثقا أنه بالداخل، إنني خائف ألا يعود أبدًا..

ـ سوف يعود، أبي يعرفه، يقول إنه أجدع عامل في المصنع..

أسعدني أن أباها يعرف أبي، وأن لها أبا ووجودا حقيقيًا، وأنها تنبأت بعودة أبي، مادامت قد فعلت ذلك فسوف يعود، أخذتني مرة أخرى في صدرها وأدخلت أصابعها في شعري وغنت لي « على قد الشوق اللي في عيوني..يا جميل سلم» ولفنا ظلام رقيق، فقالت:

ـ مازال لديّ الكثير من الألعاب التي سأعلمك إيّاها..

علمتني حتى غمر العرق جسدي، من أصابعي حتى جذور شعري، أغرقتني في نزوات جسدها الصغير الذي اتسع فأخذني



فيه وملأ العالم كله من حولي، توهج الظلام الذي يحيط بنا بالشرر المنبعث من حركة جسدينا معا، ولكن النور يضيء فجأة، يصبح كل شيء واضحا وعاريًا، ويبدو وجه أمي شاحبا ومجهدًا وحزينا وغاضبا وهي تصيح في حدة:

ـ من هذه البنت؟

ألقت لفة الطعام التي كانت تحملها ومدت يدها وجذبت فاطمة من شعرها، صرخت فاطمة في ألم، وصرخت أنا في غضب، ضربت على يدها بعنف فأفلتت شعر فاطمة ونظرت إليّ في ذهول وهي تهتف:

ـ أتضربني من أجلها يا علي؟

وانتهزت فاطمة فترة ذهولها المؤقت، تراجعت وتناولت «بلوزتها» وحاولت أن ترتديها ولكن أمي قفزت نحوها مثل قطة شرسة، أنشبت أظافرها في لحمها العاري، أمسكت أمي من وسطها لأبعدها، صرخت وهي تضربني:

ـ اتركني أؤدب هذه الفاجرة، أليس لها أهل؟

حاولت فاطمة أن تستر عريها، أصبح كل شيء مخجلا ومثيرا للأسى، وقفت بينهما بينما حاولت أمي أن تهوي علينا باللطمات، تلقيتها بدلا منها، صاحت:

ـ لن أتركك هذه الفاجرة التي تتلف أولاد الناس، سأسلمها للبوليس..



صرخت وجسدي كله ينتفض:

ـ اتركيها، لا شأن لك بها، إنها حياتي.. عمري الذي أبحث عنه..

أدهشت الكلمة أمي فتوقفت عن ضربي وحدقت فيّ، رأت جسدي المتنفض، ووجهي الدامي المليء بالكدمات، وتراجعت فاطمة وهي تتعثر وتحاول عبثا الوصول إلى الباب، وظللت واقفا في مواجهة أمي وأنا أحس بالدم يسيل مالحا من جانب فمي وأنفي، صورة غريبة لابن غريب تراه للمرة الأولي، لم أكف عن الارتجاف إلا بعد أن وجدت فاطمة طريقها إلى الخارج، انهارت أمي جالسة على المقعد وانسحبت أنا سريعا، تكومت في سريري، كان ما يزال دافئا يحمل رائحة جسد فاطمة العذب، إلى متى سوف يظل الحظ السيئ يلازمني معها، لقد ذهبت هذه المرة أيضا، ولكن هل تعود؟ تحول الحلم الدافئ إلى كابوس لم أكن قادرا على البكاء، لوث الدم وسادتي ولكنني غرقت في النوم، تحولت قطرات الدم إلى طيور حمراء طارت إلى زنزانة أبي كي تشكو له فقدانها مرة أخرى، أحسست بيدها توضع فوق جبهتي، تغير الحلم، هتفت: هل عدت يا فاطمة؟ ولكن حين فتحت عيني وجدت أمي بجانبي تبتسم في حزن وهي تقول:

ـ والله كبرت يا على.

أخذتني في حضنها وهي لاتزال غير مصدقة، أحضرت قطعة من القماش المبلل وبدأت تمسح بقايا الدم المجمد على وجهي وظلت بجانبي طوال الليل.



كنت أحمل لفاطمة اعتذارات مخجلة، ولكن أين فاطمة؟

بدأت التطواف المجنون في كل أرجاء المدينة، تداخلت الشوارع والأزقة الموحلة، مدينة واسعة، مزدحمة بخلق الله المتشابهي الوجوه، ولكنها قاحلة، خالية منها، هل التأمت الخدوش التي في جسدها، هل انطفأ الوهج الذي يشع منها؟ اتسع الثقب في حذائي وتوقفت مرغما عن البحث، وعجزت عن دفع مصاريف المدرسة، ورفع الناظر العصا وهو يصيح بي:

ـ لن تدخل الامتحان النهائي قبل دفع المصاريف.

سرت مختنقًا بالبكاء، وأخذني مدرس التاريخ بعيدًا، كان الناظر غاضبًا لأسباب لا علاقة لها بي، قال لي هذا مدرس التاريخ ثم هتف بي في ود:

ـ سندفع لك المصاريف، أنا وبعض المدرسين..

قلت وأنا لا أزال أعاني من الاختناق: كلا..

جذبني من يدي وهو يمضي بي عبر حوش المدرسة قائلًا:

ـ نحن نعرف أن أباك لم يفعل إلا مايراه صوابا، وقد طالت مدة سجنه دون داع، هذا النوع من الأخطاء يحدث أحيانًا، اسمع، سيأتي الرئيس عبدالناصر إلى مدينتنا بمناسبة عيد العمال، لماذا لا تذهب أنت وأمك وتقدما شكوى إليه..

قلت مستغربا: هل عبد الناصر هو الذي قام بسجنه؟



قال في سرعة وقد بدا غاضبًا:

ـ كلا، أباك لم يفهم بالضبط أن عبد الناصر كان معه، الكثيرون لم يفهموه، إنه ليس مؤذيًا إلى هذا الحد، في مصر.. يحدث هذا دائما، الفراعنة لا يعرفون أخطاء الذين يحيطون بهم، ويتصورون أن الأمور على مايرام، هكذا الحال مع عبد الناصر

لم أفهم ماذا يقول، ولا ماذا يقصد؟ عندما تساءلت إن كان عبد الناصر هو الذي سجن أبي لم أكن أعني ذلك، بشكل أو بآخر كان يبدو بعيدًا عن أبي، ولم أتصور أن كل هؤلاء الجنود وسياراتهم المصفحة جاءوا بأمر منه، هناك آخرون أكثر شرا هم الذين أمروا بذلك.. ولكن من هم؟ ولماذا رأى أن أبي كان مخطئا لهذه الدرجة؟

ولكن المدينة كانت تغير هيئتها وتستعد لزيارته، تدب فيها حياة جديدة، الشوارع التي ولدنا وعشنا فيها وهي منكسرة مليئة بالحفر يتم رصفها بسرعة شديدة، والبيوت القديمة المتداعية تطلى بلون أصفر فاقع يخفي ما في داخلها من عطن وما في شقوقها من حشرات، أزيحت أكوام الزبالة، وكشطت الوحول الجافة، وجففت مياه البرك الآسنة، وبدأت سلسلة من البوابات الخشبية الملونة في الارتفاع، امتدت من مدخل المدينة حتى بوابات المصنع، علقت عليها نماذج خشبية من أشكال التروس والمناجل والماكينات والسنابل، كبيرة ملونة، وعند باب المدينة تم رسم عامل مفتول الذراعين، يمسك في أحدهما مفتاحًا حديديًّا كالذي كان يمسكه أبي ويمد اليد الأخرى مرحبا في حرارة، كان العامل المرسوم يشبه



أبي، أيام كان أبي حرا يتنفس هواء الله، وفي المدرسة رغم أنني لم أدفع المصاريف، أحضروا لنا ملابس حريرية جديدة: بنطلونا أبيض قصيرا وقميصا بلون السماء، أحضروا لنا عقودا من الزهور مصنوعة من الورق الملون، وبدأنا نحفظ الأناشيد والهتافات، اصطحبونا إلى الشارع الرئيسي وأوقفونا في المكان الذي سنكون فيه عندما يمر الموكب، ووقف الناظر في مكان بعيد وطلب منا أن نصرخ بأعلى ما يمكن حتى يصل صوتنا إليه واضحا..

ظل يصرخ، ويطلب منا الإعادة ويتظاهر بعدم السمع حتى بحت أصواتنا، سرت كالتائه وسط كل هذه الأشياء، راقبت وجوه كل البنات لعلي أعثر على فاطمة، ثم فكرت في عبد الناصر عندما يجيء، هل أستطيع فعلا أن أشكو إليه، كنت متأكدًا من أنه إذا استمع إليّ فسوف يستجيب على الفور، ولكن هل تتاح لي الفرصة؟

كل يوم كانت الزينات تتراكم في الشوارع حتى أصبح من الصعب السير فيها، في كل خطوة نصطدم بنصب خشبي، أو سارية علم، أو في أحد رجال الأمن، جو من البهجة والخوف والتوتر الشديد يغمر المدينة التي لم تذق طعم الفرح إلا قليلا، جلست في ساعات الليل الطويلة أفكر في رسالة أكتبها إلى عبدالناصر من أجل أبي، وفي صباح اليوم التالي، قبل أن تشرق الشمس، أوقفونا في صفوف بطول الشوارع المؤدية للمدينة، تلاميذ المدارسْ على جانب من الطريق، وتجمع العمال في الجانب الآخر، وانتشر الفلاحون في كل مكان، توافدت علينا أعداد ضخمة من المدن المجاورة، كأن

العالم كله قد حشر نفسه عندنا، ونحن نهتف، وحضرة الناظر لا يكف عن تهديدنا.

ثم حدث الطوفان عندما أقبلت سيارته السوداء وظهر هو في حلته الزرقاء الداكنة، كان شكله غريبا، رغم كل الذين يحيطون به فلم يستطع أحد أن يحجب منه شيئًا، بدا واضحا وجليا أمامي بكتفيه المرتفعتين وصدره العالي قليلا ورقبته ثم رأسه وأنفه البارز، كل شيء فيه يشع بنوع غريب من المهابة، حين كان يرفع يديه ويبتسم، كان ذلك يدفعنا جميعا للجنون، هذا هو منقذي، لم أتذكر شيئا من الأناشيد، نسيت كل الشعارات، صرخت فيه فقط :

ـ أعد لي أبي يا عبد الناصر..

خيل إليّ أن ابتسامته قد اتسعت وأنه قد أومأ لي موافقًا برأسه، أخذت أجري خلف سيارته، كان الجميع يجرون، الكبار والصغار، مسنا شيء من سحره فنسينا كل قواعد التنظيم، مزقنا الورود ونثرناها عليه، أعدنا ترديد اسمه عشرات المرات دون كلل، دفعنا العساكر بعيدا عن موكبه، هووا علينا بالأحزمة فلم نشعر بألم، كل ما كنت أريده ألا يغيب وجهه الأسمر عني أبدًا، صعدت أنا وزميلي بالفصل فوق قاعدة إحدى البوابات الخشبية وصرخنا في صوت واحد نهتف باسمه العذب، ولابد أن صراخنا كان من القوة بحيث وصل وحده إلى أذنيه فالتفت إلينا وحدنا، ومرة أخرى خصني بابتسامة كأنه يؤكد الوعد، رفع يده محييا وقد رآنا فعلًا، أنا الذي حسبت أنه لا يرى أحدًا، وما إن مرقت السيارة حتى انهال علينا



رجال الأمن بالضرب فجرينا في فرح غامر، سوف يحقق أمنيتي ولن تصدق فاطمة أن عبد الناصر قد ابتسم لي بشكل خاص، كانت الشمس ساطعة فوق العادة، والمدينة توسع من شوارعها وحواريها كي تسمح لموكبه بالنفاذ.

عدت إلى البيت في حالة من النشوة، كان رجال الأمن قد سدوا الطرق المؤدية إلى بوابات ملعب الكرة، حيث كان من المقرر أن يلقي عبد الناصر خطابه، لم يسمحوا بالدخول إلا للكبار فقط كي يستمعوا للخطاب، كنت واثقا من أنه سيتحدث عن أبي وكان يجب أن أسرع إلى المنزل حتى أستمع إلى ما يقوله من خلال الراديو، وعندما كنت أصعد السلم رأيت شبحا جالسا مستندًا إلى حاجز الدرج، متكومًا كأنه يريد الاختفاء عن الأنظار، أمسكت أنفاسي مبهورًا، واصلت الصعود ببطء، كان هو، بنفس الملابس التي غادرنا بها أول مرة ولكنها حائلة الألوان وممزقة عند المرفقين والركبتين، لحيته طويلة، ووجهه أصابه هرم مفاجئ وامتلأ شعره بالبياض، هل يمكن أن يتحقق الوعد بهذه السرعة؟ هل يمكن أن ألمسه، رفع عينيه فرأيتهما تبرقان ببريق حي أخاذ فارتميت في أحضانه رددت في حرقة:

ـ يا أبي.. لقد انتظرتك طويلًا..

وسمعته يردد اسمي في خفوت ويتحسس شعري، ويبعدني كل لحظة ليتأمل وجهي ويهتف:

ـ ياربي.. يا علي.. لقد كبرت يا ولدي.



نهضنا معًا، اكتشفت أنه لا يستطيع الانتصاب واقفا إلا مستندًا على حاجز السلم، ومتكئا على كتفي، كان جسده منهكًا تمامًا، يدير وجهه حوله وهو غير مصدق أنه يعود لعالمه القديم، وقفنا أمام باب شقتنا وأخرجت المفتاح المربوط حول عنقي وفتحت الباب لم تكن أمي موجودة، ولم يسأل هو، فهم كل شيء دون سؤال، ألقى نظرة سريعة واكتشف أن ثلاثة أرباع الأثاث غير موجود، أحنى رأسه وسار إلى أحد الأركان وانزوى جالسًا على الأرض، مستندًا إلى الجدار وقد ثنى ركبتيه ووضع حولها ذراعيه وأمال رأسه إلى الخلف وبدأ ينتظر، كما تعود خلال الأيام الماضية، جلست أمامه فظل صامتًا، أيقنت أنه لا يراني بوضوح، لقد عاد هادئًا مستسلمًا إلى عالمه الآخر، لم يكن يبدو سعيدا بالدرجة الكافية لأنه عاد إلينا قلت في قلق:

ـ هل أنت بخير يا أبي؟

حدق فيّ كأنه اكتشف وجودي، بحث بشفتيه عن ابتسامة طبيعية وقال:

ـ طبعًا أنا بخير، جسدي سليم تمامًا..

ـ هل آذوك..؟

ـ بالعكس، عاملونا أحسن معاملة، وقدموا لنا أفضل طعام..

وهز رأسه كأنما يؤكد لنفسه ما يقوله قبل أن يضيف:

ـ لم يكن من الممكن أفضل من ذلك.



ثم أرجع رأسه للخلف مرة أخرى وعاد للصمت، جلست فظللت أمامه صامتًا دون أن أجرؤ على أي سؤال، كان مختلفًا، تبدد منه شيء ما، أحسست أن الذي أمامي هو جسد أبي فقط، جسد عجوز يشبهه تمام الشبه ولكنه ليس هو، أحيانًا يراني وتتوهج عيناه، ولكن فجأة يخبو كل شيء ويتواصل الصمت أثقل من ذي قبل.

رفض أن أضيء النور، أو أن أفتح الراديو، كان قاسيًا عليّ فأبقاني أمامه في هذا الظلام أسمع صوت أنفاسه وهي تزداد تثاقلًا، كأنه ينتزعها من أغوار روحه، تختلط بتأوهات خافتة يحاول عبثًا أن يكتمها، مازال يعاني من عذابات الحبس الانفرادي، جسده محبوس مقعي في الركن لا يكف عن التوفز، كل عضو من أعضائه يمارس حركته الذاتية وهو عاجز عن السيطرة عليه صمت:

ـ ماذا بك يا أبي.. هل أنت مريض؟

حاولت أن أمد يدي وألمس جبهته، ولكنه أبعدها وهو يردد في سرعة وصوت لاهث:

ـ أنا طبعًا بخير، كانوا يقدمون لنا أفضل رعاية صحية.. أحسن الأطباء

سمعت صوت المفتاح وصوت خطوات أمي، اشتعل الضوء وكشف الغرفة من حولنا أخيرًا، أدرت رأسي فوجدتها واقفة مذهولة وهي تحدق فينا، كانت تمسك لفافة الطعام وقد وضعت عليها طرف طرحتها، اقتربت ببطء شديد وهي عاجزة عن التنفس،

جثت بجانبه على الأرض ووضعت يدها على ركبته ثم قالت في همس خافت:

ـ أنت رجعت يا أسطى نجيب..

نفس الجملة التي كانت تقولها له كلما عاد من «وردية» العمل، كف جسد أبي عن الاهتزاز كأنما أعادت لمستها سكينته المفقودة إليه، لم يتحرك ظل يحدق فيها وهو يحرك شفتيه كمن يبثها حديثا طويلا صامتا أشارت له بالصمت، وأخذت تتحسس وجهه وملامحه وصدره وذراعيه حتى تتأكد أنه نفس الشخص الذي أخذوه منها ذات يوم.

رفض أبي أن ينام على السرير، قال إن المرتبة طرية لدرجة تؤلم جسده، طلب منا أن نحضر له بطانية ونفردها على الأرض حتى ينام عليها وسط الصالة الخالية، بكت أمي وهي تحاول أن تجذبه إلى غرفتها، لان أمام بكائها أخيرًا وقبل دخول الغرفة ولكنه ظل مصرًّا على أن ينام على الأرض بجوار السرير، انتهت أيام الانتظار وبدأت أيام الألم، طوال الليل وهو ينتفض فوق الأرض غير قادر على الراحة أو السكون، تتدافع خلال مسام بدنه نوبات متتابعة من الألم الممض، كنا أنا وأمي معه في نفس الغرفة، جالسين على السرير نراقبه، نرى الكوابيس وهي تتصاعد من رأسه وتتكاثف وتربض فوقنا في سماء الغرفة، أحيانًا لم نكن نحتمل كل هذه الموجات المؤلمة، كنا نتدخل لنوقظه، نمنع استمرار وطأة الكابوس، كان يستيقظ أشد فزعا، يحدق فينا ويمسح العرق من على جبينه ويهتف بصوت جاف:



ـ أنا بخير، طبعا بخير، لم أكن أفضل حالا

كل شيء كان بخير إلا هو، صفارة المصنع تنطلق بانتظام، العمال يواصلون السير منكسي الرءوس في كل وردية، وعبد الناصر يظهر باسما وواثقا ليخطب في المناسبات المهمة فتنفتح أمامنا دنيا جديدة من الأحلام، وأنا أبحث عن فاطمة، وأحيانًا أنسى وأشارك في النشاط المدرسي، يؤرقني سؤال غريب، هل يمكن أن يكون أبي وحده هو الذي فعل الصواب، وكل ما حوله خطأ، كان يرفض أن يستمع إلى أي نشرة من نشرات الأخبار، أو يتطلع للجرائد القديمة التي تأتي بها أمي مع الأكل البارد، يرفض أن يسمع كل مايقال من أن البلد تتغير إلى الأحسن، لم أستطع أبدًا أن أفهم، كيف يمكن أن يكون أبي، العامل البسيط الذي يغمر الشحم يديه طول العام، الذي لا أصدقاء له إلا فقراء العمال والصنايعية، والذي يسكن في شقة ضيقة في حارة جانبية موحلة، أن يكون هو على صواب، وأن يكون عبد الناصر كما رأيته في هذا الموكب المهيب والناس الذين يصفقون له في جنون ويهتفون من أجله في وله، على خطأ، هل يمكن أن يكون عبدالحليم وجاهين والطويل على خطأ..

ما أطول أيام الألم، وما أشد مرارة الكوابيس، كان أبي يؤكد لنا كل يوم، كل لحظة أنه بخير، ثم لا ينام ولا يصحو، وأقبلت أمي، جلست أمامه وهي تهتف:

ـ يجب أن تعود للعمل يا أسطى نجيب، مازالت أصابعك قادرة على فعل السحر..

نظر إليها متحسرًا، كان يتساءل في صمت، من الذي سي[illegible] ومن الذي سيقبله بعد كل ما حدث، قالت أمي في صراحة جارحة:

ـ أنا أخدم الآن في بيت مدير المصنع، سأتوسل إليه يا أسطى.

كان الأمر مهينًا، ولكن طعم لفافة الطعام المختلط كل ليلة كان أكثر مهانة، أحنى أبي رأسه وهاجمته الكوابيس طوال الليل بلا هوادة، ولم يستطع أن يكتم تأوهاته فاختلطت بذرات الليل ودموع أمي، ولكن الصباح يجيء دائمًا، ذهبت أمي للعمل وذهبت أنا للمدرسة، وعادت لنا في المساء مشرقة الوجه، لقد وافق المدير، لقد غيروا العنبر، وخفضوا الوظيفة، وقللوا الراتب، ولكنهم قبلوه أخيرًا على أي حال، من الآن سوف ينهض مع الصفارة، ويسير مع العمال، ويختفي مع الوردية خلف أسوار المصنع، لقد فعل أبي كل هذا بالضبط، دون أي كلمة ودون بادرة اعتراض، ودون أن يرفع رأسه، ولكننا على الأقل لم نعد نعتمد على لفات الطعام المختلط.

حلقت شاربي للمرة الأولى رغم أنه لم يكن هناك شارب، مجرد زغب أصفر فوق الشفة، والوسيلة الوحيدة لتحويلها إلى شارب هي حلاقته أكثر من مرة، بدأ صوتي أيضًا في التحشرج، قالوا لي إن هذه متاعب البلوغ، دخنت أول سيجارة في ظلام السينما، لم تكن سيجارة كاملة، كانت نفسًا من سيجارة مرت علينا نحن الخمسة، ولكني أحسست بعدها بالضيق في صدري وبإحساس عارم بالذنب فقررت ألا أعود إليها مرة أخرى، مشيت مع بعض بنات مدرسة التجارة اللاتي كن يمضغن اللبان ويضحكن بطريقة غريبة



ويستدرجنني لأماكن معتمة مثيرة للخوف، لم أرتح لهن كثيرًا، ولم أر فاطمة في أي واحدة منهن، كأنها قد تبددت في فراغ هذا الكون الواسع، كيف يمكن ألا نتقابل في هذه المدينة الضيقة التي يتقابل فيها الجميع، لقد رأيت أناسها جميعا وهم يلتقون في عشق وبغض، في فرح وآسى، حتى مدرس التاريخ، رأيته سائرًا مع مدرسة الرسم القديمة وبجوارهما طفل صغير، رأيت وجوه زملاء أبي وهي تكبر وتشيخ، يصيبها أثر من الزمان القاسي، تفقد بعضا من أحلامها، وشيئا من عزة نفسها حتى تتواصل فقط حركة الحياة، فاطمة وحدها التي غادرتني، لم تعد تتجلى لي، ضنت عليّ ولم تقبل اعتذاراتي. ارتفعت درجاتي المدرسية ولكن وطأة المرض زادت على أمي، وقالت لي وهي تلتقط أنفساها في صعوبة:

ـ أملنا هو مجموع كبير في الثانوية العامة يا على، لو ذاكرت جيدًا، أنقذتنا جميعًا..

أبي ما يزال ينام على الأرض مثقلا بالكوابيس، وأم كلثوم تغني «الأطلال» لم أكن أحبها لأنها كانت سيدة عجوزًا أكثر مما ينبغي، ولكن هذه الأغنية بالذات كان مليئة بالأسى، فيها كل شجون قصتي مع فاطمة، لو أن أبي كان هو الذي وجدها معي في المنزل، ربما كان أكثر تفهما من أمي، رغم كل هذه المدة كان إحساسي العميق بالذنب ما زال يعذبني، ظلت ذكرى ملمسها ونعومة بشرتها والمكان الذي نام عليه رأسي بين بروزي صدرها دافئًا عذبًا يبعث داخلي شوقي وجزعا وإحساسا بالمرارة الدائمة، بالله يا فاطمة،

ما كان أعذبك، وما كان أعذب هذه اللحظات، حتى أمي أحست بمدى ما أعانيه من افتقاد، ابتسمت لي في وهن وهي تقول:

ـ أين صاحبتك؟

قلت: لم أعد أراها، انتهى كل شيء..

قلت هذا بصوت باتر وأنا أحاول أن أخفي كل اضطرابي في حل مسائل الهندسة الفراغية، كانت واقفة على باب غرفتي تحمل لي كوبًا من الشاي، قالت في نبرة اعتذار:

ـ كنت خائفة عليك يا علي، كنت لا تزال صغيرًا..

قلت متبرمًا: لم أعد صغيرًا الآن، ولكنها ضاعت مني على أي حال..

وضعت الكوب واستدارت خارجة، وشعرت بالغضب من نفسي لأنني حملتها ذنب غياب فاطمة دون أن يكون لها ذنب، كانت هذه هي عادة فاطمة، وكان هذا هو دأب أيامنا معا، واصلت المذاكرة طوال الليل والنهار، اختلطت ساعات اليقظة والنوم، أحسست أن خلاصي الحقيقي يكمن وسط نصوص الشعر الجاهلي، ومسائل الفيزياء، ومعادلات الكيمياء وتلافيف الجبر والهندسة، كنت أراقب نافذة بعيدة، مضيئة دائمًا، تخيلت أنها ربما كانت نافذة فاطمة وأنها ساهرة أيضًا تذاكر، لذلك لم أكن أطفيء نوري إلا بعد أن تطفيء هذه النافذة نورها، ربما لم تكن تراني، ولكني ربطت نفسي بها رباطًا قدريًا، وأخذت في كل ليلة أعيد



تقليب الكتب، وحفظ الصفحات بالكلمات والأرقام والرسوم، وكان أبي صامتًا، يدخل البيت خافض الرأس، ويخرج خافض الرأس، ويلقي ما يكسبه في حجر أمي دون كلمة.

وعندما حانت لحظة الامتحان كنت أرتعد، ذاكرت كل الكتب أكثر من عشرين مرة، ثم اكتشفت أني نسيت كل شيء، في صباح يوم الامتحان استيقظت أمي مبكرة وأخذت تدعو لي مع تباشير أضواء الفجر، واشترت لبنا وأصرت على أن أشرب الكمية كلها، وغادرت الباب ومعدتي قد بدأت التقلص، فوق السلم كانت هناك قطط صغيرة لا أدري من أين جاءت، فوجئت بنفسي وأنا أتقيأ كل شيء في بئر السلم، انسابت خيوط اللبن البيضاء المتجبنة مختلطة بعصارات معدتي الصفراء، كنت شاحبًا وخائفًا وبدت لي نتيجة الامتحان قاتمة قبل أن أضع خطًا في كراسة الإجابة، لم أستطع المحافظة على أحلام أمي ورغبتها في الخلاص، ظللت واقفًا في بئر السلم، أحدق في القطط الصغيرة، كانت عاجزة مثلي تمامًا، كنت أفكر كيف يمكن أن أعاود الصعود من جديد كي أواجه أمي وأبي وأن أحكي لهما ما أنا فيه من خور وجزع وخوف، كان هذا مستحيلًا، لم يكن أمامي إلا أن أتقدم خارجًا من باب البيت لأواجه الشارع وضوء المصباح وأخفي رعدتي القاتلة.

كانت فاطمة في انتظاري، قالت:

ـ أين كنت؟ لقد تأخرت، أنا في انتظارك من بدري..

كان يجب أن تتجلي في هذه اللحظة يافاطمة، أمسكت بيدي، أدخلت أصابعها الرفيعة بين أصابعي، وجذبتني حتى نسير مبتعدين وأزاحت خصلة شعرها الذي كان قصيرًا ومتناثرًا على جبينها مثل شعر صبي وواصلت القول:

ـ لولا خوفي من أمك لصعدت وطرقت بابكم..

كيف تخيلت للحظة أنك سوف تغيبين من حياتي إلى الأبد، كيف تخيلت أن الحياة يمكن أن تمضي بإيقاعها العادي الخالي من مفاجآت الميلاد والبعث دون أن أراك، أن تعود كل هذه الصباحات الندية وتحلم الطيور فوق الصهريج ويصدر السحاب همسه الخفيض دون وجودك، هانحن ذا، يدك راقدة في يدي، كأن لم تغادرها أبدًا، وشعرك المقصوص قد تراجع عن وجهك الجميل الآسر، لتبرز ملامحك التي ازدادت قوة وجمالًا، رقبتك أصبحت أطول، وأنفك أعلى، وشفتاك الممتلئتان منفرجتان تكشفان عن أسنان بيضاء بارزة قليلًا، أما البروزان الصغيران في صدرك فقد تكورا وكبرا، أصبحا يرفعان «البلوزة» الرمادية الباهتة إلى أعلى، يهتزان كلما أهتز جسدك، بالله عليك يا فاطمة، ما دمت قد نويت أن تعودي إليّ فلماذا أضعت علينا كل هذه اللحظات؟ وبالله عليك يا فاطمة لماذا حرمتني من أن أراقبك وأنت تكبرين، ولماذا لم تدعني أحتفظ بخصلات شعرك المقصوص وسط دفاتري وكتبي حتى يبقى عطرك دومًا معي، وبالله عليك يا فاطمة، أن كل شيء من حولنا باق، البيوت والشوارع والمقاهي وصهريج المياه وعمال



المصنع، فلماذا لا تبقين أنت؟ ولماذا لا تعطيني شيئًا يبقى مثلهم مادمت أنت هكذا دائمة الغياب، في كل واحدة من غياباتك يا فاطمة تموت بعضا من خلايا قلبي ويتفتت جزء من روحي وأخشى أن أقابلك يومًا بقلب ميت وروح منكسرة، فارحميني يا فاطمة وتجلي لي كلما فاض شوقي وزاد حزني، تجلي لي قبل فوات الأوان.

قالت لي بنفس رقتها التي لم تفقدها أبدًا: هل تحب أن أراجع لك دروسك؟

قلت لها وأنا مختنق:

ـ وكيف تراجعين لي كل أيام وحدتي الماضية، عاد أبي منكسرًا من السجن كما لم يكن أبدًا، ولم تظهري، انتقلت عدوى كوابيسه إلينا، وأخذت أمي تذوي وأحسست أن العالم الذي امتلكته ذات يوم وأنت معي يتحطم، لماذا تختفين دومًا، لماذا تحولين لحظات حبي لك إلى مجرد ذكرى، وتحولين الذكرى إلى سراب مؤلم، لم أعد أؤمن بشيء، ولم أعد أثق في أي شيء.

أحسست بأصابعها وهي تتحرك بين أصابعي، تضغط عليها ثم تتركها ثم تعاود الضغط من جديد، كأنها تحاول أن تخبرني عن طريق هذه اللمسات المتتابعة بما تعجز عن قوله بالكلمات، قالت:

ـ لم تفارق قلبي لحظة يا على، ولكن لم أكن أستطيع أن أراك..

ـ بسبب أمي؟



ـ كلا، كنت غاضبة منها لبعض الوقت، وأحسست بالخجل من نفسي لبعض الوقت، ولكنها ليست السبب، يوما سأقول لك كل شيء، ولكن، ليس في طريقك وأنت ذاهب إلى الامتحان، هذه لحظة غير مناسبة للعتاب يا علي.

سرنا صامتان، أصابعنا متداخلة، وبدأ الندى يذوب قليلًا.. قليلًا، قلت:

ـ إنني خائف..

ـ من الامتحان..؟

ـ قبل أن أراك كنت أعتقد أنني خائف منه، ولكنني خائف الآن من كل شيء، أنا لا أكف عن الأحلام ولكن لا شيء يتغير، بالله عليك يا فاطمة لا تغيبي مرة أخرى، هذا أكثر ما يبعث بالخوف في قلبي..

كنت سأؤدي الامتحان في مدرسة أخرى غير مدرستي، على أطراف المدينة قريبًا من الأراضي الزراعية المترامية حتى حافة الأفق، سرنا أنا وفاطمة وقالت لي:

ـ لا وقت لدينا، لو كان لدينا وقت لأخذتك الآن بين أحضاني وسط هذا الزرع.

هدأت مخاوفي، هبطت كلماتها بكل ما فيها من عذوبة حارة على قلبي مثل ترياق، لاح أمامنا مبنى المدرسة الأبيض ونحن لا نزال متشابكي الأصابع وامتلأ الطريق حولنا، تلاميذ كانوا مثلي



في طريقهم لتأدية الامتحان، وكنا في معظمنا، نعرف بعضنا بعضا، كانوا يبتسمون لنا، فتنتهم فاطمة بمشيتها المعتدة بجانبي، ولابد أن أصابعها المتشابكة في أصابعي دون خجل قد رفعت ـ أيضًا ـ من روحهم المعنوية، وقفنا تحت ظل شجرة عتيقة أمام المدرسة، حدقت فينا العصافير بعيونها المستديرة الصغيرة، قالت فاطمة:

ـ هل تريد طعامًا؟

قلت: أريدك فقط بجانبي.

أخرجت من جيب «جونلتها» باكو من البسكويت المغلف في ورق مفضض، أحسست بجوع غامر وأنا ألتهمه، وهو يتفتت في يدي قبل أن يصل إلى أسناني، أزدرده باشتهاء، كأن هذا بعضا من جوعي إلى فاطمة، ذلك الجوع الذي لن يشبعه شيء أبدًا.

رأيتهم جميعًا حولي وهم يفتحون الكتب للمراجعة الأخيرة، يرمقونني من طرف خفي وهم يدورون في دورات متصلة يستعيدون آخر الدروس في سرعة محمومة، وهناك أمل غامض في نفس كل واحد أن تكون آخر كلمة تتم استعادتها هي أول سؤال في ورقة الامتحان، رفعت الكتاب حتى أذاكر أيضًا، ولكن فاطمة وضعت عليه يدها بنعومة وهي تقول:

ـ لم يعد هناك وقت للمذاكرة، استمتع قليلًا بهذه اللحظات.

أغلقت كتابي فأغلقوا جميعا كتبهم، كف الآباء الذين حضروا مع أبنائهم عن توجيه النصائح لهم، استندوا إلى الجدران وأخذوا يراقبوننا

وعلى وجوههم ابتسامة مستسلمة، ألتف الطلبة حولنا وهم يتحدثون في أشياء مختلفة، صنعوا دائرة حميمة كانت فاطمة مركزها، ذكر كل واحد منهم الأشياء التي يحبها، صاحوا يقاطعون بعضهم في نزق وفرح صاخب، أخذوا يتذكرون نكاتًا ضاحكة تسخر من كل شيء، من أول مقررات الدراسة حتى مقام رئيس الجمهورية، وضحكت فاطمة من نكاتهم حتى احمر وجهها، كانت تمارس هوايتها في صنع المعجزات الصغيرة، أطل المدرسون من خلف قضبان نوافذ المدرسة في قلق، بدوا كحيوانات محبوسة وهم يحاولون أن يعرفوا كيف تحول كابوس الثانوية العامة إلى هذا الطقس العذب، قال تلميذ لم أكن أعرفه، ولا أدري كيف عرف اسمها:

ـ وأنت يا فاطمة، متى ستدخلين الامتحان؟

قالت وهي تضحك:

ـ أنا أصغر عمرا منكم جميعًا، سأدخل الشهادة في العام القادم، ولكن عليكم أن تحضروا من أجلي عند باب لجنة الامتحان حتى تشجعونني

صاحوا جميعًا، أقسموا أنهم سوف يتركون كل شيء ـ حتى الامتحانات ـ من أجل هذا اليوم، ثم أخذوا يواصلون قول النكات الضاحكة عن المدرسين والأولاد والبنات، كلها جديدة وكنت أسمعها للمرة الأولى، واحمر وجه فاطمة مرة أخرى خجلًا مما فيها من تلميحات ولكنها لم تكف عن الضحك، ومرة أخرى تقدم



تلميذ لا أعرفه وهو يمسك مسمارًا من المعدن، لا أدري من أين أحضره وهتف وهو يتقدم من جذع الشجرة العتيقة:

ـ سوف نحفر أسماءنا جميعا على هذه الشجرة وسندون تاريخ اليوم حتى لا ننساه..

تدافع الجميع، غرسوا المسمار وخدشوا به لحاء الشجرة العجوز، بدا جذع الشجرة راضيا ذلك الرضاء الصامت وهو يتلقى لمسات الصبيان الحية المؤلمة، قربانًا من أجل فتاة حلوة جاءت إليهم في صباح عذب، تناثرت شذرات الخشب البنية، وتشكلت خطوط نحيلة بيضاء، محفورة ضد الزمن، وضد الغياب والاختفاء، كتبنا كلنا أسماءنا في جذل، وطارت كل العصافير دفعة وحدة ثم عادت تحوم حولنا، قلنا لفاطمة:

ـ اكتبي اسمك..

ضحكت وهي تقول: بهذا المسمار، مستحيل.

فاشتركنا جميعا في كتابة اسمها، كتبت حرف الفاء، ثم تركت لهم بهجة كتابة بقية الحروف، وفي النهاية بدا اسمها أكبر وأشد وضوحًا، وفي هذه اللحظة دق الجرس يدعونا جميعًا للدخول فتوقفنا عن الكلام والضحك وحفر الأسماء، نظرنا إلى فاطمة فنظرت إلينا، ومالت نحوي وقبلتني على خدي أمامهم جميعًا، كأنما قبلت كل التلاميذ المرتعدين الذين كانوا يستعدون معي لدخول الامتحان، هكذا أمام أولياء الأمور المندهشين، والمدرسين المحبوسين خلف النوافذ، أمام الشجرة العجوز والطيور المجنونة



والشمس التي بدأت في السطوع، قبلتني في نفس الموضع الذي لمستني فيه بأصابعها أول مرة.

تراجعنا بظهورنا، ودخلنا باب المدرسة بظهورنا، ولم نعتدل ونفترق إلا بعد أن أغلق الباب وغابت فاطمة عن عيوننا، ولكن إحساس البهجة التي أشاعتها في نفوسنا ظل يرافقنا، تقافزنا فوق السلالم، ودرنا حول المناضد، وراجعنا أرقام الجلوس أكثر من مرة، ورسمنا قلوبًا في الصفحات الأولى من كراسات الإجابة، وحاول المدرسون المتعبون، الذين جاءوا من مدن أخرى خصيصًا لمراقبتنا، أن ينهرونا أو يردعونا دون جدوى، وفي النهاية ضحكوا وضربوا كفًّا بكف، كان هناك شيء غير عادي في هذا الصباح، شأن كل الصباحات التي تصنعها فاطمة فتأتي ندية وعذبة فوق العادة وبالغة الندرة ومثيرة للشجن، كان مقعدي يطل على الفناء الخلفي للمدرسة، وعبر الفناء والسور وسط الحقول الممتدة حتى حافة المدينة وجدت فاطمة واقفة وهي تلوح لي، يا الله يا فاطمة، كيف عرفت موقعي، كيف اخترت النافذة الصحيحة من دون كل النوافذ؟ لو أنني أمتلك ولو قدرًا ضئيلًا من قدراتك فأحلق في هذا الفضاء الرحب حتى أكون بين ذراعيك، كنت تضحكين في غبطة وتتقافزين لا تلمسين الأرض إلا نادرًا، زمجر المراقب وهو يتأكد من رقم جلوسي، وزمجر أكثر وهو يسلمني ورقة الإجابة، وهدد بي ضعف بإغلاق النافذة ولكنه لم يجرؤ على ذلك، من ذا الذي يجرؤ على حجب فاطمة؟



لا أعرف كيف أجبت؟! ولا ماذا كان مستوى الأسئلة، سهلة أم بالغة الصعوبة؟ ولكن كنت أكتب ولا أكف عن الكتابة، وكلما رأيت وجهك أمامي وسط دائرة الخضرة النضرة تحت ألق الشمس انفتحت داخل عقلي كل الطاقات المخزونة فانسابت المعلومات، كان الصمت مخيمًا، لا يسمع فيه فقط إلا صرير الأقلام ولهاث الأنفاس وهي تسابق الزمن، اشتدت الشمس واستدار ظل الشجر وأصبحت السماء باهتة وامتلأت كراسة الإجابة، كان خطِّي جميلًا وحروفي واضحة، وأنت واقفة هناك يا فاطمة كزهرة عباد الشمس،تستديرين فيستدير قلبي، تتقافزين فتخفق روحي، فكيف يمكن أن أنسى، أو أتأسى، أو أصطبر، أو أتعزى؟ كيف يمكن أن تمر بي لحظات مثل هذه دون أن تجعلني أسيرًا لها، وتتوهج الحياة في داخلي كما لم تتوهج أبدًا، ويتداخل الحلم في اليقظة، والأسى في الفرح، وتتحول الأمنيات المستحيلة إلى أشياء هينة وسهلة المنال؟

يالها من عشرة أيام غريبة يا فاطمة، مرت بنا ـ نحن طلاب الثانوية العامة التعساء ـ كأننا على حافة حلم، تواصلت لحظاتك وتداخلت ملامحك في كل الحروف التي كتبتها في كراسات الإجابة، تشابكت ابتسامتك مع الجمل البلاغية في موضوعات الإنشاء، وحرك الهواء خصلات شعرك فتساقطت منه نجوم ملونة على الطاولة التي أجلس عليها، وملأت قلمي بالحبر، لقد وصفت عينيك في ثلاث ورقات كاملة، حتى أن كلمات الحبر الأسود كانت تتوهج من فرط ما بها من تألق خاص، في امتحان التاريخ ألبستك تاج الملكة كليوباترا ووهبتها أنفك المرتفع لأنه كان أشد

فتنة، وعندما حانت لحظة الموت المريرة وجاء وقت دفع ثمن الحب خبأت الثعبان في جيبي ليلدغني بدلًا منك، انفتحت أمامي كل أقواس الجبر المعقدة من تلقاء نفسها وتوازنت المعادلات الصعبة وسارت السين إلى الصاد والتقيا معًا عند علامة التساوي في نشوة غامرة، أخذت ألهث وسط خطوط الهندسة الفراغية المتداخلة وزواياها المعقدة ورأيت أصابعك وهي تمتد فتلمس رءوس المثلثات المتداخلة فتحدد زواياها المجهولة، وتمتد كخط مستقيم رفيع يصل بين نقطتين هو أقرب ما يكون بين قلبي وعينيك، لم يكن لأي شيء أن يتوازن في مسائل الديناميكا دون وجودك يا فاطمة، حتى جدول «مندليف» للفلزات، عندما رتب كل عناصر الكون وأسرار الموت والميلاد وجد أن هناك عنصرًا غائبًا فترك له مكانًا فارغًا في الجدول، وعندما وضعت اسمك يا فاطمة توازنت كل الأرقام الذرية، واكتملت العناصر واستقامت مكونات الوجود، وسرت تيارات الكهرباء الساكنة التي اكتشفها «فارادي» عبر عروق دمي عندما وضعت يدك على خدي، ومستني شفتاك في قبلة عابرة، فاشتعلت كل التفاعلات وتداخلت الأحماض في القلويات وتصاعدت منها أدخنة كثيفة الألوان، وسوائل تشبه قوس قزح وأتربة من مساحيق الأزهار الجافة، وفارت كل المركبات من فرط النشوة، ألم أقل لك يا فاطمة، كنت دائمًا الطرف الغائب في كل المعادلات والذي لابد من حضوره حتى تكتمل، لم يكن «ماركوني» ليدرك أن الصوت صوتك، ولا «نيوتن» يعرف أن الجاذبية هي بعض من سحرك، ولا «بلانك» ليتأكد من أن معدل



الخطأ العام جاء فقط لأنك ضننت عليه بلمستك الأخيرة، كان لابد من حضورك يا فاطمة، بجانب قلبي حتى يهدأ وبجانب أبي حتى يخرج من سرداب الكوابيس المظلم، وبجانب أمي حتى تبتسم في وجهك ابتسامتها العذبة وتعطيك اعتذارها فتعطيها أنت لمسة تبرئها من مرضها.

جاء آخر يوم في الامتحان فجأة، كأني كنت أعتقد أنه لن يجيء أبدًا، وأن أسير بجانبك صامتا وحزينا، قلت لي: مالك؟

لم أكن أستطيع الرد عليك، أخرجت لي من جيبك «باكو» البسكويت التقليدي فلم آخذه ولم أكن قادرا على أكله، أوقفتني، نظرت إلى عيني كأنما تقرئين ما يدور داخل رأسي، قلت:

- أنت خائف، لأن هذا هو اليوم الأخير وتخشى آلا تراني بعد ذلك.

كعادتها تعرف كل شيء، وأنا حائر لا أدري كيف أتصرف، أمسك يدي وضممتها بين يديها فتدفق جزء من حرارتها إلى جسدي المتفض، وقالت وهي تبتسم:

- لا تخف، لن أتركك هذه المرة، عندما تخرج من الامتحان ستجدني في انتظارك.

رفعت يديها وقبلت كل واحدة منها وأنا أقول في حرقة:

- بالله عليك لا تغيبي يا فاطمة لأن العالم يصبح مظلما بدونك.

همست وهي تضيء قلبي ببريق عينيها:

ـ وهل تعتقد أن هذا سهل عليّ، قلبي أيضًا يتعذب..

وتركتني أدخل من باب المدرسة وأصعد إلى لجنتي وأواصل الإجابة، كنت ألهث وأنا أكتب وأريد أن أفرغ سريعا من كل الأسئلة حتى أخرج إليها، كنت خائفا أن يحدث أي شيء ويجعلها تنصرف، قال المراقب مبتسمًا:

ـ هون عليك ياولدي، بهذه الطريقة سوف ينقصف القلم تحت أصابعك.

انقصف القلم بالفعل قبل أن أستطيع التوقف، أعطاني أحدهم قلمًا زائدًا فواصلت اللهاث حتى فرغت قبل أن يرفع الجميع رءوسهم، حدق فيّ المراقب شذرًا وهتف، راجع إجاباتك، جلست وراجعت كل شيء كانت على الوجه الأكمل، لا ينقصني إلا أن أخرج الآن حيث تقف فاطمة، قال المراقب:

ـ لا يجوز الخروج إلا بعد منتصف الوقت بخمس دقائق..

انتظرت طويلًا وأنا أسمع صرير أقلامهم، ولهاث أنفاسهم، لا أستطيع الجلوس ثابتًا فوق مقعدي، ولم أصدق عيني حين أشار إليّ المراقب فانطلقت من الباب وتعثرت على السلالم وعبرت الفناء ركضًا والجميع يتابعونني بدهشة، توسلت للفراش أن يفتح الباب سريعًا، فوجدت الشمس، ووجدت الخضرة الممتدة، ووجدت الشجرة العتيقة المحفور عليها الأسماء، وفاطمة واقفة تحتها تنتظرني، تتابع اقترابي وعلى وجهها علامات الدهشة والخوف، هتفت بي عندما جريت إليها:



ـ أيها المجنون، لماذا خرجت مبكرًا هكذا؟

أخذت أضحك وأضحك حتى عجزت عن التقاط أنفاسي، تقافزت أمامها من فرط السعادة، قبضت على يدها لأتأكد من وجودها، كنت عبيطًا إلى حد مدهش وقلت لها بصوت متقطع:

ـ لم أجب في حياتي أفضل مما أجبت اليوم، كان الأهم لي أن ألحق بك..

ـ ومن قال إنني سأرحل، كنت سأبقى في انتظارك حتى المساء..

ونظرت إليّ ثم بدأت تضحك، انتقلت عدوى سعادتي إليها، سألتني إن كنت متأكدًا من جودة إجاباتي فأقسمت بحبها، أمسكت يدي وسرنا مبتعدين، كنت واثقًا من أنهم يطلون علينا من خلف النوافذ في حسرة، وأن الأسئلة سوف تزداد صعوبة عليهم، وأن المراقبين سيصبحون أكثر عصبية، وكان طريق المزارع هادئًا، ناعم الخضرة والمدينة تبدو بعيدة تحوط بها غلالة رقيقة من دخان المصنع وتزحف السحب فوقها ببطء، قالت فاطمة:

ـ إلى أين نمضي؟

ـ إلى بيتكم..

توقفت نزعت يدها من يدي وحدقت في وجهي لترى إن كنت أتكلم جادًّا أم لا، وعندما فوجئت بالتصميم الذي يطل من عيني، قالت في همس:

ـ أنت مجنون..؟



ـ أي جنون في هذا، أريد أن أتأكد من وجودك، أنك بشر مثلنا، لك بيت وأم وأب وأخوة..

ـ وماذا سأقول لهم عنك، ماذا سأقول لأبي وأمي؟

ـ قولي أي شيء، المهم أن أذهب معك..

ضمت يدها لصدرها وبدا عليها التوتر، كانت كلماتي محددة، مصممة، ولم أكن لأترك لها أي فرصة للتراجع أو الاعتذار، أخذت تروح وتجيء أمامي وقد علا الشحوب وجهها، نظرت إليّ في توسل وهي تقول:

ـ فلنؤجل هذا الأمر..

صرخت وأنا أمسك يدها وأهزها..

ـ مستحيل، لو تركتك الآن فإن في داخلي شعورًا مخيفًا بأنني لن أراك مرة أخرى، سوف يقتلني هذا الشعور لو عدت وحيدا مرة أخرى، أريد أن أعرف مكانًا ألجأ إليه إذا غبت، أناسًا أسألهم عنك، أريد أن أعرف حياتك الغامضة المختفية، لا يمكن أن أربط كل حياتي وعمري بحلم غير مفهوم.

تهدج صوتي وأنا أصرخ فيها، كانت مخاوفي من فقدها تجعل ألمي لا يحتمل، نظرت إليّ، كانت تفهمني، وتريد أن تريحني ولكنها رغم ذلك بقيت مترددة حائرة قالت:

ـ سيغضب أبي مني، ربما تتفهم أمي الموقف، لا أدري إن كان يجب أن نذهب أم لا، هذا صعب.



صمتت قليلًا وظلت واقفة ثم تحركت حائرة، ونظرت إلى عيني وضربت فخذها بيدها في حيرة طفولية ثم قالت كأنها تفكر في صوت مرتفع:

ـ أخي مصطفى ليس في البيت، من حسن الحظ إنه في الجيش الآن، لا أدري كيف كان يمكن أن أتصرف.

ـ أخيرًا عرفت عنك بعض الأشياء، منها أن لك أخا اسمه مصطفى..

ـ إنه الأكبر، كان يعمل في إحدى ورش السيارات قبل أن يذهب للجيش، إنه يحبني ولا أدري كيف يتصرف إذا رآني معك.

نظرت إليها متوسلًا، وقلت في صوت حملته كل ما في نفسي من توق ومخاوف:

ـ فلنذهب يا فاطمة..

قالت في استسلام: فلنذهب يا علي.

وبدأنا نسير معًا وهذه المرة لم نجرؤ على أن نتشابك بأصابعنا مرة أخرى، كنا مقبلين على المدينة وقلوبنا تدق في توجس، كل شيء يبدو هادئًا، الناس يرمقوننا بنظرات عابرة، أدرنا ظهرينا لهم ولصهريج المياه وللشوارع الواسعة والحارات وبدأنا نهبط في دروب المدينة الضيقة، هبطنا فوق سلالم حجرية أولًا، عبرنا بوابات واطئة على شكل أقواس، وانحدرنا فوق طين زلق، بدأت الجدران تضيق من حولنا، جدران من الطين دمغتها الشمس وأعطتها لونًا



رماديًا كابيًا، فوقها أكوام من قش الأرز الجاف المترب يكاد يحجب السماء تمامًا، لم تكن هناك نوافذ وكانت النسوة يجلسن أمام أبواب البيوت، يزحمن بأجسادهن طريق الدرب الضيق، يغزلن الصوف ويحكن الملابس ويقطفن عيدان الملوخية ولا يكففن عن الثرثرة، طين وعطن ورائحة براز مختلط بروائح التقلية، كأنما لا حدود للفقر، كن يتطلعن إلينا ـ أنا وفاطمة ـ ونحن نسير متباعدين ولكن الدرب الضيق يرغمنا على الاقتراب، نسمع هسيس ضحكاتهن المنتشية، بدأت أشعر بالخوف ولكن فاطمة كانت تمضي كعادتها مرفوعة الأنف لا تسبقني إلا بنصف خطوة، تطلع إلينا أطفال متسخون أنصاف عراة يقف الذباب مستكينًا على وجوههم، ونسوة ضامرات وعجائز دبت فيهن الحياة حين رأونا، تطلعوا إلينا بشغف، نظل نخوض في الطين، وفوقنا سماء من قش باهت مترب، وبدأ الشحوب يغزو وجه فاطمة من جديد والارتباك يدب في خطوتها، كنت حزينًا من أجلها لأنني وضعتها في هذا الموقف، ولكن كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة كي أتأكد من أنني لا أحلم وأن فاطمة كالشمس والشجر لها وجودها الفعلي.

وأخيرًا انفرجت الدروب الضيقة قليلًا، وصلنا إلى ساحة واسعة بعض الشيء، في وسطها مبنى كبير قديم، له نوافذ عالية عليها قضبان حديدية صدئة، قالت فاطمة في صوت خافت:

ـ هذه قاعة الأنوال اليدوية حيث يعمل أبي.



من الداخل تعالت دقات الأنوال الخشبية، متتابعة ورتيبة، كأنها صوت قلب ينبض في وهن، قلبي أيضًا كان ينبض في وهن وأنا أسألها:

ـ هل سندخل؟

قالت في إنكار: كلا طبعًا، أبي يعمل مع صنايعية آخرين، سوف يغضبه هذا وربما يحس بالفضيحة، وأنا لا أحب أن أغضبه، سوف أذهب بك إلى بيتنا، إنه قريب من هنا.

قلت في عناد طفولي:أريد أن أرى أباك..

ـ لا تفسد كل شيء يكفي أنك سترى أمي هذه المرة..

ومدت يدها لتجذب يدي، وقبل أن أتحرك أحسست بيد ثقيلة تهوي على عنقي من الخلف، تمسك ياقة قميصي في قوة حتى أوشكت على الاختناق، حاولت الالتفات فلم أستطع سمعت صوت زمجرات غاضبة وفاطمة وهي تصرخ في صوت مختنق:

ـ اتركنا..

وزام صوت ضخم غاضب: ليس قبل أن يرى أبي ماذا تفعلين؟

دفعنا معًا في عنف، كان من الواضح أنه شخص ضخم، بالغ القوة، أحسست أننا قد وقعنا في فخ، دفعنا عبر باب القاعة الرطبة المظلمة المليئة برائحة عرق الرجال، وكانت الدفعة قوية فلم نتمالك أنفسنا فسقطنا سويًا على الأرض، توقفت الأنوال عن الدق، رفعت رأسي فرأيت الصنايعية جميعًا وهم خلف الأنوال

يحدقون فينا، وفي الخلف يقف الشخص الذي قبض علينا وهو يلتقط أنفاسه في غضب، فاطمة ملقاة بجانبي على الأرض وهي تبكي، والخيوط الحريرية تتألق أمامنا، ووجوه الصنايعية الذين كانوا كلهم من العجائز يحدقون فينا بتساؤل، كان الشخص الضخم يرتدي ملابس الجيش، نظراته غريبة وملامحه تتحرك بصورة غريبة أيضًا، كنت خائفًا منه وأدركت فجأة أن هذا هو أخوها الأكبر الذي كانت تخشى وجوده، أحسست بالذنب العميق من أجلها وبدأت دموعها تهز قلبي، أنا الذي ورطتها في هذا الموقف..

نهض أحد الصنايعية خرج من خلف النول ولم يكن يرتدي إلا ملابسه الداخلية وسرواله الطويل، كان عجوزا نحيفًا بالغ الطول، قطع المسافة إلينا في خطوة واحدة وقف أمامنا قال لفاطمة:

ـ انهضي يا فاطمة..

نهضت وكفت عن البكاء وأخذت تزيح التراب من على ثوبها في ضربات سريعة ثم وقفت صامتة جامدة النظرات، بدت عليها ملامح التحدي التي أعرفها، رمقني الرجل بنظرة سريعة ثم قال للأخ:

ـ ماذا حدث؟

قال وقد خفت صوته فجأة وهدأت حدته:

ـ وجدتهما معًا، سائرين في الشارع، تتبعتهما حتى هنا..

فوجئت بالأب وهو يهتف به من بين أسنانه:

ـ إياك أن تلقي بها على الأرض مرة أخرى..



استدار إليَّ، كان عملاقًا عجوزًا قويًا رغم نحافته منتصبًا أمامي مثل القضاء والقدر، قال في حدة:

ـ من أنت؟

حاولت أن أجمع نفسي، كنت ما أزال على الأرض بلا حول ولا قوة، استندت على ذراعي حتى نهضت واقفا وأنا أقول:

ـ أنا علي.

قال بلا مبالاة بالاسم: ابن من؟

قلت: ابن الأسطى نجيب زكي..

توقف قليلا كأنه يسترجع الاسم في ذاكرته ثم قال في صوت خافت وقد خفت حدته قليلًا:

ـ أسطى المصنع الذي دخل السجن.

أومأت برأسي، أحسست أن أبي البعيد، الذي يعاني من الكوابيس، قد تدخل من حيث لا يدري لإنقاذي، ضم الأب شفتيه في امتعاض ثم قال كأنه يقرر حقيقة واقعة:

ـ أبوك أجدع منك..

وهنا سمعت أصواتهم جميعًا تخلوا عن صمتهم وهمسوا في أصوات متداخلة:

ـ فعلًا والله، أبوه أجدع منه.

ثم عادوا للصمت مرة أخرى، كانوا يتيحون الفرصة للأب العجوز كي يأخذ كامل رد فعله، استدار إليهم، لمس الخيوط الحريرية بكفه كأنه يسألها المشورة، وقف أمام فاطمة، كانت قد مسحت دموعها وبدا وجهها جامدًا غير خائف، توقعت أن يرفع كفه ويهوي عليها ولكنه لم يفعل، كانت يده ضخمة وأصابعه طويلة وعندما كان يضمها كانت تحدث صوتًا، قال لها:

ـ إلى أين كنتما ذاهبين؟

قالت في خفوت: إلى البيت..كنا سنقابل أمي.

كانت متماسكة، تنهد الأب كأنه وجد الحل للخروج من المأزق نظر إلى مصطفى وهو يقول:

ـ خذهما إلى البيت، لا تحاول أن تؤذيهما أو تسبب أي مشاكل وسوف ألحق بكم..

قال مصطفى وهو ينظر نحوي في عداء واضح: وإذا حاول الهرب؟

قال الأب وقد ضاق بغبائه: لن يهرب، كان ذاهبًا وحده إلى البيت..

سرنا إلى خارج القاعة، رأيت الشمس البعيدة، لم يقترب مصطفى منا ولكنه قال في حزم مثير للضحك:

ـ لا تسيرا بجانب بعضكما..

كان هناك شيء غير طبيعي في تصرفاته وفي مخارج ألفاظه، وكنت أتمنى أن تتاح لي الفرصة كي أتأمل ملامحه دون خوف، استدارت فاطمة ووقفت أمامه وقالت في صوت باتر:



ـ مصطفى، دعه ينصرف وسوف أتفاهم مع أبي.

بدا مصطفى حائرًا فجأة مثل طفل صغير، لا أدري كيف تبددت حدته وضاعت سورة غضبه، ولكن قبل أن يجيب تقدمت أنا ووقفت بينهما وقد تخليت عن كل مخاوفي:

ـ لن أنصرف، سأذهب معكما للبيت..

نظرت فاطمة إليّ، ونظرت إليها، لم أكن لأتخلى عنها في يوم من الأيام، وكان عليها أن تدرك ذلك من الآن، أدرك مصطفى فجأة أنني لن أهرب، نظرت فاطمة إليّ كأنها تحاول أن تفهمني شيئًا بخصوصه ولم أكن في حاجة إلى ذلك، سرت أمامه وسارت فاطمة خلفه، لم تكن تريد إثارته أكثر من ذلك، كان الدرب الضيق يقربنا رغمًا عنا فنسمع صوت أنفاسنا وهي تتردد في قلق، خضنا في طين لزج لا يجف أبدًا، وأحنينا رءوسنا تحت سماوات القش المترب، استدار الدرب والبيوت فاستدرنا معها وقالت فاطمة:

ـ هذا هو بيتنا..

بيت واطئ من الطين، منخفض عن مستوى الدرب المنخفض عن مستوى المدينة، فناء ضيق، جدرانه سوداء وسقفه مغطى بالسناج، في أحد الأركان فرن صغير مصنوع أيضًا من الطين، وأمامه تقف امرأة نحيفة تشبه أمي وحولها ثلاثة أطفال صغار يمسكون بذيل فستانها ويتطلعون إلينا، حدقت الأم فينا متسائلة، لابد وأنها اعتقدت أولا أنني صديق لابنها ولكن فاطمة دعتني للجلوس فوق حصيرة فردتها بسرعة على الأرض ثم أخذت أمها وتحدثت إليها



بصوت خافت وهما يتطلعان معا نحوي، تحولت نظرات أمها من الدهشة إلى الفزع، دقت صدرها بيدها وتطلعت لمصطفى ثم إليّ، وواصلت فاطمة الحديث حتى بدأت الأم تهدأ مرة أخرى، كان مصطفى قد انشغل عنا تماما، لعله كان ينتظر فقط هذه اللحظة ليفلت من الجيش، يجلس في الفناء الطيني الملطخ بالسناج، يمد يده المفلطحة البالغة الضخامة ليلتقط الكتاكيت الصفراء الصغيرة التي هرعت إليه منذ أن دخل من باب البيت، يرفعها واحدة بعد أخرى في كفه ثم يمرر أصابع يده الأخرى ليتحسس ريشها القصير برقة بالغة، استغرق في تأملها غائبًا عن كل ما حوله، وعلى وجهه إبتسامة شديدة الوداعة، وضع كل روحه في أطراف أصابعه وهي تنساب فوق الزغب الناعم في تبتل، وبدأت الكتاكيت تصوصو له بصوت خافت، تحدثه وهو يستمع إليها بوجه ملئ باختلاجات التفهم، يوزع عليها جميعًا نوعًا من الحنان الأبوي، حذرته أمه:

ـ انهض يا مصطفى، سوف توسخ ملابس الجيش..

لم يلتفت إليها، جلست فاطمة أمامي صامتة، كنت قد دخلت حياتها فجأة، بأكثر مما ينبغي، كنا شركاء في نفس البؤس يا فاطمة وإن اختلفت الدرجة قليلًا، وكانت المعجزة أن نلتقي رغم ذلك، وأن نشعر بهذا الشيء الذي يسمى الحب، وأن نعلو معًا في لحظة نادرة فوق الطين والقش ونحلم بإمساك السحاب، أليست هذه هي أيضًا إحدى معجزاتك الصغيرة؟ نظرت الأم إليّ حائرة وأنا جالس مستندًا إلى الجدران قالت محرجة:



ـ أهلًا يا ضنايا..

وتظاهرت بإعداد الطعام، وظلت فاطمة جالسة في مقابلي، حاولت أن أبتسم لها فلم تبادلني الابتسام، زحف الأخوة الصغار،كانت وجوههم جميعًا متربة فلم أعرف الصبيان من البنات جلسوا حول فاطمة، وتشاغلوا قليلًا بمصطفى، ثم جاءوا جميعًا وجلسوا حولي على الحصيرة هادئين تمامًا، يعانون مثلنا من قلق الترقب والانتظار، أدركت فجأة أن فاطمة تجلس هنا فقط بجسدها، أنها لا تنتمي إلى هذا المكان، ربما لا تنتمي إلى أي مكان وأنني رغم حضوري إلى هنا لن أستطيع استحضارها لو غابت فجأة، ورغم أنني قد عرفت أباها وأمها وأخواتها فلن يدلني أحد عليها عندما يفتقدها قلبي، كانت وحدها القادرة على الحلم في مثل هذا المكان وكنت فقط جزءًا من أحلامها، فإلى متى يدوم حلمك يا فاطمة؟

جاء الأب، كان قد ارتدى جلبابه، هبط من الدرب وخلع صندله قبل أن يخطو جالسا على الحصيرة، رأيت قدميه المفلطحتين المليئتين بالشقوق الغائرة، ثناها تحته وجلس أمامي، انتقل الأطفال في حركة سريعة وجلسوا بجانبه حدق فيّ بوجه جامد ولكنه خال من العداء، قال:

ـ والآن فلنتحاسب حساب الرجال، والله.. لولا أنك ابن الأسطى نجيب لحطمت عظامك وعظامها.

لم أدر ماذا أقول، بلعت ريقي في صعوبة، تشاغلت الأم بإعداد الطعام واشرأبت فاطمة بعنقها تراقبنا كأنها تستعد للتدخل، كان



مصطفى قد جمع كل الكتاكيت في كفه، ومازالت أصابعه تتحرك بمهارة على ريشها، قلت وأنا أجمع أشتات صوتي:

ـ لم أرتكب خطأ، لقد عرفت فاطمة، ورأيت أنه من الأفضل أن أعرف أهلها أيضا..

نظر إليّ متحيرا، حيرة ردي رغم أنه لم يقنعه، وتأمل وجهي كأنه يتساءل عما يفعله بي، قال:

ـ ولماذا تريد أن تعرف أهلها؟

كان يحاصرني، ولم أكن أنا في حاجة للف أو الدوران، وكانت عينا فاطمة واسعتين، كما لم تكونا من قبل، قلت:

ـ لأنني أريد أن أتزوجها..

وهنا أفلتت من فم الأم ضحكة مفاجئة مليئة بالدهشة، والتفت إليها الأب غاضبا فكتمتها بصعوبة، احمرّ وجه فاطمة بشدة، حتى أنا، أصابني الفزع بعد أن خرجت الكلمات من فمي، ولكن الضحكة القصيرة المبتورة كانت قد فعلت فعلها وغيرت كل شيء، عاد الأب إليّ بوجهه وحاول عبثا أن يستعيد صرامته ولم يجد ما يقوله فنظر إلى فاطمة، لعلها المرة الأولى التي يكتشف فيها أنها لم تعد فتاة صغيرة، عاد يقول:

ـ ألستما صغيرين على هذا الكلام الفارغ، لماذا لا تكملان تعليمكما أولًا؟



ولكنه كان يدرك أنه لا جدوى من الكلمات لقد وجد نفسه أمام شيء لا يمكن منعه، شيء من سحر الطبيعة الخفي، ضربني على يدي بخفة وعاد يقول بلا جدوى:

ـ لا تشغل نفسك بها، ولا تشغلها قبل الشهادة، مفهوم؟

قلت: مفهوم..

دون أن أفهم، كيف أفهم مثل هذه النصيحة وفاطمة بالفعل تشغل كل ذرة من كياني، نظرت إليها فنظرت إليّ بثبات، لم يعد هناك ما نخشاه، قال الأب في أسف وقد لاحظ نظراتنا:

ـ أعرف أن كلامي سيضيع في الهواء، فقر وعنطزة، هذا هو زمن عبد الناصر..

عاد ينظر إليّ في اهتمام وهو يقول:

ـ كيف حال الأسطى نجيب الآن؟

ـ عاد للعمل ولكنه مازال يعاني من آثار كوابيس السجن..

أصدر بشفتيه صوتا مشفقا ثم هتف:

ـ مسكين، هل يكره عبد الناصر؟

لم أدر كيف أجيب عن هذا السؤال، لماذا يضعون أبي دائما في مواجهة عبد الناصر، ربما لأن الجميع يوضعون دائمًا في مواجهة عبد الناصر،قلت:

ـ لا أدري، إنه لا يتحدث كثيرا، يجيب فقط على الأسئلة الضرورية..

هز الأب رأسه وسرح ببصره بعيدا وهو يقول:

ـ عبد الناصر ليس لنا، ليس لمن كان في سني أو سن أبيك، إنه لكم أنتم، هو الذي زرع فيكم كل هذه الأحلام الغريبة.

حتى الحب، يوجد فيه عبد الناصر بشكل أو بآخر، لوح الأب بأصبعه أمام عيني وعاد يقول محذرا:

ـ عليك أن تواصل التعليم، مهما كان السبب، هذا هو مبدئي مع فاطمة..

التفت إلى الأم يطلب منها أن تعد الطعام، حاولت أن أنهض مستأذنا ومحرجا ولكنه وضع كفه الضخمة على كتفي الصغيرة وأبقاني جالسا، تحركت الأم في نشاط وبدأت فاطمة تساعدها، كان جو التوتر قد زال، وبدت الدعوة إلى الطعام بالغة الود، وضعوا أمامنا طبلية خشبية، وأطباقا بسيطة، وكمًّا كبيرا من الأرغفة، جلسنا جميعا حول الطبلية، ورمقتني فاطمة بعينين ضاحكتين أحسست أنني يجب أن آكل، كانت مشاركتي في الطعام هي نوع من الشرعية في حبي لفاطمة، كل شيء كان يذوب، الكلمات تتحول إلى نكات ضاحكة، مصطفى يأكل كثيرا، ويتحدث عن الضباط المتعالين، وضباط الصف الشرسين والجنود الذين يتصرفون بينهم كالفئران المذعورة، أحسست بالإشفاق على مصطفى وتمنيت أن نصبح أصدقاء، رفعت فاطمة وأمها الطعام، وكان الشاي ثقيلا، وأخذ الأب يشربه في رشفات مسموعة، وفجأة نظر إليّ، وعاد إلى الموضوع الأصلي وهتف بي:



ـ هيه، هل تعدني يا علي، لقد أكلنا معا عيشا وملحا، عدني أنك ستلتفت إلى دروسك وتبتعد عن فاطمة؟

لم أبتلع طعم الرجل العجوز، كنت صغيرا، ولكن عشق فاطمة قد أنضجني كثيرا، قلت:

ـ سألتفت إلى دروسي، ولكن لن أبتعد عن فاطمة، لا أستطيع أن أفعل هذا.

هز رأسه في أسف، كان يتوقع جوابي، وابتسمت لي فاطمة ابتسامة خالصة العذوبة، ومن فوق الطبلية مددت يدي، قمت بالحركة التي رأيتها من قبل في عشرات الأفلام ولم أتخيل أنني سأقوم بها في يوم من الأيام، قلت في صوت واضح:

ـ أريد أن أقرأ معك الفاتحة.

انزل الرجل كوب الشاي، وضعه على الطبلية ونظر إليّ في حيرة، ثم نظر إلى فاطمة التي دارت وجهها بكفها، وإلى مصطفى المنشغل بالكتاكيت وإلى الأم التي تركت ما في يدها، ومسحت يدها المبتلة في جانبي ثوبها وقالت للمرة الأولى وهي ترمق ابنتها:

ـ اقرأها معه يا أبا مصطفى..

أسقط في يد الرجل، تحولت اللعبة إلى جد ودخلت فيها كلمات الله، وبدا هذا الالتزام أكبر مما كان يتصور، ظللت مادا يدي متوترا، شاعرا بالهواء الرطب وهو يصفعها، وهتف الأب في ضيق:

ـ إنهما طفلان يا أم مصطفى، كيف يحدث هذا؟

إلا أن يدي التي مازالت ممددة عادت إليّ فارغة فسوف انفجر باكيا من شدة القهر والإحباط، وقالت الأم مرة أخرى:

ـ اقرأها معه، لعل الله يتمم لهما بالخير، الشاب في الثانوية وهو عاقل كما ترى ربنا يحرسه لشبابه.

ومد يده أخيرا وتناول يدي الصغيرة وسط أصابعه الضخمة الخشنة، أغمضت عيني وبدأت أقرأ الآيات في سرعة، طلب الرحمة والخوف من العذاب، الاستغفار والدعاء، فتحت عيني فرأيت شفتيه وهما تتحركان، خفضت فاطمة من رأسها ولابد أنها هي أيضا كانت تقرأ الفاتحة، حدق فينا مصطفى قليلا ثم أخذ يقرأ هو أيضا، كذلك الأم، الأطفال فقط ظلوا صامتين، يتأملون صمتنا المفاجئ في دهشة، كانت الآيات تنبعث من قلبي، تصلني بك يا فاطمة، وأبوك مازال ممسكا بيدي فأقرأ الفاتحة للمرة الثانية، وأقرأها للمرة الثالثة ثم سحب يده، ومسح بها على وجهه فمسحت بيدي على وجهي، وأطلقت الأم زغرودة صغيرة فانفجرت فاطمة ضاحكة ونهض الأطفال الثلاثة وأخذوا يتقافزون، انتشى البيت بطاقة غريبة من الحبور، طارت الكتاكيت وحطت على كتف مصطفى ولم أدر من أين استمدت أجنحتها كل هذه القوة، حتى الأب ابتسم فجأة يردد حائرًا:

ـ اللهم اجعله خيرا.



وتحدثنا جميعا في صخب بالغ، حتى وأنا وفاطمة أخذنا نتحدث ونقاطع مصطفى وأحكي لهم عن الامتحانات، كنت أنظر إلى الأم في امتنان، وتنظر إليّ بود شديد، كانت بضعفها الحالم وصمتها الدائم قد حسمت كل شيء في اللحظة المناسبة، تخلقت فجأة مناسبة فرحة حول الطبلية وتحت السناج المتساقط وأحسست أن هذه الفاتحة القصيرة الآيات قد ربطت مصيري بفاطمة إلى الأبد، الآن أستطيع أن أنظر إليها دون خوف، وأن أتشرب ابتسامتها دون خجل.

مضى الوقت سريعا، تذكرت فجأة أن أمي تجلس الآن خلف النافذة في انتظاري،وأن موعد عودة أبي من «الوردية» قد حان، نهضت واقفا، ونهض الجميع، قلت للأب إنني يجب أن أنصرف الآن، قال الأب في جدية:

ـ لقد قرأت معك الفاتحة حتى لا أكسر بخاطرك فقط، ولكن التفت لدروسك أولا، وعندما تكون مستعدا تعال مع الأسطى نجيب، نريد أن نتعرف عليه..

ولم ينتظر جوابي، التفت إلى مصطفى وهو يطلب منه أن يوصلني، حاولت الاعتذار ولكن الأب كان مصرًّا، كان يقوم بواجبات ضيافته كما ينبغي، نفض مصطفى التراب من على ركبتيه والسناج من على كتفيه وسار أمامي، ألقيت نظرة أخيرة على فاطمة فأعطتني ابتسامتها العذبة، أدركت أنني اجتزت بنجاح كل الاختبارات الصعبة، بدأنا أنا وهو رحلة العودة، كنا نتحدث في ود، رغم ما حدث ورغم الفرق بين حجمينا، تحدث عن ورشة السيارات التي كان يعمل بها،



والمكسب الكبير الذي كان يكسبه ولكن الجيش اقتنصه ولم يعطه في مقابل ذلك إلا الملاليم، لقد أصبح الآن يصلح كل سيارات الضباط لقاء عدة ساعات إجازة يقضيها هنا ويعود سريعا، كان مصطفى الآن شخصا مختلفا تماما عن الذي أمسك بخناقي، قال لي أن له عالمه الخاص، وأحلامه الخاصة التي لا يعرف بها أحد، كنت أريد أن أكون ودودًا معه، قلت له:

ـ بماذا تحلم يا مصطفى؟

توقف، وضع يده فوق كتفي وبدا على وجهه تعبير غريب فيه نوع من الفرح الجامح، قال:

ـ هل تريد أن ترى بنفسك، هل لديك وقت؟

تذكرت أبي وأمي ولكني أومأت برأسي موافقا، كان يريد هذه الموافقة، أخذني من يدي وسرنا مسرعين عبر الدروب والحارات، خرجنا منها فجأة، كان يعلم مساربها الخفية لأنني وجدت نفسي خارج الجانب الآخر من المدينة، أخذنا نخوض في طين الأرض المزروعة ثم عبرنا جسور المصارف واجتزنا أكواخ القش والصفيح، فكرت أن هذا يوم غريب لم أكف فيه عن الارتحال، كان يتحرك بخفة لا يريد أن يلامس الأرض، لم يكن يكبرني كثيرا في السن رغم حجمه، والغريب أنه بنى هذا الجسد الضخم من فتات الطعام على الطبلية الخشبية الفقيرة.

اقتربنا من مكان غريب وسط أشجار السنديان العالية، لم أكن قد رأيته قبل الآن أنا الذي ظننت أنني أعرف مدينتي جيدا، سور من



الأسلاك الشائكة، ومساحة شاسعة وأكوام من الصفيح والمعدن تتألق تحت الشمس، كلما اقتربنا منها ظهر المزيد من التفاصيل، تلال من السيارات المحطمة، من مختلف الأنواع والألوان، حطام غريب رغم تألقه لا يوحي إلا بالفناء والموت، كان مصطفى مبهور الأنفاس وهو يشير إليها في سعادة:

ـ انظر، هذه مقبرة السيارات، كل السيارات التالفة والعجوز في بلدتنا والبلاد المجاورة تأتي هنا، يباع منها مايباع والباقي يظل هنا حتى يصدأ ويتحلل تحت الشمس والمطر.

كنا نقترب أكثر، بوابة متداعية، مركبة من أبواب السيارات المختلفة الألوان، حارس عجوز يجلس وحيدًا عند الباب دون أي حركة حتى بعد أن أصبحنا أمامه، رفع مصطفى يده وقال بضعًا من الكلمات ولم يتحرك الرجل، لم يحاول دعوتنا للدخول أو منعنا وأصدرت البوابة صوتًا عاليًا ونحن ندخل، كانت هي الشيء الحي الوحيد في هذه المقبرة الشاسعة، أصبحنا فجأة وسط الحطام الملون، استدارت الشمس وبدأت في المغيب ولكن الحطام ظل محتفظًا بتألق كل الشموس القديمة، سيارات متراصة فوق بعضها البعض، كل سيارة تربض فوق الأخرى في تحفز، سيارات ملتوية على نفسها، بعضها زائغ البصر دون أضواء أمامية، وبعضها محطم تمامًا لا تستطيع أن تعرف ماذا كان نوعها، وسيارات أخرى تقف شامخة كأنها غريبة عن هذا المكان ولكن فيها عجز كامن يمنعها من الانصراف، حطام رائع رغم جموده، ساكن في انتظار التحلل، تنمو داخل السيارات ومن



حولها الأعشاب البرية والنباتات المتسلقة، تخرج الزهور الغريبة الألوان من إطارات «الكاوتشوك» وتطل من داخل النوافذ المحطمة الزجاج فروع نباتات داكنة الخضرة، نمت في القاع الحديدي المظلم ثم صعدت تبحث عن الضوء، أتأمل كل شيء وأنا مبهور الأنفاس، والسيارات المختلفة تحدق فينا بوجوهها المهشمة، تنتظر لمسة سحرية حتى تنطلق من جديد، ومصطفى يتقافز من فرط السعادة، هذا هو العالم الذي يعشقه، يده الضخمة تتحرك في الهواء، نفس اليد التي يداعب بها الكتاكيت ويصلح بها السيارات المعطلة.

توقفنا،أمامنا عدة أعمدة خشبية مغطاة بمظلة من الصفيح، كلها من أجساد السيارات، أشار مصطفى إلى شيء راقد تحت هذه المظلة، ماكينة سيارة، مراوح، وسيور، أحشاء سيارة أو ربما عدة سيارات، سوداء، تعلوها طبقة من الشحم والزيت ويغطيها التراب، كان فيها شيئا مهيبا، يبعث الرعدة في الجسم، مثل حيوان داكن السواد، كامن ومتحفز، جلس مصطفى بجانبها وبدأ يتلمسها بأصابعه الغريبة، يكسوها بطبقة الشحم والزيت فتكتسب لون الآلة وتمتزج معها، يفحص عشرات البروزات والتجاويف ويدخل يده تحتها ويخرج مفتاحا إنجليزيا، ثم يخرج عدة كاملة ويبدأ في العمل يربط الصواميل، يصل الأعضاء المتباعدة، كنت مبهورا وقد أخذت بحركة هذه الأصابع وقدرتها على التكيف، كانت أكثر مهارة ودربة من الجسم الذي يحركها، كان فيها شيء من سر الخلق وبدا أن الجسد الأسود الراقد أمامها هو أيضًا يرتعد بنبضات الحياة التي تسري فيه من خلال لمسات هذه الأصابع، قلت له في همس:



ـ ماذا تفعل يا مصطفى؟

كنت أخشى أن يعكر صوتي سكون الكائن الأسود، قال وهو يواصل العمل:

ـ إنها سيارتي، صنعتها بنفسي..

لم أكن أعرف أن كان هذا يشبه شكل السيارة أم لا، ولكنه بدا رائعا وحقيقيا عاد يقول:

ـ لقد جمعتها من كل السيارات الموجودة هنا، جمعت الأجزاء الصالحة منها، ثم كونت منها هذه الآلة التي لا نظير لها، ستكون قادرة على السير أسرع من أي سيارة في العالم.

أشار حوله، كانت هناك أجزاء من سيارات مختلفة، أبواب ورفارف وسقف وغطاء للمحرك كل واحد منها لها لون مختلف، كانت كلها زاهية وسليمة ومتقاربة في الحجم، عاد يقول:

ـ هذا هو الجسم الذي سأكسوها به، سوف تكون أجمل سيارة في العالم أيضا

أي جنون كامن في هذا اليوم، تخيلت مصطفى وهو ينطلق بهذه السيارة العجيبة المختلفة الألوان عبر شوارع مدينتنا وشوارع كل المدن، كنت أنا وفاطمة في المقعد الخلفي نبحث جميعا عن أفق لا ينتهي قلت له:

ـ وماذا ستفعل يا مصطفى بعد أن تتم صنع سيارتك؟



رفع رأسه وهو يحدق في الأفق البعيد، ترى أي حدود يطمح إليها، قال:

ـ سأطوف بها العالم كله..

ـ كيف؟

ـ بعد عام، ربما أكثر، أو أقل، سوف يحرر عبد الناصر فلسطين ويصبح الطريق مفتوحًا عبر الصحراء إلى سوريا وتركيا وبقية العالم، لا شيء يستطيع أن يقف في طريق هذه السيارة.

كم بقينا جالسين ونحن نفك ونركب ونعيد الفك والتركيب والصمت المخيم لا يمتلئ إلا بصوت الريح وغمغمات المعدن، بدأنا نتحدث سويا في ألفة شديدة ونضع تفاصيل الرحلة، ذكرت له كل حدود الجغرافيا فلم يأبه بها، لم تكن هناك حدود قادرة على احتواء جسده الضخم أو حلمه العريض، مشكلته فقط هي شيئان، أن تنطلق السيارة، وأن يزيح عبد الناصر إسرائيل من طريقه، وهبط المساء دافئا محملا برائحة الحقول، وتألقت النجوم ونحن نعود صامتين عبر شوارع المدينة.

كانت أمي تنتظرني في هلع، تحسست وجهي كي تطمئن أنه لم يحدث لي شيء، كانت قد طافت المدينة مرتين، ذهبت حتى إلى لجنة الامتحان بعد أن انتهى كل شيء، ولكنها حين رأت علامات السعادة فوق وجهي وعدم مبالاتي بقلقها، لم تتمالك نفسها فضربتني على صدري ثم ذهبت لغرفتها، ظل أبي يتأملني صامتا، دخلت إليها وجلست إلى جانب فراشها وأخذت أكذب، قلت لها



إنني كنت مع أصحابي، كنا سعداء لأننا أنهينا الامتحانات وبدأنا الإجازة، ولكنها حين حدقت في وجهي بعينيها الواسعتين أدركت أنها تعرف كل شيء، وأنني أكذب عليها، ولعلها شمت رائحة فاطمة في جلدي، كنت أود الاعتراف فلم أستطع، وكانت الفاتحة التي قرأتها مع أبي فاطمة تعذبني وأريد أن أعلنها على الجميع ولكن عندما رأيتها وهي تأخذ أنفاسها بصعوبة من فرط الحنق والانفعال لم أتكلم، نامت وأنا بجانبها، ونام أبي على الأرض، ثم نهضت واقفا ساهرا بجانب النافذة، إن النجوم تشبه عينيك يا فاطمة، وهذا تشبيه قديم، ولكن من أين هذا الضوء الذي يملأ أعماق روحي، إن الظلام يخفي كل الألوان ويحولها إلى لون واحد هو حنيني إليك.

في اليوم التالي لم تكن أمي غاضبة كثيرًا، طلبت مني أن أحكي لها كل تفاصيل الامتحان، لم تفهم فيها كثيرا ولكنها كانت تدرك كل شيء من خلال تأملها لتعبيرات وجهي، سمحت لي بالنزول لأمارس حريتي في أول يوم من أيام الإجازة، كان همي الوحيد هو أن أرى فاطمة، ولم أدر إن كنت أستطيع الذهاب إلى بيتها هكذا دون أن يغضب أبوها، أو يسيء هذا إلى سمعتها وسط الجيران؟ لم أستطع، كانت شجاعتي تبلغ أقصى مداها حين تكون معي، لم أتقدم خطوة واحدة أمام فتحة الدرب المؤدي لبيتها، ظللت واقفا على أول الشارع في انتظار مصادفة قد لا تجيء، كنت واثقا بشكل غامض من أنها سوف تشعر أنني في انتظارها وأنها سوف تخرج لي حتما، ظللت أروح وأجيء، كان هناك مقهى عليه بعض الزبائن،



يتأملونني في كسل، ولا أدري إلى متى يمكن أن أظل هكذا دون أن أثير ريبتهم، في الجانب الآخر كان هناك صالون حلاقة، ضيق نصف معتم مكتوب عليه «حلاق الزمان» يقف على بابه رجل بالغ القصر يطرقع بالمقص بلا توقف وهو ينظر إليّ، ظللت مركزا عيني على أول الدرب دون جدوى، فكرت في المجازفة والدخول، ولكن الأمر كان قد أصبح صعبا، ظل الحلاق يطاردني بضربات المقص، يجعلني أحس أنني مكشوف أمام الجميع، استدرت وسرت إليه جلست على المقعد الجلدي المشدود أمام المرآة الباهتة، لم تظهر فاطمة لتنقذني، ورأيت وجه الحلاق في المرآة وعلى وجهه ابتسامة ظافرة، مد يده وأدخل أصابعه في شعري لم يسألني عما أريده، حرك المقص في شعري وبدأ على الفور يتحدث في سرعة مثل كل الحلاقين، تناثرت خصلات شعري فأحسست بالحزن، وأدركت أن رأسي ستعرى دون ثمن وظل الحلاق يسألني عمن أكون؟ وأين أسكن؟ وأنا أعاني من التعب والإحباط والنظر دون جدوى إلى فتحة الدرب.

وعندما وصل الحلاق إلى قص منتصف رأسي تقريبا، ظهرت فاطمة، خطت ببساطة آسرة من الدرب المنخفض عن مستوى الأرض، واعتلت ظهر المدينة وتجلت أمامي في المرآة، نهضت في فزع، وأوشك المقص أن يدخل في وجهي لولا أن الحلاق أبعد يده في اللحظة المناسبة، نزعت «الفوطة» من حول عنقي ووضعت أمامه كل ما في جيبي من قطع فضية، أسرعت خارجا من المحل



براس نصف محلوقة، سمعت صوت الحلاق وهو يتمتم في دهشة ولا يكف عن الطرقعة بالمقص، ولكن لم أكن أرى سوى فاطمة.

أمسكت يدها فالتفتت إليّ، قالت:

ـ كنت أتوقع أن تنشق عنك الشوارع في أي لحظة.

ونظرت إليَّ قليلا قبل أن تنفجر في الضحك:

ـ ماذا فعلت بشعرك، لقد أصبحت بنصف رأس؟

وبدأنا نسير معا، كنا في حاجة لمدينة أكبر، لأن الشوارع كانت أصغر من أقدامنا، وكنا في حاجة إلى سماء أقرب لأن السحب كانت أبعد عن متناول أيدينا، لم نكن نرى أحدا، ونعتقد أن لا أحد يرانا، تجولنا في زوايا الحارات وبللنا ريقنا في محلات عصير القصب الضيقة، وجلسنا تحت الأشجار الضخمة على مشارف المدينة، وعلى حافة النهر بين الأشواك البرية، واختبأنا خلف الأسوار المهدمة والمباني الآيلة للسقوط، ثم تعلمت أجمل الأشياء الحية وأكثرها متعة،أن أقبلها، قبلت فاطمة على خديها، وجبهتها ورقبتها، ثم قبلت شفتيها، ذقت قطافها البكر، ودخل فمي طعم لعابها المسكر، وارتعدت روحي من لمسة دفئها، في البداية كانت أسناننا تصطدم ببعضها البعض، وكان الألم وصوت الاحتكاك الخافت ينهي قبلتنا قبل أوانها، نندفع سريعا وننفصل سريعا، ونعاني من افتقاد اللذة المبتورة، ثم تعلمنا ألا تصطك الأسنان، عليّ أن أدخل شفتي بين شفتيها فترخيهما في نعومة قبل أن آخذهما، أرفع الشفة العليا إلى أعلى ثم تضغطهما إلى أسفل، وامتصهما



ببطء شديد، في البداية كنا نختنق بعد برهة وجيزة، لا نعرف كيف نلتقط أنفاسنا من أنفينا فقط بطريقة صحيحة، كل منا كان يضغط على أنف الآخر حتى نوشك على إغلاق كل فتحات التنفس، كنا نفترق لاهثي الأنفاس من شدة الانفعال وبداية الاختناق، ثم تعلمنا أن نلتقط أنفاسنا قليلا، قليلا، نتشربها كما نتشرب طعم الشفتين، أنفاس هادئة ودافئة تنساب مع إيقاع حركة الشفاه، ترسل نبضاتها الخاصة على جلد الوجه وحول أهداب العينين وعلى حافة الأذن، يتحول اللهاث إلى نبضات خاصة تسري في بقية أجزاء الجسد وتجعل القبلة تستطيل كأنه لا وجود للزمن، ولم نكن نعرف ماذا نفعل بأيدينا، كنت أرفعهما عاليا، أو أضغط على يديها، أو ألفهما حول جسدها لأدخله في جسدي، كانت تصرخ أحيانا وترتجف أحيانا من فرط المتعة المؤلمة، ثم تعلمت يدي وحدها كيف تتلمس طرقها الخفية إلى جسدها، وتتلمس نقاطها السحرية، بدأت يدي ترتاح على خصرها، ثم تزحف أصابعي واحدة بعد الأخرى حتى تجذبها إليّ ببطء، ثم تتابع سيرها إلى فقرات ظهرها وتتلمس بروز العظام، تضغطها في نشوة، ثم تزحف أصابعي إلى الأمام، تحت التفافة الإبطين، كي تحط راحتا يدي على نهديها الصغيرين فيرتجف جسدها كله، وتنتقل الرجفة إلى كل جسدي ونحس أن خلاصة روحينا قد تركزت في هذه المنطقة الصغيرة من الشفتين، وكنت أحس بكفيها وهما فوق كتفي، متباعدان تماما، ثم تبدآن في التقارب حتى تلتقي أصابعها خلف رقبتي، ثم تنفرج الأصابع إلى أعلى وتدخل جذور شعري من أسفل إلى أعلى، ثم



تفترق الكفان، تذهب كل كف منهما إلى جانب من جانبي رأسي، يصبح رأسي مضغوطا بينها وهي تميل به إلى أسفل حتى تكون كل شفتي بين كل شفتيها فتعود الأسنان للاصطكاك مرة أخرى، كنا نبقي أعيننا مفتوحة يحدق كل منا في ملامح الآخر في هذه الدرجة من الاقتراب الحميم، يبحث كل واحد عن صورته في أعماق بؤبؤ الحدقة محمر ومنفعل وآخذ في الذوبان، ثم أصبحت أعيننا تغمض نفسها رغما عنا، وكنا نرى بعضنا رغم ذلك، كان هناك ضوء خافت فيه حرقة الشمس وبرودة النجوم ينبعث من خلال احتكاك شفتينا، ذلك الظلام الساخن الشفيف يحملنا بعيدا، فوق المدينة وعبر النهر ودون حاجة للصهريج تأخذ أجسادنا خفة العصافير وهشاشة السحب، لم نكن ندري ماذا نفعل بجسدينا، كنا نقف بهما متصلبين، متباعدين خائفين من أي مباغتة ثم بدأت تنمو بينهما لغة خاصة، لغة الاقتراب والتباعد، حركة متماوجة وفق إيقاع خاص فيه بعض من الملامسة، وبعض من الاحتكاك، وبعض من التباعد الآسر حتى يتم الالتصاق ويسري تيار القبلة من الفم إلى كل خلية من خلايا جسدينا، شيء من برودة التباعد ودفء الالتحام يجعل جسدينا دائمي التشكل، كل جسم يتشكل حسب منحنيات الجسم الآخر ويتصاعد خلال ذلك إيقاع خفي، يتولد من أعماق الخلايا المثارة في نبضات لا تهدأ أبدا، مع كل قبلة كان هناك طعم مختلف شذى أشجار الصفصاف والجازورينا والورد الجوري، كأن شيئا من نضارة الخضرة يسري في عروقنا وكأن العصافير تبني أعشاشها على تعريشة من الشرايين، كان الصمت



الذي يحيط بنا على مشارف المدينة يعطي قبلتنا طعما مختلفا، فيه شيء من التبتل والوجد والرغبة في الذوبان، وكنت أقبلها خلف الأسوار المهدمة في وسط المدينة، ومن الناحية الأخرى كان المارة يثرثرون ويتلكئون ويفتعلون شجارات صغيرة وكنا نظل متعانقين، متداخلين مع بعضنا، كان هذا هو طوق نجاتنا الوحيد، وكان عبق جسدها يبقى في أنفي بعد ذلك فأتخيل أنني مازلت أعانقها حتى ولو كنت وحدي، هل كان لها عطر خاص؟ أم لم يكن هناك عطر على الإطلاق، ولكن رائحتها كانت تسكنني دوما، لا تغادر أنفي ولا أجد لها شبيها، كنت أقبلها قبلات سريعة في زوايا الشوارع المظلمة تحت أعمدة الإضاءة المكسورة المصابيح وأقبلها في مداخل بيوت غريبة تحت أقبية السلالم الرطبة حيث يصعد ويهبط أناس غرباء، وكان الخوف يجعل شفتيها باردتين ومرتعدتين، وتكون متعتنا الوحيدة هي التغلب على هذا الخوف، أقبلها ونحن رقود وسط حقول البرسيم، ومع كل قبلة كنت أرشق في شعرها زهرة بيضاء صغيرة، وأقبلها على حافة النهر بعيدا عن المدينة وسط الأشواك البرية التي كانت تغز ظهرينا كلما قمنا بأي حركة، وكان خرير الماء يظل يدوي في عروقنا، كان كل الكلام ينتهي عندما نتلامس، تكفينا مفردات اللغة التي تمتلئ بها أجسادنا، تبدأ الشفاه جافة، مترددة، نحيفة، وعندما تندس كل منهما وسط الأخرى، توشكان على الذوبان والتلاشي، ثم تتماسك الخلايا وتنبعث فيها حرارة الرغبة فتمتلئ وتصبح لها طاقتها الخاصة وحركتها الخاصة، تستمد مذاقها من طعم غابات لم نرها، وبحار لم نسافر إليها، وشموس لم تشرق



علينا، كنت آخذ الشفة العليا أولا، بينما تبتعد شفتها السفلى كأنها تتيح لي الفرصة، ثم تبدأ في الانضباط هي الأخرى ببطء حتى لا يكون هناك فرق بين شفتي وشفتيها، قبلتها ألف مرة ومرة، كنت أبدأ خائفا من أن ترفض قبلتي، وحين تهبها لي في جذل كنت أرتعد من شدة الفرح فأظل أقبلها وأقبلها، وكنا نختلف كنت أريد أن أنهي الثانوية العامة وأعمل في المصنع كما يفعل معظم أهالي المدينة، ونتزوج على الفور، كانت ترفض، وكنت أريد أن آخذها لبيتنا لتقابل أمي، دون شجار هذه المرة، وحتى تمد يدها وتقرأ الفاتحة مع أبي كما فعلت مع أبيها،كانت تضحك وتؤجل، كنت أريد أن أقيم عندهم فأراها في الصباح وأراها في المساء وأشاركها في أحلام اليقظة والنوم، وكنا ننهي كل الخلافات بالمزيد من القبل المحمومة، كنا نفتعل الخلافات من أجل هذه القبل، وعندما يحين وقت افتراقنا كنا نؤجل ذلك كي ننتهي من القبل التي لم ننته منها بعد، كانت هناك دائما قبلة الوداع الأخيرة، القبلة كنا نستنفد فيها كل القبل فلا نحتاج بعدها للمزيد، كنا نتأهب، نستنفر حتى أدق الشرايين، ونستحضر حتى أوهن الاختلاجات، ثم ندخل في بعضنا نريد أن نصل إلى درجة من الامتزاج النادر وإلى درجة من الدفء تذيب فروق الوقت، وإلى درجة من التداخل تجعلنا ننفذ سويا إلى بعضنا خلف أقنعة الجلد والعظام إلى جوهر روحينا معا، كانت هذه القبلة تستطيل، نذوب فيها حتى تنقطع أنفاسنا تماما، ولكن ما إن نفترق حتى نحس أننا بحاجة إلى قبلة أخرى.

كيف أصف ملمس شفتيك يا فاطمة؟ لقد بقيت مطبوعة على



شفتي طوال الوقت، كنت أخاف من أن أحرك فمي، أو أكثر من الحديث، أو حتى أتناول طعامي حتى لا يتبدد ويختفي، كيف أصف ما هو مستعص عن الوصف يا فاطمة؟

في اليوم التالي ذهبت وأكملت حلاقة شعري، وفي اليوم الثالث صرت أنا والأسطى عطية الحلاق أصدقاء، أخذ يطرقع بالمقص ويحدثني عن كل غرامياته السابقة، وينتظر ظهور فاطمة معي، قال لي إنه كان حلاقا للسيدات ولكن كثرة عشقهن أرهق قلبه فترك السيدات وبحث عن التعزية والنسيان في رءوس الرجال وذقونهم، عرفت أشكال الزبائن وتعودت على رائحة الصابون المختلط ببقايا الشعر والعرق والبودرة وكولونيا الثلاث خمسات، كل الذين أحبوا وتعذبوا، فقراء وأغنياء، مروا جميعا على عتبة المحل وكأن الحب دائما مرتبطا بالعذاب، وكان يطرقع بالمقص ليؤكد كل كلمة من كلماته، ثم تأتي فاطمة تتمهل وتبتسم لنا معا، ويطرقع هو بالمقص محييا، ثم ننطلق متشابكي الأيدي، حتى الأماكن المزدحمة كانت تخلي نفسها من أجلنا، ولكن فاطمة قالت لي رغم كل ذلك:

ـ سوف أغيب؟

هتفت في فزع حقيقي:

ـ مستحيل، لا غياب بعد ذلك..

ـ أسبوعان فقط، أنا وأمي وأخوتي سوف نسافر إلى بلدتها كي تزور أهلها، إنها زيارة تقوم بها أمي كل إجازة.

كنت كالطفل يخشى أن يفقد فجأة كل شيء، قلت:

ـ فلتذهب أمك، فليذهبوا جميعا، ولكن ابق أنت..

ـ أنت مجنون، يجب أن أغيب قليلا، كذلك لا يجب أن نلتقي كل يوم بهذا الشكل..سيعلم أبي ويغضب مني..

كنت قد تعودت عليك يا فاطمة، وسوف يكون حرماني منك قاسيا، قلت:

ـ ما اسم بلدة أمك هذه؟

ـ ماذا، هل تنوي أن تتبعني إلى هناك أيضا، إنهم فلاحون، يقتلونني ويقتلونك.

واقتربت مني، ووضعت يدها حول عنقي وأخذت تقبلني حتى يهدأ قلبي قليلا، تشبثت أصابعي بجسدها، هتفت:

ـ أنت توشك أن تخنقني..

حاولت التخلص من أصابعي، وحاولت أنا إدخالها في جسدي حتى لا ترحل وحتى لا ينتزعها أحد، همست وشفتاها بين شفتي: أيها الولد الخائب أنا لك مهما حدث، ولكن لا قبلاتها هدأت قلبي، ولا كلماتها سكنت روعي، تشبثت بأصابعها وأخذت أتجول بها في كل شوارع المدينة التي تجولنا فيها من قبل، قالت إنها لا تريد أن تتأخر لأن أمها تنتظر حتى تساعدها في إعداد مستلزمات الرحيل، ولكن لم أفلتها، كنت أكره الرحيل، خائفا ومرعوبا من أن أتركها، أتلفت حولي أبحث عن حل يبقينا معا، وهي تمشي إلى



جواري طائعة على استعداد لأن تفعل أي شيء حتى أطمئن، دخلنا غابة النباتات الموجودة تحت الصهريج، لم يرنا الحارس، أمسكت جسدها وقبضت بكلتا يدي على نهديها فتأوهت وقالت: لا تفعل، لا تفعل، كانت في داخلي أحاسيس وحشية كالنباتات التي تحيط بي، وكان جسدي جائعا إليها ومرتعدا وحزينا، وقبلت هي كل جزء من وجهي وهي تهتف، يا حبيبي لخدي، ويا حبيبي لجبهتي، ويا حبيبتي لرقبتي، قلت:

ـ كيف أعرف أنك عدت يا فاطمة؟

ـ سوف تجدني أو أجدك، لم تعد هناك مشكلة في أن يجد كل منا الآخر..

سرنا حتى وصلنا إلى دكان الأسطى عطية، هنا كان يجب أن نفترق، وكان هو يطفئ أنواره ويستعد للانصراف، وعندما رآنا واقفين توقف هو أيضا، ظللت ممسكا بيدها دون كلمة واحدة، لم أكن أريد أن أتركها، هتف بنا: ادخلوا، فدخلنا وجلسنا في الظلام، هتف بنا:

ـ هل أنتما مختلفان؟

كان في صوته حنان غامر، قالت فاطمة إنها ستسافر وتعود، والمشكلة أنني خائف من الفراق، قال الرجل وقد ركبه حزن مفاجئ:

ـ ليتك لا تسافرين إذن؟

ولكن كان لابد من أن تنصرف، وظللنا ـ أنا وهو ـ جالسين في الظلام لفترة طويلة، لم أستطع أن أرى وجهه، ولم ير هو دموعي..



كيف يمكن أن تمر الأيام بدونك يا فاطمة؟ في اليوم الأول لم أصدق، ذهبت إلى الأسطى عطية، شاهدت شعر الزبائن وهو يتساقط، شممت البودرة حتى اختنقت، سمعت النمائم حتى كلت أذني، ولم تظهر فاطمة، ولابد أن توتري قد انتقل إلى الأسطى فقد أوشك بجرح أحد الزبائن ويقص أذن ثان، انصرف الزبونان وهما يسبونه ويسبونني معه بلا سبب، وساد الظلام دون أن تظهر وانصرفنا نحن الاثنان خائبين.

كيف أقضي الوقت بدونك يا فاطمة؟ لا أصدقاء يعوضونني عن وقتك الضائع، لا ثرثرات الحلاق، ولا الروايات التي تحمل سطورها من الألم واللوعة أكثر مما تحمل من السلوى، كلها تحكي قصة تشبه قصتي معك، ولكني لم أكن أحب نهاياتها البالغة القسوة، فمهما حدث فلن أجعل نهايتي قاسية معك يا فاطمة، كم يوما عليّ أن أمضي وحيدا في شوارع المدينة، أن أفكر في نتيجة الثانوية العامة التي تنتظرني والتي كنت قد نسيتها؟ كم مرة يهز لي الأسطى عطية رأسه في أسف فلا أدخل عنده ولا أتحدث إليه؟ أيامي كانت معلقة في انتظارك على نتيجة الحائط، كلما جاءت الساعة الثانية عشرة أسرعت بانتزاعها ثم تبدأ عذاباتي مع الورقة الجديدة، فهل كان اليأس من لقائك أكثر راحة؟

كان يجب أن أتحدث إلى أي أحد وإلا انفجرت، أبي صامت ولا يعرف من هي فاطمة، وأمي راقدة في سريرها لا تتحرك إلا نادرا، دخلت إلى غرفتها وجلست أمامها، تطلعت إليّ بعيون واسعة



وابتسمت ابتسامة واهنة وكان ضوء الغرفة شحيحا وكان هذا مناسبا حتى لا ترى ما على وجهي من علامات الألم قلت:

ـ لا أستطيع أن أخفي عليك الأمر أكثر من ذلك، لا أستطيع أن أكف عن حب فاطمة، تغيرت أشياء كثيرة، كبرت وحزنت ولكن حبي لها لم يتغير، قلبي لا يهدأ ولا يكف عن التفكير فيها، إنها تظهر لي دائما في كل الأيام التي تزداد فيها أحزاني، تأتي في اللحظة المناسبة، هل تصدقين ذلك؟ هناك قوة خفية تدفعني إليها، سحر، تعويذة، لا أدري ولكنها في دمي يا أمي، هل تدركين ذلك؟ لقد قابلت أباها وقرأت معه الفاتحة، وعندما تعود سوف آتي بها إلى هنا، وسنذهب جميعا إلى بيتهم لمقابلة أبيها، أود ذلك من كل قلبي يا أمي، هل تحققين رغبتي؟

تنظر إليَّ ولا تراني، على وجهها الابتسامة نفسها ولكنها غائبة، جسدها ينتفض في حركات واهنة متتابعة، وضعت يدي على جبهتها في فزع، كان باردا مغطى بعرق غزير كأن الحياة تنسرب بسرعة من جسدها النحيف، صرخت أنادي أبي، أقبل مسرعا وهو يلهث وكان فزعا أكثر مني، أحسست بذنب عميق، كيف لم أرها وهي تتدهور يوما بعد يوم، لحظة بعد لحظة؟! أصدر أبي صوتا متفجعا، كان يجب أن ننقلها إلى المستشفى، وهي تتوسل إلينا بعينيها أن نبعد عنها شبح الموت، لففناها في الأغطية وحملها أبي بين ذراعيه، هبطنا السلم ونحن نلهث، وقف أمام الباب وهو يضمها إلى صدره، بينما جريت أنا في كل اتجاه، صرخت في الشوارع



الصامتة، وعدوت عبر الحواري وشبح موتها يطاردني، يحملني ذنبا مؤلما، وحدثت المعجزة عندما وجدت عربة «حنطور» تسير ببطء شديد، السائق نائم والحصان يعرف وحده الطريق للبيت، قفزت إليه، صرخت فيه أن أمي تموت، أفاق الرجل وأخذ يستحث الحصان، وكان أبي في انتظارنا، يبكي ويواصل احتضانها، انكمشنا جميعا داخل «الحنطور» الضيق، تقاربت أجسادنا نحن الثلاثة إلى درجة الالتصاق، وهي محشورة وسطنا ملفوفة بالأغطية كأننا نحاول أن نمنع أي ثغرة يمكن للموت أن ينفذ منها، كان الحصان يسير ببطء، دقات سنابكه على الأرض ترسل الرعدة في قلوبنا، وهذا الزمن الذي يضيع ليس في صالحنا، والحصان المتعب لا يأبه بضربات السياط، وكلما مررنا تحت أعمدة الإنارة سقطت مساحة من الضوء على وجهها فوجدناها تبتسم رغم مرضها، كانت سعيدة بهذا الالتصاق الحميم، وكانت الكوابيس قد أبعدتنا عن بعضنا البعض أكثر مما ينبغي، وأخيرا ظهر مبنى المستشفى.

كان نبض ضعيف واهن، مزيج من الأسى والامتعاض يظهر على وجه الطبيب الشاب وهو يفحصها، حدقنا فيه أنا وأبي واجفين، قال إنه يجب أن نعيد للنبض قوته قبل أن يقرر أي شيء، بحثت الممرضة في ذراعيها عبثا عن شريان صالح لرشق الإبرة، وتدفق الدم من الثقوب الصغيرة مائلا للزرقة، وجسدها يختلج مع كل شكة، ولكنها لم تكن تملك أي قدرة على المقاومة، نجحت الممرضة أخيرا في اكتشاف وريد صالح للحقن، وعلقت بالقرب



من ذراع أمي زجاجة من «الجلوكوز»،بدأت القطرات تنساب داخل عروقها، قال الطبيب إن هذا قد يساعدها ويمنعها من الانهيار حتى الصباح، كان مصيرها ومصيرنا معلقا بهذه القطرات وهي تنحدر ببطء وتسير داخل الخرطوم الرفيع ثم تختفي داخل شريانها، أغمضت عينيها أخيرا، غرقت في نوم لم يمنعها من الانتفاض، وظللت أنا وأبي واقفين كأننا نحرس جسدها حتى لا يختطفه شبح الموت بغتة، عاد الطبيب، نظر إليها، وقاس الضغط، ثم أخبرنا أنه سوف يدخلها المستشفى وأن علينا أن نعود في الصباح، جاء ممرض ضخم، حمل الزجاجة بيد ودفع النقالة التي ترقد عليها باليد الأخرى، حاولنا أن نتبعها ولكنهم ردونا على أعقابنا، رمقنا الطبيب بنظرة صارمة فخرجنا وجلسنا متلاصقين على أحد المقاعد الخشبية في العيادة الخارجية.

لم تهدأ حركة المرضى طوال الليل، كأن المدينة كلها تموج بالألم، مشاجرات، وحوادث، وسكارى، ومرضى مزمنون، تحولنا أنا وأبي إلى طفلين ضائعين، وظلمة الليل تتكاثف من حولنا والدقائق تمضي بطيئة وقال أبي وهو ينهض:

ـ سوف أذهب وأصلي الفجر من أجلها.

بقيت أنا جالسًا، أترقب أي حركة، كل شخص يخرج كنت أحسبه يحمل لي خبرا، ولكن أحدا لم يبال بي، كانت أمي مجرد حالة عابرة وسط عشرات الحالات، عاد أبي وكان أكثر هدوءا، قال



لي عندما لا تكون هناك أخبار فهذا يعني أنه لا توجد أخبار سيئة، وبدأ الصباح يلقي ظلاله الرمادية الباهتة على المستشفى، صاحت صفارة «الوردية» ولكن أبي لم يتحرك من جانبي، بدأ المرضى يتوافدون على العيادة الخارجية حتى حاصرونا تماما، نسوة بملابس سوداء، ورجال هزال، جاءوا من كل البلاد التي تحيط بالمدينة جلسوا في عجز وفي أيديهم تذاكر الكشف دون أن يأبه بهم أحد، لم يكن هذا المستشفى قادرا على إنقاذ كل هذا الكم من المرضى.

وأخيرا سمحوا لنا بالدخول لنقابل الطبيب الإخصائي، كان عجوزا أصلع الرأس، نظر إلينا من خلف نظارته وهو يقول:

ـ هذه المدينة الرطبة سوف تقتلنا جميعا، أمكم في حاجة للشمس وللجو الجاف يجب أن تذهب إلى المصحة على الفور.

قال أبي وهو يبتلع ريقه الجاف:

ـ مم تشكو؟

ـ تشكو من كل شيء، صدرها ضعيف وآلام المفاصل حادة، وأنفاسها ليست على ما يرام، جسدها منهك لن يستطيع المقاومة طويلا، وسوف نعطيكم خطاب التحويل للمصحة.

كانت راقدة وزجاجة محلول جديدة معلقة في ذراعها، استطاعت أن ترانا هذه المرة، بدأت الحياة تدب فيها ببطء رغم شحوب وجهها، ولكن جسدها كان قد ازداد ضآلة عن ذي قبل،



كيف تحملت هم سنوات سجن أبي والشقاء بمفردها، تنظف وتخبز وتكنس وتخدم الآخرين، فقط لمجرد أن تعيش حياة تخسرها كل لحظة، قال أبي وهو يبتسم ويضع يده الضخمة على جبهتها:

ـ سوف نذهب بك للشمس، أنت تستحقين شمسا جميلة ساطعة.

نظرت إليه في دهشة، كان الحنان يتدفق من عينيه، وكانت هذه الكلمات هي المرة الأولى التي أسمعها منه وأحس فيها بشيء من أبي القديم قالت في صوت ضعيف:

ـ أنا بخير، لا تنشغلوا بي كثيرا.

ولكننا أخذنا نعدو، أنا وسط ممرات ومكاتب المستشفى خلف خطاب التحويل إلى المصحة، وأبي في ردهات المصنع بحثا عن سلفة مالية لعدة أشهر مقدما.

جمعنا ثيابها وأغلقنا البيت، وبدأت رحلتنا نحن الثلاثة نحو المصحة البعيدة، مازال القطار قديما وبلا زجاج على نوافذه، نفس القطار التعيس الذي حملني أنا وأمي ذات مرة في رحلتنا الخائبة إلى السجن، ولكن أبي الآن يسند أمي إلى كتفه، ويحيطها بذراعه ويقول لها أشياء كثيرة عن دفء الشمس الذي سيقتل كل الأمراض ويهزم كل الأعراض، وقف القطار بنا فهبطنا، وصعدنا في قطار آخر ثم هبطنا في طريق غير مسفلت وسط صخور رملية كالحة، وعجزت أمي عن التقاط أنفاسها، حملها أبي فأخذت تبكي وهي تهتف:

ـ لا تتركوني هنا وحدي، سأموت وحدي لو بقيت هنا..



ظهر سور المصحة الأصفر نصف المتهدم وهو يكاد يضيع وسط الصحراء، حوله بيوت متناثرة وجذوع نخل مقصوفة، وتلال من الصبار، هل يمكن أن تعود إليها الحياة في هذا المكان الميت؟ قالت أمي وهي تبكي وتخبئ وجهها في كتف أبى:

ـ أرجعاني إلى بيتي.

وقفنا أمام الباب عاجزين، ونظر إلينا الممرض بلا مبالاة، كان قد تعود على منظر المرضى الذين يتراجعون قبل الخطوة الأخيرة، كنت ما أزال أتعذب بإحساس أنني أهملتها قلت:

ـ سوف أبقى معك يا أمي.

نظرت إليّ في حيرة: كيف؟

ـ سأتصرف، لقد أصبحت كبيرا الآن، يمكنني أن أقيم في إحدى هذه البيوت المتناثرة، أؤجر غرفة أبيت فيها الليل ثم آت وأقضي معك طوال النهار..

كانت الفكرة غريبة، ولكنها كانت الشيء الوحيد المعقول في هذه اللحظة، وتدخل الممرض أخيرا ليقول إن هذا ممكن ويحدث دائما، نظرت أمي إليّ بعينين دامعتين، كانت ممتنة من أجل ذلك، وكنت لا أستحق هذه النظرة، هدأت وأخذ الممرض عدة جنيهات قبل أن يتذكر أن هناك أسرَّة خالية، وكان رفاقها في العنبر نسوة هزالى، نحيفات، يحاولن أيضا التقاط آخر أنفاس الحياة.

بدأت أنا وأمي نقتنص بعضا من حياتها يوما بعد يوم، في كل

صباح أستيقظ وأنا أدعو أن تكون الشمس أكثر سطوعا والهواء أكثر حرارة وأن ترحل السحب التي احببتها بعيدا، كان الرمل الأصفر يجعل كل الأيام خليطا واحدا متشابها، ساعات مفتتة ودقائق تذروها الرياح. كنت أجلس إليها وأتحدث معها منذ الصباح وحتى تغمض عينيها لتنام، تحدثنا معا عن كل شيء، إلا عن فاطمة، أنا الذي تجنبت الحديث لأنني لم أكن لأحتمل ألم ذكراها وحنيني إليها، ولكني رغما عني تركت لها أحلامي تتجلى فيها طوال الليل، وكنت أقوم في صباح كل يوم مثقل القلب، كان وجودي بجانب أمي يعوضني عن ذلك الحنين الجارف وأنا أراها كل يوم تتشبث بأهداب الحياة، بقية رفيقاتها كن يرقدن على الخط الفاصل بين الحياة والموت، مستسلمات تماما، لا يتناولن الدواء إلا خوفا من الممرضات، يدركن أن نهايتهن ستكون في هذا المكان ولا جدوى من أي دواء، لم أكن لأترك أمي أبدا حتى يفترسها الموت وحيدة، مهما امتدت أيام وحدتي في هذا المكان، كنت آوي كل ليلة إلى فراش صغير في حجرة ضيقة استأجرتها عند رجل عجوز أصم، أتناول الخبز والجبن وأنتظر لحظات المتعة الخفية حين أحلم بفاطمة، استعادت أمي قدرتها على الكلام، أخذت تحدثني عن طفولتي، وكان أبي يأتي إلينا في نهاية كل أسبوع محملا بالطعام والفاكهة، صدمة مرض أمي جعلته يعود إلى الحياة ويحاول أن يستعيد طبيعته القديمة، وفي كل مرة يشرق وجه أمي وتتمنى لو أنها عادت معه، كانت هذه الصبية العليلة الجسم السليمة القلب تكن له



نفس مشاعرها القديمة المتوهجة، كنت أريد أن أحدثه عن فاطمة، وأطلب منه أن يذهب لزيارة أبيها، لكني فضلت أن يحدث ذلك وأمي صحيحة حتى نذهب جميعا معا.

أمي مازالت تحدثني عن طفولتي وحركاتي الشقية ونحن نضحك معا ضحكا رائقا، توقفنا عن الكلام والضحك فجأة، كان هناك راديو صغير بجانب سرير إحدى المريضات يتحدث بصوت عال، يذيع أرقاما متتابعة في سرعة، ارتج قلبي بعنف، كنت قد نسيت أن ميعاد نتيجة الثانوية العامة قد حان، وأن هذه الأرقام فيها مصيري، نهضت من جانب أمي وأخذت أراجع أرقام جلوسي في ذهني والسيدة العجوز مستلقية فوق السرير تحدق في السقف، وقفت والأرقام تنساب من الراديو، تقفز من العشرات إلى المئات، ومن المئات إلى الآلاف، نهضت أمي وجلست بجانبي، وبدأ بقية المرضى في الانتباه، التفتت المرأة العجوز نحوي وتأملت وجهي قليلا ثم أشارت لي أن آخذ الراديو لاستمع له جيدا.

جلست بجانب النافذة، وعينا أمي تتابعني، كنت خائفا من أن يسقط رقمي بين فجوات الأرقام التي لم تكن تكف عن التهاوي، جلسن جميعا في أسرَّتهن وركزن نظراتهن عليّ، تيار حي ومتوتر يسري في كل أرجاء العنبر، توقفت الممرضات وهن يحملن أقراص الدواء وصواني الطعام، وبدأت الدائرة تضيق والأرقام تتقارب، ودق قلبي بعنف وأنا أسمع الأرقام التي أحفظها، نطق رقمي أنا، نطقه كاملا، واضحا بالآلاف والعشرات والمئات



والآحاد، نطقه بلا أي لبس، وصرخت بأعلى صوتي:

ـ لقد نجحت، نجحت.

صرخ الجميع، طفرت الدموع من عيني أمي، وزغردت واحدة من الممرضات بصوت واهن وضحكت ممرضة أخرى وضربتني على ظهري، واحمر وجه أمي، ومسحت دموعها وهي تقول:

ـ فلنرجع إلى بيتنا يا على، لقد تم شفائي..

هذه المرة دخلت أمي بيتنا سائرة على قدميها، أنفاسها هادئة وعيونها مشرقة بالفرح، حاضرة معنا ترى كل شيء، فتحت كل النوافذ لتدخل أشعة الشمس، طردت روائح الغرف القديمة، وذكريات المرض والإنهاك، وبقايا الكوابيس، كيف عشنا كل هذه السنين وهذه الرائحة تطبق علينا، كيف استسلمنا لها؟ يقف أبي معتدلا وقد انفرد جسده وعادت بقايا الشحم الأسود إلى يديه، كيف حالك يا أسطى نجيب؟ يرمقنا بحنان بالغ ويضحك ضحكته المجلجلة، أي مفاجأة هذه يا أولاد؟ ضربني على ظهري، ذهب إلى المدرسة، وقرأ النتيجة بل وعرف أيضا أنني حصلت على مجموع عال، بحثت أمي عبثا عن زجاجة «شربات» في أي خزانة، منذ زمن بعيد ونحن لا نحتاج لشيء طعمه مسكر، قلبنا البيت ووضعنا كل الأغطية في النوافذ وكومنا أثاثنا في جانب من الشقة وغسلناها نحن الثلاثة، كنا نحاول أن نمارس فرحتنا بالعمل المتواصل توقفنا قليلا وهتف أبي:

ـ أي كلية تود أن تدخل؟



حدقت فيه مبهورا وأنا ألتقط أنفاسي، كان هذا أكثر مما أتوقع، قلت:

ـ هل يمكن، كنت أعتقد أنني سألتحق بالمصنع؟

نظرت إليّ أمي في استنكار، وصاح أبي في حزم بالغ:

ـ سوف تكمل دراستك بالطبع، هذه هي الأيام الوحيدة التي يمكن للفقراء فيها أن يدخلوا الجامعة، ربما لن يتمكنوا من دخولها بعد ذلك أبدا.

جلست صامتا، تذكرت رحلتي الأخيرة بحثا عن الحياة لأمي، تذكرت فاطمة وتساءلت إن كان ذلك يبعدني أم يقربني منها، تذكرت كل الوجوه المريضة المتألمة المستسلمة وهي تنظر لمسة الرحمة، قلت:

ـ أريد أن أدخل كلية الطب..

صمتا معا، نظر كل منهما للآخر، لم أعرف أن طلبي كان مبالغا فيه وشديدا عليهما، إلا بعد أن خرجت الكلمات من فمي، كان حلما عسير المنال بالنسبة لعامل في مصنع يغطي الشحم يديه طوال اليوم، صفر أبي بفمه مدهوشا وهو يقول:

ـ يا له من مشوار..

ولكن عيني أمي برقتا في إصرار وهي تهتف:

ـ سوف تذهب لهذه الكلية يا علي..

كنا نحن الثلاثة، في لحظة حمقاء من لحظات الفرح الشحيحة، لا نستطيع الكف عن الأحلام، أخذتني أمي من يدي وسحبتني بعيدا إلى غرفتها، وضعت يدها على كتفي وتفرست وجهي، أغرورقت عيناها بالدموع وقد اكتشفت أنني كبرت وتغيرت فجأة، قالت في صوت خافت:

ـ اذهب لترى فاطمة..

جريت يا فاطمة جريت، تقافزت فوق درج السلم وصفائح الزبالة وبرك الماء، كانت هناك قطط حديثة الولادة تموء، وأشجار تزدهر وسحب ترحل، ولم تعد هناك أوحال في الطريق وبدأ الصهريج عاليا، والحارس الأعور جالس يراقب نسوة السوق، وقد نبتت في غصن الصبار الذي يتكئ عليه زهور صغيرة، شممت رائحة المانجو الفواحة، وسمعت الباعة وهم يتصايحون في جذل، وأخذت أجمع الكلمات التي سأقولها فور أن ألقاها، أرتب حروفها وأصوغ العبارات، كان صالون الأسطى عطية مغلقا رغم أن اليوم ليس هو الاثنين، هبطت الدرب، غصت تحت سماء من القش المترب، ماذا أفعل عندما أراك، أجري إليك، أحتضنك أمام أمك وأبيك، أم أكتفي بالقبض على يديك، كيف أستطيع أن أؤجل قبلتي لك؟ انحدرت مع الدروب، ووقفت أمام قاعة النسيج وسمعت وجيب الأنوال في الداخل، العالم مازال على حاله، ولابد أن عم سيد مازال منكفئا على نوله يتساءل في أعماقه عن هذا الذي قرأ معه الفاتحة قبل أن يختفي، هل أدخل إليه؟ كلا، فاطمة أولا، فاطمة



ظهر البيت كما رأيته أول مرة، طينيا، مظلما، واطئا، من هنا تشرق شمس فاطمة دائما، طرقت الباب الخشبي المتداعي والذي كان مفتوحا، ظهرت طفلة صغيرة متسخة الوجه، ثم ظهر أربعة أطفال دفعة واحدة، تراصوا أمامي متسائلين عما أكون، كانوا صغارا كالدجاجات ولم يكونوا أخوة فاطمة، ظهرت امرأة ترتدي السواد، ولم تكن هي أيضا أم فاطمة، تطلعنا جميعا إلى بعضنا في حيرة، قالت:

ـ هل تبحث عن أحد؟

قلت: فاطمة..

ـ فاطمة من؟

بدأ الخوف يتسلل إلى قلبي كريح باردة، قلت مترددا ومتوجسا:

ـ هذا بيتها..

لم أكن متأكدا من شيء، ظللت حائرا أنظر إلى وجهها الشاحب، بدا عليها لمحة ضئيلة من التذكر وهي تقول:

ـ آه، أكبر البنات، لقد رحلت، رحلوا جميعا، تعيش أنت، مات أبوهم عم سيد وكان يجب أن يتركوا هذا البيت لأنه ملك صاحب قاعة النسيج..

هل كان يجب أن أتوقع هذا، أن أستعد لهذه اللحظة، البيت كما هو، الرطوبة، والسناج، لكنها ليست موجودة، العالم كما هو، الطين والقش ولكنها وحدها هي التي تبددت، استندت على الجدار،



جلست خائرا على عتبة الباب، أصاب الفزع المرأة فهرعت إلى الداخل وأحضرت قلة من الفخار، كان حلقي جافا ولكني لم أقدر على رفعها لفمي قالت لي في إشفاق:

ـ هل أنت قريبهم، لابد وأنك تعرف مكانهم، لقد أخذت الأم الأطفال وعادت إلى بلدتها في الفلاحين.

كيف يتحلل كل شيء في هذا الوقت القصير؟ يموت هذا العملاق العجوز النحيف، ثم يتقوض العالم كله دون أن أستطيع الإمساك بأي شيء، استجمعت صوتي وسألتها:

ـ ألا تعرفين اسم بلدتها هذه؟

ـ اسأل في قاعة الأنوال يا ضنايا..

نهضت مترنحا، ومصمصت الأم بشفتيها في إشفاق، جمعت أطفالها وعادت إلى الداخل، كان الدرب خانقا، وأطراف القش جارحة، والقاعة رطبة، وخيوط الحرير تلمع كأنها تسفح دموعا لا تجف، الصنايعية والعجائز منكفئون يقذفون المكوك في صمت وينتظرون الموت في استسلام، يجلس على «نول» عم سيد صنايعي آخر عجوز، لايرتدي هو أيضا سوى ثيابه الداخلية أيضا، سألتهم عن عم سيد، وعن فاطمة فتوقفوا جميعا إلا هو، ظل يواصل قذف المكوك، خرجوا من خلف الأنوال وجلسوا حولي قالوا:

ـ سبقنا، وسوف نلحق به..

وتذكروا فاطمة فقالوا:



ـ انحرمنا منها، كانت تدخل علينا لترى أباها فتدخل معها الشمس إلى هذه القاعة الرطبة..

سألتهم عن البلدة التي رحلوا إليها فاحتاروا، كانوا قد سمعوا الاسم ولم يحفظوه، ذكر كل واحد منهم اسم قرية قريبة من المدينة، ولكن ذاكرتهم العجوز المجهدة لم تكن متأكدة من شيء، قلت لهم إنني سأبحث عنها في كل هذه القرى، هزوا رءوسهم وقالوا:

ـ فاطمة تستحق..

وعادوا للجلوس خلف الأنوال، يدوسون بأقدامهم على البدالات الخشبية ويواصلون قذف المكوك، هل ضاعت فاطمة حقا؟ خرجت من الدرب، ورأيت دكان الحلاق الموصد، هل أنتظر للغد لعلها تركت رسالة لي، وإذا لم تكن ثمة رسالة، إذا لم يكن هناك شيء مؤكد، ما مصير الفاتحة التي ربطتنا معا يا فاطمة؟ عدت إلى البيت ورأت أمي علامات الحزن على وجهي فانقبض وجهها ولم تجرؤ على الحديث معي، كما توقعت، كانت لحظات الفرح بالغة الندرة.

في اليوم التالي صرخت في الأسطى عطية الحلاق: لماذا لم تسألها عن بلدتها؟ فصرخ فيَّ: ولماذا لم تسألها أنت؟ وطرقع المقص في غضب، وانتهت صداقتنا، بدأت لحظات بحثي اللاهث عنك يا فاطمة، دخلت في مسارب عوالمك الغريبة، ترع ورياح وجسور متهالكة، مدقات ترابية وطرق متعرجة كخطوط اليد، حيث لا خط يقرأ ولا مصير يعرف، أسماء مشوشة متداخلة وبيوت



من طين ووجوه مدبوغة، تحاصرني بالأسئلة دون إجابة ودون أن تفهم ماذا أريد، ترشدني إلى كل مكان إلا إليك، أستمع كل وصفة، وأسعى وراء كل إشارة، قضيت ساعات طويلة محشورا في سيارة فيها عشرون راكبا على الأقل أجلس على ركبتي واحد منهم، وآخر يجلس على ركبتي، لا أكاد أتنفس من الضغط وقلة الهواء وكثافة رائحة العرق، لا أحد في السيارة أيضا كان قادرا على التنفس، تتحرك في وهن وتقف في كل منعطف ويهبط السائق إلى الترعة المجاورة ويملأ الدلو بالماء ويسقي السيارة فتعاود السير، في القرية الأولى أعطوني إجابات غامضة حافلة بالشك واليقين، سرت معهم عبر أرض مغطاة بالسباخ، على حافة القنوات الصغيرة إلى مواقع الأكواخ المنبوذة خارج البلدة، رأيت نسوة وأطفالا جائعين، ولم تكن بينهم فاطمة، وعندما رءوا علامات الحزن والقهر على وجهي، قالوا هل أنت يتيم؟ هل تبحث عن أهلك؟ قادوني إلى أماكن أخرى وأناس آخرين متشابهي الأسماء، كانت الطرق طويلة يا فاطمة، والكلاب جائعة وبالغة الشراسة تنكر الغريب ولا تعطيه فرصة ليسترد أنفاسه، من بيت لبيت سألت عنك، أحيانا كنت أقول إني قريب يبحث عن أقاربه، وأحيانا يضعفني الحنين إليك فأقول إني عاشق يبحث عن معشوقته، ساعتها كانت شفقتهم تزداد وحماسهم يزيد فيأخذونني إلى فاطمة أخرى، في البلدة الثانية، أكد لي شيخ الخفر أن من ذهب إلى البندر لا يعود إلى بلاد الفلاحين حتى ولو شحذ في الطريق، ونصحني أن أبحث داخل مدينتي، ورغم ذلك قادني إلى منزل عمال الترحيلة والغرابة، لم أر مثل هذه الدرجة من





الجوع والبؤس.

أجلسوني واستمعوا إليّ وعرضوا عليّ أن أشاركهم في خبزهم الحاف وشايهم الثقيل، طفت طويلا يا فاطمة حتى انتفخت قدماي، أزحت الريم الأخضر من على سطح ماء الترعة ووضعتهما فيه حتى يهدأ ما فيهما من ألم، رفعت رأسي فرأيت السحب متنائية والغربان تحوم بالقرب مني في دوائر متصلة كأنها ترقب سقوطي منهكا، ركبت الحمير حتى تسلخ فخذاي إلى البلدة الثالثة، ذهبت دون سؤال إلى مضارب الغجر على ضفة النهر الواسع، وحدهم يعرفون المستخبي والمجهول وسكة الذي ذهب بلا عودة، كنت متلهفا على التشبث بأي شيء، أجلستني امرأة ذات عصبة حمراء أمامها، وفردت كفي وتابعت بأصبعها خطوط يدي الممتلئة بالتراب وقالت: ما أمرّ العشق عليك وأنت في هذا العمر الصغير، قلت لها: هي التي فعلت بي ذلك، تعمدت ألا أعرف أخبارها، هل كانت غاضبة مني إلى هذه الدرجة؟ قالت: ما أمرّ العشق على من فقد وليفه وانكسرت روحه، تركت كفي ولم تأخذ مني قرشا، سرت وحيدا، وفاطمة لا تني تلوح لي، تتشكل من أشعة الضوء وذرات التراب وبخار الماء وحفيف الهواء، تقترب حتى يخيل إليّ أني سأمد يدي فأتشبث بكفيها، وتبتعد حتى يكل بصري عن متابعتها، تراكمت في عروق دمي مفردات سعيي الخائب، بيوت الطين والنخيل ومخاضات المصارف وأكوام السباخ، أي عزاء بالغ القسوة يحمله قلبي، عدت إلى المدينة خائبا، سألت حارس السيارات العجوز عن مصطفى فلم يعرف عنه شيئا، يأتي دون ميعاد



ويغيب دون حساب للوقت، تذكرت كلمة شيخ الخفر أن الذين يقيمون في المدينة لا يغادرونه، فبدأت أبحث في المدينة، ربما تعملين يا فاطمة أو ربما تعمل أمك؟

أخذت أراقب بنات المصانع، وأنتظر عند بوابات محالج القطن، تحرش بي صغار الأسطوات وأشارت لي البنات الناهدات الصدور ذوات العيون الجريئة أن أتبعهن إلى خلف رصات القطن، تعثرت بي السبل إليك يا فاطمة، وكان من العسير أن أنساك، وكنت توّاقا للمسة من أصابعك تنقذني في اللحظات الأخيرة قبل أن يبلغ بي الإنهاك حافة الجنون.

وكان أبي غاضبا وهو يلقي المظروف الأصفر أمامي، صاح بي:

ـ لم أكن أعتقد أنك ضعيف لهذه الدرجة، توشك أن تضيع نفسك ومستقبلك.

أمسكت المظروف، كان في داخله استمارات مكتب التنسيق كان يجب أن أملأ البيانات الموجودة بها في وقت محدد حتى يتم ترشيحي للجامعة، فتحتها بأصابع مرتعدة، قال أبي:

ـ لقد أخذت إجازة يوما كاملا من المصنع كي أذهب لإحضارها مادمت أنت قد نسيت، هل عندك وقت حتى تملأ البيانات وتكتب رغبات الالتحاق أم غضضت النظر عن كل شيء؟

أحسست بالخجل ولم أتصور أن يبلغ بي إحساس الضياع لهذا المدى، تركني أبي، وفتحت الاستمارات وأنا أحس بالحزن يعتصر قلبي، كنت أود أن أشاركها في اختيار رغباتي، كتبت البيانات ونمت



مفتوح العينين وأكدت لنفسي أنها ستظهر، عندما تشتد حاجتي إليها سوف تظهر، وحتى ذلك الحين فيجب أن أتصرف مثل أي إنسان لا يوجد في حياته.. فاطمة.

وقفت في صف أمام شباك التنسيق، حشد طويل من الطلبة قلوبهم مفعمة بالأمل والخوف، الصف الذي أقف فيه كان قصيرا نسبيا يتحرك دون مشاكل، الصفوف الأخرى ذات المجموع الأقل كانت بالغة الطول والتزاحم، يتأملوننا في غيظ ويحاولون افتعال الشجار معنا ويعيدون تغيير خانات الرغبات وهم يلهثون، وصلت إلى الشباك ومددت يدي بالأوراق تأملها الموظف وراجع البيانات وهو يؤشر عليها بالقلم الأحمر ثم هتف بي فجأة ساخرا:

ـ ما هذا، رغبتك الأولى فاطمة، لا توجد كلية اسمها فاطمة..

وانفجر في الضحك، انفجر كل الموظفين خلف كل النوافذ بالضحك، كنت أعاني من خجل شديد فأخذت أضحك أنا أيضا كأنني أبكي، كيف خانتني يداي، وخانتني عيناي، وخانني عقلي وكشف عن مدى حنيني إليك، شطب الموظف اسم فاطمة، وليته ما فعل، وكتب اسم كلية الطب بدلا منها، وانصرفت، لم يعد أمامي إلا الانتظار.

أشرق وجه أمي حين اشترت لي «بالطو» نص عمر، غسلته جيدا، حتى بدا نظيفا ناصع البياض، ولم أجد بدًّا فصالحت الأسطى عطية، وحلق لي شعري وعطرني بالكولونيا، كان مثلي يعاني من نفس درجة الافتقاد، هذه البنت الغريبة تترك خلفها دائما مشاعر من



الأسى في كل مكان تذهب إليه.

كنت أرتعد وأنا أخطو خطواتي الأولى داخل مبنى الكلية الأبيض، بلون المعطف الذي غسلته أمي، رأيت انعكاس شكلي في زجاج الأبواب وفي رخام الأرضية، قلبي كان يدق وأنا أتلفت حولي محاولا أن أستكشف طريقي وسط الطرقات الطويلة المتداخلة، والفناء الواسع والطلبة المتناثرين في تكاسل والنافورة المتفجرة بالمياه، عرفت كل الطلبة الجدد مثلي، تجذبنا جميعا دون تعارف أطراف الحديث، وقفنا ننقل أسماء المواد الغامضة الموجودة في الجداول، كنا نرتدي ثيابا زاهية الألوان، ونحمل كشاكيل عليها صور ملونة، وأقلام جاف باهتة الزرقة، رمقنا الطلبة الأكبر منّا سنّا بإهمال، كانوا يضعون المعاطف البيضاء على أكتافهم ويتحدثون إلى البنات الناضجات، ويشيرون إلينا في امتعاض، ثم بدأنا نعدو جميعا في كل الممرات وعبر كل الأقسام، عند معمل «الكيمياء الحيوية» حاصرتنا الروائح النفاذة، مررنا بأصابعنا على الأنابيب الزجاجية الملتوية في انبهار، ورفعنا الكئوس المخروطية إلى أعلى لنرى كيف تتحلل ألوان قوس قزح من خلالها، وفارت كل الأنابيب ليخرج منها دخان ملون جميل وباعث على السعال، في معمل «الفسيولوجي» تلطخت أطراف أصابعنا بالسناج، أمسكنا الأسطوانات النحاسية رأينا الخطوط الواهنة التي ترسم نبض قلوب الضفادع الصغيرة وهي تواصل الوجيب وحدها حتى بعد أن فقد جسد الضفدعة الحياة، قذفنا بعضنا البعض بأطراف الضفادع الجافة، وابتعدنا عن الديدان المبقورة البطن، فردنا



الأوراق وتظاهرنا بقراءة المنحنيات التي ترسم مسارات الحياة والموت، نظرنا من خلال عدسات الميكروسكوب إلى شرائح الأنسجة الملونة بالأحمر والأزرق، كانت تشبه جبالا حمراء راقدة تحت شمس قوية لا تغيب، ومحيطات عميقة الزرقة مليئة بالغموض، أمسكنا أنفاسنا ونحن نقف في متحف التشريح أمام المكعبات الزجاجية، في داخلها تسبح أعضاء من الجسم، واضحة العضلات، زاهية ولامعة ولكنها ميتة مقطوعة ومنتزعة وسابحة في سائل «الفورمالين» الذي يحفظها من التحلل، في رف آخر تتراص تسعة من المكعبات المتجاورة في كل واحد منها جنين في مرحلة من مراحل العمر من الشهر الأول، حتى الشهر التاسع، في كل مكان من حولنا توجد أجزاء من الجسم البشري، ميتة كأنها حية، مفردات العالم الذي نوشك على الولوج إليه، أجهزة الضغط، السماعات، المطارق، المباضع، المحاقن، أنابيب البلاستك الرفيعة، أدوات معدنية أطرافها حادة وباردة، لا تفرق بين جسد وآخر، ونحن لا نكف عن اللهاث، بنات وصبيان، ننظر لبعضنا ونضحك قليلا، نداري كل أمارات الرعب والانبهار، نرتاح قليلا ثم نعاود الانطلاق، اكتشفنا بعد فترة أننا نسير في دوائر متقاطعة، كل دائرة منها تنتهي أمام باب المشرحة، ونحن نسير مكتومي الأنفاس وسط الرائحة النفاذة، أمام الجثث البالغة الشحوب والمسجاة في استسلام فوق المناضد، كلها سليمة، متماسكة الإيهاب مكتملة الأعضاء ننتظر أول مبضع ينقض عليها، تصرخ البنات، وتغادرنا نوبة الشجاعة العابرة، ولكن لون الموت البارد يأسرنا جميعا، واللون الرمادي



يتسلل من النوافذ، اللون المناسب لكل الكوابيس والمخاوف، كان الموت يدق بأصابعه على قلوبنا الصغيرة.

ولكن اليوم الأول من أيام الدراسة لم يكن قد بدأ بعد، اكتشفنا أن هناك لافتات من الورق تدعو كل الطلبة الجدد للاجتماع في القاعة الرئيسية، أسهم ملونة تشير إلى الاتجاه الصحيح للقاعة، وبدأ اندفاعنا الأخير، كنا قد ألفنا كل الأقسام والطرقات والسلالم ولم نعد نهاب شيئا، دخلنا باب القاعة، كانت واسعة وخالية تماما، لا يوجد فيها مدرجات ولا مقاعد، تحيط بها النوافذ من أعلى وترسل إليها أشعة ضوء الشمس، تلفتنا حولنا في حيرة، لا يوجد من يستقبلنا، أو يشرح لنا غرض الاجتماع، استندنا جميعا إلى الجدران وبدأنا نتأمل بعضنا للمرة الأولى، كنا متشابهين إلى حد ما، وجوهنا منفعلة وأنفاسنا لاهثة وسنوات أعمارنا قليلة، ولكن ثيابنا كانت مختلفة، كلها زاهية الألوان ونظيفة ولكنها مختلفة، تكشف حقيقة كل منا، من أين جاء؟ وكيف يعيش وإلى أين ينتمي؟ لم نكن خليطا واحدا كما كنا نعتقد في أول الأمر، بدأنا نتحرك في صورة عشوائية، نغير الأماكن والرفاق، نغض من نظرات العيون، ترتيب جديد، من يحدث من؟ ومن يفهم من؟ الثياب، الثياب فقط حددت كل شيء منذ اللحظة الأولى في السنة الأولى.

انفتحت كل النوافذ التي في أعلى القاعة، وأطل منها جميع الطلبة الكبار الذين كانوا يرمقوننا بلا اهتمام، يتفحصوننا الآن كأننا حيوانات تجارب، يحدقون فينا بصمت بارد مريب، ونحن نبادلهم



النظرات ونتحرك تحتهم في قلق، استطالت فترة الصمت وبدأنا نحن في التراجع ببطء نحو باب القاعة، وقطع الصمت صوت أحدهم وهو يشير إلى النافذة المقابلة صائحًا:

ـ هيا يا «كوتش» ابدأ الاحتفال السنوي..

استدرنا ببلاهة، ونظرنا إلى النافذة الأخرى وإلى «الكوتش»، كان طالبا ضخما، وجهه أسمر مستدير وملامحه غليظة، كان أكبر سنا من أن يكون طالبا، تدلى بجسده الضخم وهو يصيح بصوت جهوري:

ـ مرحبا بكم يا طلاب الثانوي في كلية الطب.

ورفع يده عاليًا، وبحركة سريعة قذفنا بشيء كان في يده، تراجعنا ونحن نصرخ، لكن الشيء هوى على فتاة كانت معنا، كانت أنظف فتاة وأشدهن أناقة، تلطخ فستانها بلون الطماطم الفاسدة، اختارها الوغد بعناية، صرخت الفتاة في فزع، صحنا جميعا بكلمات السباب والتهديد، ولكن ضحكاتهم تعالت في صخب، انهالت علينا القذائف، طماطم وبيض فاسد وأعواد ملوخية وحشائش وأغصان نباتات متسلقة وأكياس ماء، جرينا نحو الباب فاكتشفنا أنه مغلق من الخارج.

كنا وسط مصيدة محكمة دون أي حماية، تخبطنا ووضعنا أيدينا على رءوسنا، حاولنا عبثا أن نبحث عن ركن لا تطوله القذائف، كنا مكشوفين تمامًا، وكانوا قد استعدوا جيدا بكميات كبيرة منها.

كانت الفتاة التي أصيبت أولا تبكي في فزع، جلست على



الأرض واستندت إلى الجدار واستسلمت لكل ما يهبط على رأسها وجسدها، منهارة مثيرة للشفقة، تقدمت منها ووقفت أمامها، ملت برأسي على الجدار حتى أحميها، كونت من جسدي مظلة تكمن تحتها، ويبدو أن هذا قد أثار غضبهم أكثر وأكثر، أحسست بقذائفهم وهي تنهال عليّ وترتطم بجسدي بعنف، كنت أتألم، ولكني تمسكت بالجدار وخفضت رأسي إلى أسفل،رفعت الفتاة وجهها إليّ، مسحت دموعها وهي تحاول التماسك، أرادت أن تنهض فمنعتها وتواصلت القذائف.

وأخيرًا توقفوا بعد أن استنفدوا كل شيء، وبعد أن أصبحت على وشك الانهيار من فرط الألم، ظلوا يضحكون ويهنئون بعضهم البعض، ورفعت ذراعي، ونهضت الفتاة ببطء وظللنا واقفين تحتهم، ملطخي الثياب، ملوثين، وفرد «الكوتش» ذراعيه،ابتسم لنا جميعا وهو يصيح بصوت عالٍ:

ـ انتهت حفلة التدشين، مرحبا بكم طلبة حقيقيين في كلية الطب.

وأغلقوا النوافذ، مرّ بعض الوقت قبل أن نسمع صوت رتاج الباب من الخارج وهو ينزاح، فتحنا الباب وخرجنا ببطء، منكسي الرءوس، يغمرنا خجل الهزيمة العميق، سرت بجانب الفتاة، كنا متشابهين تماما، ثيابي وثيابها وملامحنا مغطاة ببقايا الطماطم والبيض، عبرنا الطرقات الرخامية النظيفة وتحاشينا نظرات الجميع، جلسنا جميعًا في مكان واحد في ركن ناء من أركان الفناء، تأملنا بعضنا، تأملت الفتاة وتأملتني، كان منظرنا مزريا، مليئا بالحمق،



وبدأنا نضحك، ضحكنا في صوت واحد ونحن نشير إلى بعضنا البعض، ضحكنا في صخب وبدأ الطلاب الكبار في الظهور، كانوا يعرفون كيف سيتطور رد الفعل من الغضب المباشر إلى الإحساس بالسخرية، وقفوا حولنا، وأخذوا يضحكون جميعًا، واحمر وجه الفتاة بشدة، وبدأنا يومنا الدراسي الأول في الكلية..

كان اسمها «سلوى»، تأتي إلى الكلية بسيارة بيضاء مزينة بزهور ملتصقة على بابها، تركنها في ركن من الفناء لا تغيره أبدا، كأنه كان محجوزا باسمها قبل أن تدخل إلى الكلية، لم نتكلم أنا وهي كثيرا بعد هذا اليوم الأول، عندما أعيد تنظيف الثياب تباعدت الطرق، نظفت ثيابي وأعدت لبسها ولكني لا أعتقد أنها قد أعادت ارتداء ثوبها مرة أخرى، ولا تريد أيضا أن تتذكر تفاصيل هذا اليوم، اقتصر الكلام بيننا على تحية الصباح العابرة، وكان النهر الذي يمر أمام الكلية أخضر اللون مليئًا بالطحالب الميتة والموجات المرتعدة، وورد النيل ينتشر فوق صفحته يريد أن يخفي شيئًا، ولابد أن هذا قد أزعج النوارس التي ظلت تحلق فوق النهر دون أن تجد لها مستقرا، ترى أن يستقر بك المقام يا فاطمة؟

كانت مشكلتنا نحن الثلاثة مع حلمنا العسير المنال - كلية الطب - يزداد يومًا بعد يوم، جنيهات أبي الملوثة بالشحم، وميزانية بيتنا الهشة تذوب من بين أيدينا منذ الأيام الأولى،الكتب السميكة خلف الواجهات الزجاجية تواجهني كل يوم، أغلفة لامعة، حروف لاتينية تكاد تبرز خارجة، صفحات مصقولة عليها تفاصيل الجسد

البشري بكل ما فيها من بهاء، لكن أسعارها المرعبة تتحداني، تخنقني كل يوم، من المخجل أن أقف أمامها عاجزًا، لا أستطيع أن أمد يدي إليها، وفي المدرج الكبير عندما حان موعد المحاضرة الأولى حدق الأستاذ فينا بامتعاض وهو يهتف:

ـ يا له من زحام، زمان كان الأطباء في هذا البلد هم الكهنة، وكانوا مقدسين، كيف تكاثر الكهنة إلى هذا الحد وفقدوا قدسيتهم أيضا؟

كنا كهنة فقراء، تعساء، نعيش في الحارات الخلفية، والشقق الضيقة، وندفع أقساط السلف الشهرية، ونعقد «جميعات» مع فقراء مثلنا، نتداول فيها جنيهاتنا القليلة، حل مؤقت للاختناقات، ولكننا نظل بعد ذلك نختنق تحت وطأتها، قال أبي:

ـ لا تحمل هم المصاريف والكتب، سوف أتصرف، وضعنا الآن أفضل..

كنت أعرف أن الأمر فوق طاقته، قلت له مشفقا:

ـ المشوار طويل يا أبي.

ـ ولكني أنظر إلى نفسك، من ذا يصدق أن ابن عامل بسيط مثلي يدخل كلية الطب، إنه حلم يا علي وعبد الناصر هو الذي أعطانا الطاقة على هذا الحلم..

نظرت إليه مدهوشًا، لم أتصور أن يتحدث عن عبد الناصر هكذا، رأى نظرتي فهتف:

ـ ماذا تظنني، لا أستطيع أن أراجع نفسي، أنني لم أفهم عبد الناصر



في البداية، كنت مخطئًا، لقد فعل الآن أكثر مما كنت أتوقع.

هل تخلص أبي بالفعل من كوابيسه، أم أنه سامح عبد الناصر لمجرد أنني ظفرت بفرصتي في كلية الطب، كان أبي قد عاد إلى فراشه بجوار أمي، وخفف ذلك كثيرًا من مرضها، وكان عليّ ألا أبدد طاقتي في التشكي، بدأت بحثي الدءوب عن الكتب القديمة، لم تكن مصقولة، وبدون أغلفة ولكنها صالحة كحد أدنى، وكان عليّ أن أتابع بدقة كل ما يقال في المحاضرات حتى أعدل أي تغيير في هذه الكتب القديمة، خجلت من أن تظهر معي هذه الكتب في الكلية فخبأتها في البيت وظلت مكتبة الكلية تمثل لي نوعًا من الإنقاذ الأخير..

وبدأت أول دروس المشرحة، وفتحنا بطن أولى الجثث، كان الموت قد أعطى الجثث عمرًا أكثر من عمرها، وسائل «الفورمالين» جعلها بالغة الشحوب، مستسلمة، مرتخية العضلات، متأهبة لأي مصير يراد بها، كانت لأناس عجائز، ثلاثة رجال وامرأة وحيدة وشاب بساق واحدة، ماتوا في المستشفى وبقوا في المشرحة دون أن يسأل عنهم أحد، أو يطالب أحد بتسلمهم، أصبحوا مشاعًا لمباضعنا الحادة ونزواتنا الصغيرة، بدأنا نزيل جلودها المشدودة المليئة بالبثور الصغيرة وبويصلات الشعر المقصوف، كنا نبحث عما تحتها من عضلات وأعصاب وشرايين وأوردة وأن نعرف من أين تنبع وأين تصب، كان مرور المبضع يصدر صوتًا خشنًا يطغى على كل همهماتنا المذعورة، أكتافنا تتلاصق، صبيانا وبنات،

المكان الوحيد الذي كانت البنات يسمحن لنا فيه بملامستهن، كان عبق الموت المتصاعد من الجثث المسجاة يجعلهن بحاجة إلى أي نوع من الملامسة الحية، إلى الإحساس بحرارة الآخر، كنا نؤكد لأنفسنا أن برودة الموت بعيدة عنا، مسجاة فوق المنضدة، وأنها ليست معدية، لم يكن الجسد يكشف نفسه بسهولة أمامنا، هناك المادة الدهنية التي تغلف كل شيء تحاول إخفاء سرّ الحياة أو تحافظ عليها من أن تتسرب خارجة من الخلايا، ثم تبدو العضلات في تناسقها الغريب وهي متجاورة أو متقاطعة بأليافها البنية، تلتصق بما يجاورها من عظام، لتقوم كل واحدة منها بأداء حركة محددة، وتحتضن كل ما يمر بها من أعصاب وشرايين، كنا نترك المباضع بعيدا نغوص بأصابعنا بحثا عن كل التفاصيل، يجب أن نتأكد من تطابق الجثة مع كل وصف من الأوصاف اللاتينية المتعثرة في الكتاب، ولم يكن مسموحا لأي جثة أن تكون غير عادية وأن تختلف عن الكتاب، ولكن الصور في الكتاب كانت دائمًا أجمل من الحقيقة، الشرايين زاهية الزرقة والأوردة وافرة الحمرة، ولكنها تظهر في الجثث مثل أنابيب مجوفة باهتة اللون، فاقدة الوظيفة، سلبها الموت أي لمحة من الجمال، الموت قبيح مهما حاولنا مداراته، قاس وعنيف، يسلب أي بهجة، كل الخطوط في الجثث بخلاف الكتاب، تنحني وتميل وتستكين ولا تبدي أي مقاومة، ثم بدأنا نتعود عليها، وعلى رائحتها الثقيلة، ومن الغريب أن يصبح العبث مع الجثث جزءا من برنامجنا اليومي، نبحث فيها عن أشياء نعتقد أننا لن نجدها في الجثث الأخرى، بدأنا نأخذ «السندوتشات»



الصغيرة ونأكلها ونحن نتلكأ بجوار المنضدة لنرى شرايين لم نرها من قبل، تعودنا على ازدراد المصطلحات اللاتينية مع كل قضمة، تسلل شحوب الموت وبرودته إلى داخلنا مختلطا برائحة الفول المتبل، تعودنا أن نستخدم مفردات أسماء الجثة في لغتنا السرية مع البنات، كنا نتحدث عن أعضاء الجثث الجنسية المتيبسة وما يبدو عليها من كل إمكانيات بلغة متوارية، واستعمال أدق المصطلحات اللاتينية واستخدام أكثر التشبيهات شاعرية، وعندما يفهمن ماذا نقصد تعلو وجوههن حمرة الخجل، ورغم ذلك يواصلن المناقشة العلمية حتى نهايتها، تعودنا أن نقطف الزهور الصغيرة المتألقة من حديقة الكلية حول النافورة وأن نضعها في كل فتحات الجثة، زهور بيضاء لكل فتحة من فتحتي الأذن، زهرة صفراء لفتحتي الأنف، وزهرة حمراء للفم، ثم لم ندر من فعلها بالضبط، من الذي أخذ زهرة الفم الحمراء ووضعها في فتحة عضو الجثة، كان منتصبا إلى أعلى وبدت الزهرة متوهجة أكثر من العادة، ابتعدت البنات تمامًا عن المنضدة ولكن أحدا لم يجرؤ على نزع الزهرة، ظلت في مكانها حتى ذبلت تمامًا، لكننا لم نتعود على منظر القلب، كان ذلك يفوق أي إحساس بالتعود، عندما تم فتح القفص الصدري، بدا القلب ورديًا باهتًا، كأنما فقد حياته في التو، مازال متماسكًا بفتحات الشرايين ونهايات الأوردة، بدايات الحياة وأطراف الموت، يحيط به نوع غريب من الجلال المهيب، لم تبد على عضلاته أنها تأثرت إلا قليلًا بالموت وبصبغة «الفورمالين»، ظل فيه بريق خاص يشع من خلال أنسجته، وظل على درجة من التماسك، حتى خيّل



إلينا أنه على وشك أن يخفق من جديد عندما غرسنا المبضع في عضلاته الرقيقة.

ببطء شديد، بعدد الأيام والشهور وفصول كتاب التشريح، كانت الجثة تتفكك بين أيدينا، فقدت جلدها ثم بدأت تفقد أعضاءها، كل عضو ينفصل ويبقى وحده على حدة، ثم فقدت العضلات التصاقها الحميم بالعظام التي تجاورها، تهدلت بقايا الجثة وزال تماسكها المحكم، استسلام مروع مثير للأسى والرهبة، كان نتيجة طبيعية لهجومنا اليومي المكثف، للوهج الذي أشاعته فينا مقاومتنا لتسلط فكرة الموت، لبدء تفتح زهور الحب بين الأولاد والبنات، وسط الرائحة النفاذة، تحت الضوء الشاحب،أمام الأعضاء المبتورة، بكل التعبيرات اللاتينية المعقدة،وبواسطة أبيات الشعر الركيكة المحفورة على عظام الساق المسطحة الطويلة، احتقرنا كل أنواع الضفادع التي كان علينا أن نستخرج قلوبها الحية،لم نبال بتعادل السوائل في السحاحات، وتركنا شرائح الأنسجة الملونة، وهرعنا إلى المستشفى كي نتأكد أن الموت ليس هو القانون، ووضعنا السماعات على آذاننا وأخذنا نسمع أصوات القلوب التي لا تزال تنبض «لب، دب، لب، دب، لب، دب..» إلى الأبد وبلا نهاية للحياة ولا حد للوجود..

كنا نفيق أحيانًا ونحن في غمرة دروس التشريح على صوت آذان الشيخ «مؤمن» وهو يصرخ بأعلى حنجرته يدعونا للصلاة في جامع الكلية، كان زميلا لنا ولكن لحيته تعطيه دائما سنا أكبر من سنه،



كان يصر على الآذان في كل وقت من أوقات الصلاة حتى ولو كان ذلك في وسط المحاضرة، وقد سبب له هذا الكثير من المتاعب، فأصبح مكانه المفضل دائما على باب المشرحة، يسلط علينا عينيه النفاذتين فنخاف منهما ونتبعه، ثم أصبح نصفنا يخافه والنصف الآخر يتجاهله، لم أره يضحك، أحاطت اللحية وجهه بقناع أخفى كل مشاعره الحقيقية ولم يعد قادرًا على القيام بأي نزوة صغيرة.

تعودنا على منظر «الكوتش» ولم نعد نخاف منه كثيرا، لم نعرف اسمه الحقيقي، ولكنه كان موجودًا باستمرار بجسده الضخم وملامحه الغليظة وصوته العالي وهو يتضاحك مع الجميع، صاخبًا، غير مبال، فيه بعض من الشراسة، لا تعرف في أي عام دراسي هو، لا أحد يعرف، ولكنه كان متداخلًا في كل شيء في الكلية، يعرف الأساتذة كلهم بدءًا من العميد، وحتى صغار الفراشين وماسحي الأرضية، منذ أن أنشئت الكلية وهو فيها كما كان يقول دائمًا، داوم على الرسوب كثيرا وعلى النجاح قليلا واكتسب غموضا غريبا وبعضا من السوقية والقليل من الرهبة.

ما كان يمكن أن أحدثه عن كل هذه الأشياء غير فاطمة؟

لم أنسها لحظة واحدة، في كل شارع كنت أرى فتاة تشبهها، وكان هذا باعثا على الجنون يا فاطمة، أن تشبهك كل البنات وأن لا أجد مثلك بينهن، كان الشتاء باردًا والحقول ترتعد حين قررت أن أزور مقبرة السيارات، حاولت أن أسأل الحارس العجوز فلم يعرف عما أتحدث، أعطيته نقودًا فتركني أدخل، وجدت الآلة



السوداء رابضة في مكانها، فقدت لمعتها وحيويتها وبدا عليها وهن الانتظار، ولكن كانت هناك لمسة إضافية، شيء ما جديد، ربما عجلة القيادة، ربما هذه الأبواب التي وضعت بشكل مائل، أو السقف الذي تحرك، المقاعد التي أضيفت، صرخت في الحارس أسأله متى حضر الشخص الذي يعمل عليها؟ أين ذهب؟ متى سيعود؟ لم يكن يعرف أي إجابة، كان في مصطفى شيء منك يافاطمة، يذهب ويجيء، يظهر ويختفي دون موعد، ولكن سيارته رغما عن كل شيء تكتسب بعضًا من ملامح الحياة، كانت في حاجة للوقت حتى تتماسك ولأصابع مصطفى لتكتمل، ولبعض من روحه حتى تنطلق، كنت واثقًا أنه موجود في مكان ما بالقرب مني، وأنه سوف يدلني عليك يا فاطمة، ولكنه كان فقط يزيد من عذاباتي.

وفي المساء أجلس للمذاكرة وقلبي مثقل بالحزن والحنين، بدا واضحًا أن انتظاري سوف يطول هذه المرة، نحيت الكتب القديمة، والمحاضرات الجافة، وبدأت أحاول تجسيد ملامحك الغائبة من خلال الحروف، على الأقل كنت أمتلك الحروف، شذرات النجوم الغريبة التي رأيتها في عينيك ذات مرة فأضاءت روحي، كنت أحاول أن أفجر من خلال السطور ضوءًا فيه نفس هذا التألق، بدأت أحفر على الورق كل دروبي بحثًا عنك، كل ضياعي وتوهاني، كان ذهني محتشدًا الكلمات، كلمات تشبهك ولكنها ليست أنت، كنت أريد كلمات تخصك لا أن تشبهك فقط، أخذت أبحث عن ثقب ما في عقلي الخفي، في مكمن ذكرياتي وحزن افتقادي لك، كنت في حاجة



إلى إحساسي للمسة منك، رؤيتي لإشراقة من ابتسامتك، بقبلة فيها بعثي، كلمات هي أنت، هي السحب التي تهبط طائعة إليك، العصافير التي تقف على كتفك، القطط التي تنام آمنة بين ذراعيك، والشجرة التي حفر عليها اسمك، أواصل الكتابة وأنا لا أكف عن استحضارك، كما أنت وكما ستكونين حين ألقاك، أنبش عن كلماتك في روحي، فأنزف قليلا وأتذكر كثيرا، وأحس أن الكلمات لم تكتسبك قدرك الكافي من الحياة، فأعاود النبش والنزيف، تنهضين أمامي من لحظات الغياب، تتجلين وسط تفاصيل غرفتي التي رأيتها ذات يوم، ووضعت زهرة من الورق في العبوة الفارغة لقنبلة الدخان، تنهضين مع برودة الفجر وتدخلين في دمي اشتياقا وحنينا، فأسمع عصافير لم أسمعها من قبل، وأشم عبير كل الحقول التي قبلتك بينها، وتتشكل الكلمات أخيرا كما لو أنها ملامحك، وأكتب القصيدة لعلها تحررني قليلًا من سطوتك بداخلي.

لم أجرؤ على وضع القصيدة في درجي والإغلاق عليها، كنت أريد أن يعرف الجميع، وربما تعرف هي فيما بعد، عما كنت أعانيه، أفرغت قلبي أخيرًا وأخذتها إلى الكلية وعلقتها على أول مجلة حائط صادفتها، ولم أجرؤ على الذهاب للمشرحة، أردت أن أكون وحيدًا ففضلت الذهاب إلى المكتبة، هناك العديد من الكتب التي لم أشترها وعليّ أن أنقل منها فقرات مطولة، كنت منهكًا ولكني واصلت النقل كالمحموم، ولابد أن هذه القصيدة المجنونة قد شحذت كل خلايا مخي وأبقتني على هذا الحال بين اليقظة والحلم.

وعندما رفعت رأسي بعد ساعات من الكتابة رأيت سلوى جالسة في قبالتي، هي أيضا مستغرقة في المذاكرة، هل هي المصادفة، أم أنها تعمدت أن تجلس أمامي؟ رفعت رأسها فابتسمت لها وابتسمت لي ثم عادت تقلب صفحات مذكراتها، كانت هادئة ووديعة، أجدها أمامي فجأة فلا أدري من أين تجيء؟ أحسست بالخجل الشديد من أن تراني وأنا أواصل نقل السطور، وأن تعرف من أنني لا أملك القدرة على شراء هذا الكتاب، تظاهرت بالمذاكرة وقد زاد توتري، كان يجب أن أبحث عن حجة ما حتى أنسحب من أمامها، ولكن على باب المكتبة رأيت الشيخ «مؤمن» واقفًا وهو يدور بعينيه يبحث عن شيء، لم أكن أريده هو أيضًا أن يأتي ويجلس بجانبي، ولكنه جاء ومال عليّ حتى شممت رائحة المسك في لحيته، سمعته وهو يهمس:

ـ لقد بحثت عنك في كل مكان.

سحب كرسيًا وجلس بجانبي، رأى سلوى فرمقها بعداء واضح، لم يحيّها، عاد يقول بنفس الوقت الخافت:

ـ لقد قرأت قصيدتك اليوم..

التفت إليه في دهشة، لم أملك إلا أن أبتسم في سخرية، أنا أقول له بنفس الصوت الخافت:

ـ لم أكن أظن أن القصائد الغرامية تستهويك..



هتف في إنكار: إنها لا تستهويني، لقد أعجبتني رغمًا عن أنفي كما يقولون.

نظرت إليه دون أن أفهم ماذا يريد، ولم أكن أعرف أن كانت سلوى تتابع حوارنا الهامس أم لا، وكان أمين المكتبة ينظر إلينا متحفزًا يستعد لطردنا، وقال الشيخ «مؤمن» كأنه يقرر حقيقة واقعة:

ـ أنا أهتم بالمشاعر، أريدك معنا..

ـ مع من؟

ـ الجماعة الدينية طبعًا، ينقصنا شاعر مثلك، جئت أدعو أن تكف عن هذا اللغو وتضع كلمتك في خدمة دين الله.

نظرت إلى عينيه النفاذتين وهو يحاول أن يجعلهما تؤثران فيّ، كانت القصيدة هي حزني الشخصي، رغبتي المنفردة، مرتبطة بكل جروحي الداخلية ومخاوفي وأحلامي المهدرة، قلت:

ـ لا أستطيع يا شيخ «مؤمن»، شعري يخصني وحدي..

هتف في استنكار واضح وبصوت عال: ترفض دعوة الله..

ـ أنت لست الله.

رفعت سلوى وجهها ورمقتنا بنظرة مستطلعة، دق أمين المكتبة بالقلم على المكتب محذرًا، كظم الشيخ «مؤمن» انفعاله، أخذ نفسًا عنيفًا من أنفه فاهتزت لحيته صعودًا وهبوطًا وعاد ينظر إليّ وهو يقول:



ـ ولكن الله يهدي من يشاء.

ـ لست ضالًّا..

ـ سوف يهديك الله، اتصل بي عندما يهدأ قلبك..

وضغط على ذراعي وانصرف، ولم أدر ماذا يريد بالضبط؟ اكتشفت فجأة أنني متفرد لحد مخيف، لا أنتمي لأي شيء، لا لأسرة ولا جماعة ولا شلة، منذ أن قالت لي أمي عندما يبدءون النشاط نم أنت وأنا أسير كالمنوم عميقًا، حاملًا أحزاني الشخصية بلا أي ألفة.

رفعت رأسي وجدت سلوى تنظر إليّ، كانت تبتسم، من الواضح أنها سمعت الحوار، قالت:

ـ أنا أيضًا قرأت القصيدة، إنها حقًّا جميلة..

ابتسمت لها وجمعت كراساتي ومضيت، كانت فتاة عذبة ورقيقة، ولكن قلبي كان كسيرًا.

الأيام تمر، والشهور تتباعد، ومصطفى لا يعود لمقبرة السيارات، كتبت عشرات القصائد ولم أجرؤ على تعليقها.

لم نكن نستعمل المعطف الأبيض إلا قليلًا، كأنه حلية نضعها على أكتافنا، وكنا أشد تفاهة من أن يسمحوا لنا بدخول المستشفى ورؤية المرضى، نتسلل إليهم مثل أطفال فضوليين يتسللون إلى حديقة الحيوان، نحاول أن نستكشف أرض المستقبل الغامض



التي تنتظرنا، كانت حيواناتنا مريضة واهنة، تعاني من كل الأمراض المزمنة التي لا براء منها، تتأملنا بعيون خابية وتترك لنا صدورها العارية ندق عليها بأصابعنا دون هدى، ثم نضع عليها السماعات الصينية الصنع الرخيصة الثمن، لم نكن مؤذيين بدرجة كبيرة، كنا نغير قليلًا من واقع رقادهم الطويل، ونراجع بيانات الأمراض والأعراض المكتوبة على تذكرة السرير دون أن نفهم شيئًا، كانت طويلة، ومعقدة، ولا يبدو أننا سنفهمها يومًا.

ثم دوت الصفارات واهتزت المدينة كلها، لم تكن صفارات «الوردية» هذه المرة، كانت طويلة ومتصلة أشبه بصوت استغاثة، كلمات البيان الأول للحرب كانت باعثة على الفرح، أحسست أن عليّ أن أذهب إلى المستشفى، حملت المعطف الأبيض وسرت متقافزًا في الشوارع، كل شيء كان هادئًا ومتوترًا، بدءوا يدهنون زجاج المباني في الشارع الرئيسي باللون الأزرق، زرقة قاتمة لا تشبه الماء ولا السماء، وأصوات أحاديث الناس تتناثر، الحرب أخيرًا، الحلم الذي بعثته فينا كل الخطابات الحماسية الطويلة، والوعود المؤجلة، والشعارات المرفوعة، كنا سعداء في خوف، والطريق إلى المستشفى طويل، وشمس يونيو لم تستيقظ بعد، بسبب الحرب اكتسبت نوعًا من الشرعية المؤقتة، يمكنني الآن أن أرتدي المعطف وأدخل المستشفى وأقدم المساعدة، اختصرت الحرب بالنسبة لي سنوات طويلة من الدراسة مازالت في انتظاري.



كان هناك زحام شديد أمام الباب الرئيسي، ترتفع أصوات عالية، صارخة، هل وصل الضحايا بهذه السرعة، اقتربت منهم حتى رأيت وجوههم الشاحبة، ونظراتهم الواهنة، التي كنت أراها في عيونهم وهم راقدون فوق الأسـرّة، كان المرضى الذين حلمت طويلا بالكشف عليهم يرحلون خارجين من المستشفى، يسيرون متعثرين في صف طويل شاحب، التمرجية يستحثونهم على الإسراع دون أن يمدوا أيديهم لمساعدتهم، يسيرون مرغمين وهم يتلفتون حولهم بنظرات فزعة، كانوا قد نسوا العالم الخارجي، وظنوا أنهم سيبقون في انتظار الموت وهم فوق أسرة المستشفى، معظمهم لم يكن له أهل يتقبلونهم ولا مكان يذهبون إليه، خروج بائس من فردوس عطن، يحتضنون لفات تحتوي على آخر الثياب وآخر أقراص الدواء، ينحدرون من أعلى سلم المستشفى ولا يكفون عن الانحدار، يتمايلون ويتساندون على بعضهم البعض، ويسقط البعض الآخر دون أن يجدوا من يقيلهم من عثرتهم، عندما كانوا راقدين فوق الأسرّة لم يكونوا بهذه الكثرة ولا هذا الخذلان.

كان هذا زمن الحرب، بدأ الصراع، لا يوجد وقت لإبداء العواطف، كان المستشفى يبدل نفسه بعد أن تخلص من المرضى القدامى، يحاول أن يتخلص حتى من رائحتهم، يدلق الممرضون على الأرض كميات كبيرة من الماء مختلطة بمحلول «السفلون»، يزيحون الملاءات الصفراء الداكنة، ويضعون أخرى ناصعة البياض، يحملون كل بقايا القمامة والطعام والأدويـة وخرق الملابس والزهور الجافة وأكواب تكرير البول إلى المحرقة.



أصبح المستشفى نظيفًا، خاليًا، منتظرا، يستمع إلى البيانات المحمومة في الإذاعة وينتظر، تجمعنا في أحد الأركان وتبادلنا كلمات سريعة ووقفنا نحن أيضًا ننتظر حصاد الحرب، جاء أحد الأساتذة الكبار، ألقى علينا نظرة فاحصة ثم أشار لنا فانحشرنا في مدرجات صغيرة بجانب العنبر، ظل صامتًا وعيناه مسلطتان على وجوهنا كأنه يتساءل إن كان في مقدورنا أن نقوم بمسئولية حرب أم لا، قال: يا إلهي إنهم مازالوا أطفالا، وبدأ أولى كلمات المحاضرة عن الإسعافات الأولية في الحروب، رأيت سلوى جالسة في الركن البعيد ترتدي معطفا ناصعًا، من الواضح أن هذه هي المرة الأولى التي ترتديه فيها، هزت رأسها لي بخفة بحيث لم يلحظها أحد سواي، واصل الأستاذ حديثه عن كيفية التغلب على الصدمة ووقف النزيف والتعامل مع الأعضاء المبتورة، بدأ شبح الحرب المخيف يطل ببطء من خلال كلماته، المرضى السابقون كانوا موتى بشكل أو بآخر، ولكن الذين ننتظرهم كانوا أحياء، في قمة التوهج والألم والخوف والشجاعة.

انتهت المحاضرة وظلت الأسرّة خالية وتوالت البيانات حتى لم نعد نفهم منها شيئًا، وبدأ المساء يهبط ببطء شديد على قمم الأشجار المحيطة بالمستشفى،جاءت ممرضة بدينة تحمل كمية كبيرة من الزهور البرية وبدأت تضع بعضًا منها بجانب كل سرير، وقفت أنا وسلوى بجانب إحدى النوافذ، كان هناك قمر يستدير وسط ظلمة السماء، وعصفور يطن بأغنية ما قبل النوم، وسمعت صوتها وكأنه قادم من بعيد:



ـ أشعر بالخوف..

قلت وأنا أبلع ريقي: الحرب مخيفة على أي حال..

واستدارت نحوي وحدقت فيّ بعينيها الرقيقتين الممتلئتين بالحزن:

ـ أحس أنها جاءت مبكرة وفي غير أوانها، ربما كان عليها أن تنتظر حتى نكبر قليلًا.

فكرت في نفسي، لماذا كل هذا القلق؟ عبد الناصر سوف يقوم بكل شيء، وفي هذه اللحظة دوى صوت بوق أولى السيارات.

جرينا نحو النافذة المطلة على الفناء الأمامي للمستشفى، شاهدنا الباب الحديدي وهو يفتح في سرعة، والسيارة الشبيهة بالصندوق المظلم تنطلق داخلة إلى الممر الصاعد لأعلى، أطفأت كل أنوارها ما عدا النور الأحمر في مقدمتها فغدت مثل حيوان جريح لا يستطيع الانتظار أو التمهل، انطلقت زاحفة إلى باب الطوارئ، بدأت حمى الحرب، جاءت النقالات وهي تعدو عبر الطرقات الرخامية الطويلة، أربعة من الجرحى مستلقين فوقها، أجسادهم الممددة مغطاة بخليط من البارود الأسود والرمل الأصفر والدم، في البداية لم نكن نعرف أين مكان الإصابة بالضبط، ولكن الأجساد كانت منهكة، مجهدة، يربطها بالحياة خيط بالغ الضآلة، لم نتمكن من معرفة ملامحهم، اختلط العرق بالرمل والبارود وكسا الوجوه بظل أسود، تتلوى من التقلصات العنيفة التي كانت تغمر



الملامح ثم تتسرب إلى بقية الجسد، أقبل الأستاذ سريعا وخلفه بقية الأطباء المساعدين، أزاحونا من طريقهم بلا اهتمام، وضعوا على أجسادهم أصابعهم المدربة، ساروا مع انحناءات الجسم حتى صرخ الأول من شدة الألم، هزتنا الصرخة جميعًا..بدأنا نرتجف، أصبحت الحرب فجأة شديدة القرب منا، صاح الأستاذ يطلب نقل ثلاثة منهم سريعًا إلى غرفة العمليات، وظل الرابع مسجى أمامنا غائبًا عن الوعي، كان هناك جرح قطعي بطول ذراعه، لم يكن في حاجة لأن ننقله أو نعطيه مخدرًا، انغرست إبرة الخياطة في لحمه، وشدت الخيوط السوداء أطراف الجرح وضمته دون أن يشعر بشيء، أحطناه بالبطاطين الكثيفة خوفًا من أن يذهب ضحية الألم والصدمة، غرسنا إبرة المحاليل في أحد أوردته وعلقنا الزجاجة بجانب سريره، مسحت إحدى الممرضات وجهه بفوطة مبللة فرأينا وجهه أخيرًا، كان صغيرا، كلهم كانوا صغارًا، كنا أيضًا صغارًا، هل هذا ما كانت تعنيه سلوى؟ فجأة نهض صارخًا، نزع الإبرة المعلقة في ذراعه وصاح:

ـ حذار.. السماء تمطر بالنيران.. لا أحد يرحمنا..

أفاق فجأة، وجد نفسه بعيدًا عن ميدان القتال فأخذ يقدم اعتذاراته الغامضة، كان صوته مبحوحًا، جريحًا، ولابد أنه خلال إغماءه الطويل لم يكف عن الصراخ في داخله، أحطنا به، حاولنا تهدئته ولكن السكينة كانت قد غادرته، ظل يحاول أن يخرج من أعماقه صدمة الحرب وعنفها وقسوتها، كان قد فوجئ بها بغتة،



تقدم وهو لا يدري إلى أين؟ وتراجع دون أن يعرف لماذا؟ وجاءته الإصابة دون أن يحدد من الذي أصابه، لم يهدأ إلا بعد أن عاد بقية زملائه الجرحى من غرفة العمليات، انكمش في رعب عندما رآهما مستلقين، فاقدي الوعي، وملفوفين بالضمادات والأربطة، بدأت الملاءات البيضاء تتلوث بالدم، وعادت أبواق سيارات الإسعاف تدوي من جديد، ولم يعد باب المستشفى قادرًا على معاودة الانغلاق، ولا النقالات قادرة على التوقف، لا تكف عن اللهاث، تناثرت على طول الطرقة الرخامية حبات من الرمل المختلط بالبارود والدم، استلقت على الأسرّة وجوه الجنود بعد أن جعلتها الحرب غريبة الملامح، الفلاحون أنفسهم والصنايعية والأفندية الصغار والضباط المتعاجبين، عادوا للمستشفى بشكل آخر، يحملون أمارات من الرعب لا يبدو أنها ستزول، كلهم كانوا صغار السن، أكلتهم الحرب أول ما أكلت، كأنها لا تلتهم إلا اللحم الغض والأحلام الطازجة، جاءوا يحملون آلامهم المبرحة، وأجزاء من أعضاء أجسادهم المبتورة، يبحثون عن معجزة للالتئام، يريدون إنقاذ روحهم الكسيرة من التفتت، لم يصطدموا أو يقاتلوا أحدًا، لم يدخلوا معركة حقيقية، كل ما في الأمر أنهم حصدوا حصدًا.

كنا لا نكف عن الجري في طرقات المستشفى وبين الأسرة، نضع المطهرات والقطن والشاش والأربطة الضاغطة، نوقف النزيف في ناحية فينفجر من ناحية أخرى، نعلق زجاجات الدم والبلازما والمحاليل والجلوكوز، كل السوائل التي ترفع الضغط وتزيد النبض وتؤجل مداهمة الموت، جاء الفجر الغريب ونحن



مازلنا نعدو، أشرقت الشمس فبدأنا نصرف كل من يقدر على الوقوف على قدميه، ونضع كل اثنين من الجرحى على السرير الواحد، ثم نحمل من كل سرير واحدا للمشرحة، وتدخل المشرحة عربات ضخمة تحمل كل ماهو مكدس بداخلها، نفرش ملاءات على الأرض ونضع فوقها المزيد من الجرحى، بدلنا كل شيء في المستشفى، الأغطية والأسرة والمرضى والموتى لم تهدأ العربات التي تأتي بالجرحى ولا التي تذهب بالموتى، كل الجثث لم تكن تحمل أسماء، كانت تحمل أرقامًا فقط، تظهر أمامنا سريعًا وتختفي سريعًا في جوف المشرحة، غفوت على أحد المقاعد فحلمت بكل الجثث تنهض وتطلب أسماءها التي فقدتها وأعضاءها التي بترت منها، نهضت مفزوعا وأخذت أجري مع كل نقالة، أغلقنا الراديو تمامًا وكففنا عن سماع البيانات والتهديدات والأغاني الحماسية، كان وقع أبواق سيارات الإسعاف أشد وطأة علينا، صاح الجرحى بنا : افعلوا شيئًا، كان الموت يتكاثر، نفد الدم، ونفدت البلازما، ومحاليل الجلوكوز، عرينا أذرعتنا ليسحبوا منها كل ما يمكن من قطرات الدم، أرسلنا من يصرخ في المدينة كي يأتي إلينا متبرعون جدد، أتوا إلينا مصدومين وخائفين، ولم يكن الدم الفقير كله صالحا ولكننا أخذنا منه بقدر ما نستطيع.

صاح طيار متكسر العظام: اليهود لم يفعلوها بي، لم يقدروا عليّ، سقطت طائرتي وحسب المصريون أنني جاسوس فانهالوا عليّ ضربًا، كادوا أن يقتلونني، همهم شاب صعيدي: لم أستلم حتى سلاحي، وما إن وصلت إلى مقر الوحدة حتى وجدت نفسي

في مواجهة دباباتهم، أفاق ضابط صغير وهو يصرخ: لقد شاهدهم يدوسون على كل زملائي بالدبابات، وكان هو قد نجا لأنهم كانوا يمزحون وهم يطلقون النار تحت قدميه حتى يجري راقصًا، وقال واحد آخر مذهولا: لا أصدق، كنا في خنادقنا ولم يكونوا يشعرون بنا، كنا سنوقعهم في كمين محكم، لكن قادتنا هم الذين أمرونا بالخروج والهرب، هم الذين أمرونا بالموت، فوضى مرعبة، موت بلا ثمن، ألم نكن صغارًا على كل هذا الرعب؟ تذكرت أبي، هل عاودته الكوابيس؟ تذكرت أمي، هل زادت حدة مرضها، ثم تذكرتك يا فاطمة؟ كان قلبي بحاجة للمسة من العزاء فتذكرت ابتسامتك، لم أكن أدري إن كنت مستيقظًا، أم متهالكًا فوق أحد المقاعد، ولكني سمعت صوت السيارة وحركة النقالات، لم تكن نقالة واحدة، كانتا نقالتين تم وصلهما معا ووضع عليهما جسد واحد، أخذ يدفعها أكثر من «تمرجي» حتى لا تفلت واحدة من الأخرى، كان عليهما جندي بالغ الطول، سرت بجانبه وأنا أكتم أنفاسي، الخوذة تغطي نصف وجهه، وخليط من الرمل والبارود يغطي النصف الآخر، لم يكن هناك سرير واحد على مقاسه، وضعوا رأسه على الوسادة، ووضعوا قدميه على عارضة السرير بحيث أصبحتا معلقتين في الهواء، مددت يدي ببطء وأزحت الخوذة ثم مسحت البارود، وبدت ملامحه، ابتسامته المندهشة جامدة تمامًا عند لحظة من الترقب المخيف، همست باسمه، توقعت أن ينهض، أن يضم أصابعه الضخمة ويضعها في جيبه، يخرجها متكورة ويفرد الأصابع فيبدو بينها كتكوت صغير مازال يصوصو، ولكنه ظل



نائمًا، مسجى، لا يتحرك، يأخذ أنفاسه في صعوبة بالغة، كأن على صدره أطنانًا من الجبال، لمست جبهته:

ـ هل تسمعني يا مصطفى؟

لم يسمعني ولم يرد عليّ، اقتربت الممرضة البدينة بعض الشيء..كانت واقفة تراقبنا وهي تتأمل جسده الضخم المسجى العاجز وقالت:

ـ هل تعرفه؟ هل هو قريبك؟

نظرت إلى وجهه وقلت في همس: كنت أبحث عنه..

جاء الأطباء الكبار، أزاحوني وأزاحوها وأجروا الفحوصات السريعة، قال الأول: يبدو أنه نزيف داخلي، قال الثاني: النبض آخذ في الانخفاض، قال الثالث: كأنهم جميعًا كانوا في مركز الانفجار، عادت النقالتان مرة أخرى، حملته إلى غرفة العمليات، لم يبالوا بالإجابة عن أي سؤال من أسئلتي، لم يروني، جريت خلفهم، وجرت خلفي الممرضة الصغيرة البدينة، كانت قد أُخذت بحجمه الضخم، وبدا لها أنه لو ظفر بحياته فسوف تكون قد شهدت بنفسها معجزة لا تتكرر، كان علينا أن ننتظر بجانب النقالتين خارج غرفة العمليات لأن كل مناضد غرف العمليات كانت مشغولة، نهضت ووقفت بجانب مصطفى،ملت عليه وأخذت أهمس في أذنه:

ـ كل شيء على ما يرام، لقد رأيت السيارة، إنها تكتمل وتتأهب، سوف تنطلق حالمًا تخرج من المستشفى، إنها فقط تنتظر لمسات

أصابعك عندما تدسها بين الصواميل والتروس، لقد ركبت الإطارات، وانضبطت مقابض الأبواب، وتأهبت المقاعد وسوف يدور المحرك حالمًا يراك..

حدقت فينا الممرضة وهي ساهمة، لم تفهم شيئا ولكنها كانت على وشك البكاء، فتحت غرفة العمليات وسحبوه إلى الداخل ورمقوني بصرامة فبقيت خارجًا.

جلست على أحد المقاعد بالقرب من الباب، هدأت أبواق السيارات، وساد المستشفى صمت وترقب، ترى يا مصطفى، هل يمكن أن تتشبث بطاقة الحياة الباقية لك؟ هل يمكن أن تسابق الزمن المحتوم؟ رمقتني الممرضة البدينة، ذهبت ثم عادت، ثم لم أعد أعرف إن كانت موجودة أم لا، كم كنا في أمس الحاجة إليك يا فاطمة، لماذا لا تظهرين، لماذا لا تتجلين في هذه اللحظة؟ لماذا لا تمدين أصابعك الصغيرة فتمنحين الحياة لهذا الجسم الضخم الذي يشاركك دمك؟ ما أشد قسوة هذا الصمت الذي يسود كل شيء، فتحت غرفة العمليات، ظهرت ممرضة شاحبة وهي تهتف:

ـ هذا الجندي الضخم في حاجة إلى دم..

كان مخزوننا قد نفد، مددت يدي، كشفت ذراعي وأنا أهتف:

ـ خذي مني،

نظرت إلى نحافتي في امتعاض وهي تقول:

ـ تلك لا تكفي..



صرخت في عصبية: خذي دمي.

أخذت بصرخاتي، في المعمل المجاور قمنا بالتحليل السريع، شككت أصابعي، وقارنت فصيلة دمي وقالت:

ـ الفصيلة مختلفة، لا تصلح.

أي سخرية ألا أستطيع إنقاذه يا فاطمة؟ أي إحساس بالحزن والمرارة، قالت الممرضة فجأة:

ـ حالته صعبة، نزف كثيرًا.

تقدمت الممرضة الصغيرة البدينة، مدت ذراعيها وهي تهتف:

ـ أنا فصيلة دمي «أو»، والله، «أو»..

ذراعها بضة وسخية، تملك تلك الفصيلة النبيلة التي تهب نفسها لكل محتاج، أخذتها الممرضة الأخرى بسرعة، دخلا معا غرفة العمليات، ألقيت عليها قبل أن تدخل نظرات مستغربة، تقابلت عينانا، كأنها كانت تعرفه أكثر مني، جلست مرة أخرى في الانتظار، مرقت «سلوى» بالقرب مني، تمهلت قليلا ثم عاودت سارت مبتعدة، هل أدركت أنني أفكر في فاطمة في هذه اللحظة؟ الهدوء الغريب مازال يسود المستشفى، رغم اشتعال البيانات العسكرية الأخيرة فقد كان واضحًا أن هذه الحرب المريرة قد حسمت بشكل أو بآخر لغير صالحنا، لم نكن في حاجة لبيانات تعترف بذلك، كانت النتيجة بادية أمامنا، على الأسرّة الملوثة، والأرضية المليئة بالرمل والبارود، وفي غرف العمليات التي ينقصها الدم وداخل برودة المشرحة حيث ترقد كل الجثث بلا أسماء.

مرت عليّ الكثير من اللحظات وأنا أنتظر، خرجت الممرضة البدينة من غرفة العمليات، وعلى وجهها علامات الانتصار وفي ذراعيها بقع حمراء مستديرة هتفت:

ـ سوف ينجو..

ومضت مزهوة، فرحة بانتصارها الصغير، لقد أعطت الحياة لجسد جندي بالغ الضخامة، خرجوا به من غرفة العمليات يحيط به بقية الأطباء، جريت خلفهم قالوا إنهم قد أوقفوا النزيف واستعادوا الضغط، ولكن المشكلة أنه نزف كثيرًا، وتهتكت أنسجته الداخلية إلى حد خطير، قالوا إن الساعات القادمة هي الساعات الحرجة، نقل مصطفى إلى السرير، أصبح وجهه رائقًا وملامحه ساطعة، ظل يأخذ أنفاسه من فمه بصوت مسموع، مددت ولمست ذراعه، النبض جيد، قطرات المحلول تنساب برفق، قطرة إثر قطرة، تعيد بناء الحياة ببطء، خلية إثر خلية، كان نائمًا مثلنا جميعًا، ولا شك أنه سوف يستيقظ مثلنا جميعًا.

جاءت الممرضة البدينة وهي تضحك، كانت تحمل كيسًا كبيرًا أحمر اللون قالت:

ـ انظر، كيس من الدم الطازج، عشرات الأهالي في الاستقبال الآن يتبرعون بدمائهم، وسوف يتوافر الدم للجميع.

انشغلنا معًا في تركيبه إلى ذراعه كانت تبدو سعيدة ومنشرحة وقد عاد النور إلى وجهها، دون أن تدري صنعت معجزة صغيرة مثل دأب فاطمة، بدأت قطرات الدم تنساب إلى جسده الضخم، همست به:



ـ أنا بجانبك يا مصطفى..

ارتجف جسده وغمر العرق وجهه، نهضت من أمامه، حاولت أن أتجول في المستشفى، كان حطام الحرب المذعورة رهيبًا، عدت إليه، جسده مازال يتلقى القطرات، ولكن ضغطه لم يكن مستقرًّا، يعلو وينخفض، بدأت تغمر جسده ارتجافات عنيفة، يحاول أن يخرج كل ما في داخله من انفعالات، ثبتنا الإبر في ذراعيه بواسطة «البلاستر»، وربطنا مرفقيه في جانبي السرير، بدأت القدمان ترتفعان وتنخفضان، كان يحاول أن يتمسك عبثا بأهداب الحياة، بدأ المكان الذي تدخل فيه إبر المحاقن يتورم، احمرّ الجلد ثم انتفخ، خلعنا الإبرة وبحثنا عن وريد آخر، بدأ هو أيضًا في الانتفاخ، توقفت قطرات المحاليل وتجمد الدم، صاحت الممرضة مفزوعة في صوت خافت، صرخت فيها:

ـ اذهبي واحضري الأطباء سريعًا..

كنت عاجزًا يا فاطمة، أرى الحياة وهي تغادر جسده دون أن أملك له شيئًا، أخذ نفسًا عميقًا، ثم فتح عينيه، كانت حمراوين قانيتين، تلفت برأسه في بطء كأنه يتساءل عن المكان الذي وجد فيه نفسه، أمسكت أنفاسي وأنا أرقب هذه اليقظة الغريبة المفاجئة، نظر إليّ وتأملني، حاول أن يستحضرني في ذاكرته المجهدة، اقترب مني برأسه حتى رأيت العروق الرفيعة المتعرجة في بياض عينيه، أطال التحديق حتى حسبت أنه قد تعرف عليّ فبدأت أهمس باسمه، وباسمك يا فاطمة، بدا على وجهه شبح ابتسامة باهتة، ثم



أغمض عينيه في ارتياح، كف جسده عن الارتجاف، وأخذ يستنشق أنفاسه بهدوء، بدأ يسكن أخيرًا بعد أن سلبته المقاومة كل قواه.

اقبل الطبيب سريعًا، رأى الأوردة المتورمة، وقاس الضغط، والنبض، وقال في صوت آسف:

ـ لقد أخذ دمه في التحلل، كان النزيف قاسيًا وغزيرًا..

مد الموت أصابعه، فأخذ جسده يهدأ قليلًا، قليلًا، كأن الموت لا يستطيع أن يميته دفعة واحدة، ظل يمس أعضاءه واحدًا وراء الآخر حتى استكان له، كما كانت الكتاكيت تستكين بين أصابعه، بكت الممرضة البدينة في صوت خافت وهي تغمض عينيه وتغطي وجهه بالملاءة الملوثة بالدماء.

جريت إلى المشرحة، قابلت الجندي والضابط وكل المسئولين، قلت لهم إنني أعرفه، وأعرف اسمه، قالوا لي إن هذا لا يهم، الأمر مختلف الآن، سوف يتم دفنهم جميعًا ثم يفك لغز الأرقام وتعرف الأسماء ويرسل إلى أهلهم بالأخبار، قلت لهم إنني أريد أن أعرف قبره، ولكن ذلك كان مستحيلًا، هم أنفسهم حتى الآن لا يعرفون، دخل جسده الضخم وسط بقية الجثث، اكتسب صمتها وأصبح لحمه البارد مشاعًا، لو تركوه لي لأخذته ودفنته هناك في مقبرة السيارات، وكنت واثقًا أنه لفرط حبه للمكان سوف يبعث من جديد.

وقفت بجانب السرير الخالي، شاهدت بقايا من قطرات دمه، لم تعد أبواق السيارات تدوي، ولم ترد إصابات جديدة، الحرب التي اشتعلت فجأة، وضعت أوزارها فجأة، لم يحدث شيء، لولا



أن الموتى لا يمكن تجاهلهم، كم لبثت جثته في المشرحة؟ متى أخذوه، أين دفنوه..؟ فعلوا كل شيء بمنطق الحرب، غير مسموح بالسؤال ولا الجواب، ولم تظهر فاطمة كي تسأل ماذا حدث؟ كيف يتأتّى لها ألا تعلم حتى الآن؟..

آن لنا نحن الصغار الذين شاهدنا هذه الحرب الكبيرة أن نحمل المعاطف البيضاء الملوثة بالدم وأن نعود لبيوتنا، جررنا أقدامنا عبر الشوارع الخالية التي مازالت متمسكة بآخر بارقة أمل ومنتظرة خطابًا منقذًا مثل الخطابات القديمة، خلف الزجاج المطلي بالزرقة تحت السماء العارية التي لا تجد حماية حتى من السحب العابرة، كان بيتنا خاليًا، لم يكن أمي ولا أبي موجودين، وقفت أمام المرآة، لم أكن قد حلقت ذقني منذ أيام، نما شعر شاربي ولحيتي دون حاجة لأن أحلقهما عدة مرات، بل ظهرت فيهما أيضًا شعيرات بيضاء، شيب مبكر، كنا في انتظاره وكان لابد أن يجيء.

ظللت مستلقيًا فوق فراشي في الظلام، أحدق إلى السقف دون أن أكون قادرًا على الحركة، سمعت طنين الطائرات، عشرات الطائرات وهي تعبر سقف غرفتي، ترجه وترجني وترج السرير الذي أستلقي عليه، لم يكن هناك أحد ينقذني من غاراتها المتواصلة لم يكن هناك من أشكو إليه أو أتقبل منه العزاء.

سمعت صوتًا في الخارج، لابد أنهما قد عادا، خرجت فوجدت أبي وحده، محني القامة، يحاول عبثًا أن يبحث عن شيء، يبدو متوترًا، ينزع الأشياء من أماكنها ويلقيها على الأرض، يتمتم في

سخط، ويحرك يديه في الفراغات الخالية، لم أعرف عما يبحث، ولكنه فتح كل الأدراج، وكل أبواب الخزائن والدولاب، وأحضر مقعدًا وقف عليه كي ينظر في الأماكن العالية هتفت:

ـ عم تبحث يا أبي؟

بدا كأنه لم يسمعني، اقتربت منه، التفت إليّ بوجه تعيس، وقف يحاول التقاط أنفاسه من فرط الإجهاد، قلت:

ـ هل أنت بخير؟

صاح في صوت مختنق، أحباله الصوتية مجهدة، هتف:

ـ لا أجد كتبي، أنتم دائمًا تضيعون كل شيء، أين كتبي؟

لم أتصور أنه يقصد كتبه القديمة، تلك الكتب الضخمة التي كانت تفتنني وأنا أراه مستغرقًا في قراءتها، قلت:

ـ إنها ليست موجودة، لقد صادروها منذ زمن.

وقف ينظر إليّ مذهولًا، أوشك على البكاء، قال بصوت مختنق:

ـ مستحيل أن يكونوا قد صادروها، لا أحد يجرؤ على مصادرتها، إن فيها الإجابة عن كل الأسئلة.

اندفع إلى غرفتي، أخذ يقلب في كتب الطب ودواوين الشعر، بحث تحت سرير أمي، دخل المطبخ، ثم عاد مهدودًا، جلس على الأرض في الركن القديم، قال بصوت ذاهل:

ـ لماذا أخذوها، كانت كتبًا جيدة فيها تاريخ العالم، وأرزاق الناس وأحلامهم، الكتب لا تؤذي أحدا، لماذا أخذوها؟



كان إحساسه بالخسارة فاجعًا، وخفت أن يرتد وأن تعود الكوابيس لمهاجمته دون هوادة، قلت:

ـ سأذهب إلى كل المكتبات، إلى كل باعة الكتب القديمة وأحضرها لك..

نظر إليّ وهو غير مصدق وقال:

ـ ما أخذوه لا يرد..

هل كان يعني الكتب فقط؟ انزوى في الركن كأنه يريد أن يختفي من أمامي، أو يبحث عن شيء يحتمي به، بدأت الدموع تنسال على وجهه دون صوت، هل كنا نستحق ذلك كله؟ ومن الذي أخطأ هذه المرة؟ ولماذا دفعنا ثمن الأحلام باهظًا إلى هذا الحد؟ فتح الباب ودخلت أمي، كانت قد حاولت الخروج كي تسأل عن معنى ما حدث فلم تفهم أي شيء، لا أحد يملك جوابًا محددًا، اندلعت المظاهرات فجأة في كل الشوارع فأوشكت أن تموت من الرعب، جلسنا نحن الثلاثة على الأرض في ظلمة البيت، نظرنا في وجوه بعضنا البعض نبحث عن سكينتنا القديمة، أغلقنا كل النوافذ، وظللنا جالسين نستمع إلى هدير المظاهرات المتواصل القادم من أسفل، كأنها أصوات حيوانات استبد بها الجوع، كنا جميعًا جوعى إلى أحلامنا القديمة، إلى لحظة من النوم الرائق لا تؤرقنا فيه الكوابيس، ولا تهاجمنا الطائرات.

لم أعرف قبرًا محددًا لمصطفى في مقابر الشهداء الراقدة خارج المدينة، في الحرب لا توجد علامات فارقة، قرأت الفاتحة على



أرواحهم جميعًا، لكل موتى الأحلام الكبيرة عندما تتحول إلى خدع كبرى، ذهبت إلى مقبرة السيارات، كانت سيارته تكتمل رغمًا عن كل شيء، خيل إليّ أن الأبواب اقتربت أكثر، والمقاعد ثبتت نفسها، والمروحة تدور كلما هب الهواء، هل كان يخرج خفية من قبره فيضع عليها بعضا من لمساته ثم يعود للنوم مرة أخرى؟ هل سآتي هنا يومًا فأجدها قد اكتملت فجأة؟ تركت المقبرة وانحدرت إلى الدرب الطيني، دخلت إلى القاعة الرطبة، كان هناك نولان متوقفان، مات اثنان من الصنايعية دفعة واحدة، وكانت المرأة مازالت جالسة في بيتهم القديم الذي أصبح نصف متهدم وحولها أولادها، نظرت إليّ بعينين غائبتين ولم تعرفني، سرت تحت سماء القش المترب وشممت فيها رائحة البارود والدم الجاف، حتى الأسطى عطية تقدمت به السن فجأة، اكتشف وجود الشعيرات البيضاء في رأسي فأخذ يضحك في مرارة وقد تذكر اليوم الذي حلق لي فيه نصف رأسي، كان حزينًا لأنه كسر الراديو الوحيد الذي يملكه عند البيان الذي ألقاه الرئيس وهو يعلن عن تنحيه، ثم ندم بعد ذلك عندما عرف أن ذلك تم بلا جدوى، لم تكن لديه أخبار عن فاطمة، واستمع صامتا لمصرع مصطفى فترك المقص من يده وكف عن الطرقعة، قال:

ـ كأن هناك لعنة غير عادية تلاحق هذه الفتاة؟ لعلك لم تسئ إليها كثيرًا..

ـ ليتني أسأت، كان هذا كفيلًا بأن يجعلني أشعر أنني أتلقى عقابًا ما.



جلسنا صامتين أمام المحل المظلم، واعتذر الأسطى عطية للزبائن بأن العدة كلها ثالمة، مثل كل شيء، كنت أتوقع أن أراها فجأة وهي خارجة من الدرب لابسة السواد، فنذهب معا إلى مقبرة السيارات ونقرأ الفاتحة، ولكن جلستي طالت دون أن يحدث شيء.

ظلت حالة أبي تسوء فقررت أن أبحث له عن الكتب، لم أكن أعرف العناوين بالضبط، ولكن كنت واثقا بشكل أو بآخر أنني لو رأيت أغلفتها فسوف أعرفها، طفت على المكتبات القديمة، رأيت الواجهات الزجاجية، كلها كانت كتبا لا تنتمي لأيامنا، لا تدري كيف تغير كل شيء بطريقة فادحة، قالوا لي جميعًا اذهب إلى المعلم أبو العلا إنه صاحب أقدم مخزن كتب في المدينة، كنت أعرفه، ولكني وجدته يجلس أمام مخزنه وقد ربى لحيته وهتف بي:

ـ لا أحد يهتم بالكتب هذه الأيام، ادخل وابحث عما تريد..

المخزن نصف مظلم، كلما قلبت كتابا امتلأ صدري بذرات التراب، لم أكن وحدي في الداخل، كان هناك طفل صغير يحاول عبثًا أن يجمع المجلات الملونة، وينظر إلى الكتب الضخمة التي توشك أن تهوي عليه في فزع، تحسست الكتب بأصابعي، اكتشفت مدى كبر المخزن ومدى ضخامة الكتب المتهرئة الرابضة على أرففه، هناك كتب في التاريخ ولم أكن أدري إن كانت صالحة للإجابة عن أسئلة أبي، هناك كتب في الاقتصاد، مموهة، مكتوب على أغلفتها أسماء كتب أخرى، هناك عشرات الروايات الرخيصة مرسوم عليها



عشاق يقبلون بعضهم البعض في تهتك، وكان المخزن كله متأهبًا للانهيار، ولو تحركت الأرفف قليلا لهوت كل الكتب وكشفت ما وراءها من فئران صغيرة لا تكف عن قرض الورق، تهرأت الكتب مثل كل الأفكار التي تحملها، ولم تعد هناك كتب جديدة.

في آخر المخزن رأيته جالسًا، للوهلة الأولى خيل إليّ أنني أعرفه، لولا عتمة المخزن، وطول لحيته وتلك الملابس الرثة التي يرتديها، اقتربت منه ببطء كان يجلس فوق رصة من الكتب، وبجانبه كومة أخرى يتفحصها، يأخذ الكتب ويقلبها في ملل، ثم يلقيها بلا اهتمام، أصابعه فقط هي التي تتحرك مع الصفحات بينما كان واضحًا أن ذهنه في مكان آخر، وقفت أمامه لم يكن يبحث عن شيء محدد، رفع رأسه ورآني وبدا عليه الضيق.

رآني صامتا فهتف بي: هل أعرفك؟

قلت: أجل، كنت من تلاميذك، وكنت تدرس لي التاريخ، وكنت أحب هذه المادة.

قال بلا اهتمام وهو يقلب في الكتب:

ـ لم أكن أدرس التاريخ، كنت أدرس أكاذيب وزارة التربية التعليم.

قلت محاولا أن أثير اهتمامه بي وأن أشعره أنني كنت طالبًا مميزًا، قلت:

ـ لقد جمعت لي مصاريف الدراسة، حين كان أبي الأسطى نجيب في السجن، هل تذكر..



رفع يده وهو يقول:

ـ لا أريد أن أتذكر شيئًا، في رأسي من الأشياء ما يجعلها على وشك الانفجار، لا أريد أن أضيف شيئًا آخر.

ظللت واقفًا أمامه، عاد يقلب الصفحات، أخرج ورقة شجر صفراء جافة كانت مفروضة بين صفحات الكتاب:

ـ كنت أفعل ذلك وأنا صغير، كان عندي هوس بتخليد اللحظة التي تمر بي

قبض على الورقة الجافة حتى طحنها بين أصابعه، ألقى بها على الأرض وعاد يقلب الصفحات، حاولت أن أتراجع من أمامه وأن أنشغل بالبحث على الأرفف ولكنه رفع رأسه وهو يقول:

ـ هل كنت تعرف زوجتي، هل كانت تدرس لك..؟

قلت في صوت خافت: أجل، إنها مدرسة الرسم..

ضحك وهو يقول: لقد هجرتني

ـ إنني آسف لذلك..

ـ لا بأس، أكذوبة أخرى مثل بقية الأكاذيب..

التفت على صوت ضجة، كان الطفل قد جذب عددًا من المجلات القديمة فانهار جانب من الكتب، ظهر صف مفزوع من الصراصير الضئيلة الحجم، بينما قفز فأر أسمر برشاقة من رف إلى آخر، ولم يبد على الطفل أنه جفل من ذلك، مد يده في الفجوة التي



صنعتها الكتب وأخرج مخطوطًا قديمًا صفحاته متآكلة، ما إن فتحه حتى انتشرت رائحة الزعفران قوية ونفاذة، قال مدرس التاريخ في أسف حقيقي:

ـ لم أجرؤ على دخول المدرسة لتسلم جدول الحصص، لم يكن هذا مهما، كنت قد مللت قول الأكاذيب على أي حال.

نظر حوله، أشار إلى كومة أخرى متربة من الكتب، قال:

ـ اجلس، ألا تريد أن تسمع درسًا في التاريخ من مدرسك القديم؟..

ـ يبدو كل شيء حزينًا يا أستاذ..

ـ حزينًا وكاذبًا، التاريخ كله أكذوبة ليس الذي في كتب الوزارة فقط، ولكن في كل الكتب، في كل المراجع والمخطوطات..

قلت فجأة، وقد تذكرت بحثي الخائب عن فاطمة:

ـ لماذا لا تبحث عنها؟

فهم ماذا أقصد، لم يرفع رأسه، تمتم وهو يعيد تصفح الكتب المتربة ويهشم ما فيها من أوراق وزهور:

ـ الطائر الذي يفر لا يعود، لا أريد أن أعكس الأسطورة القديمة، وأجعل أزوريس يبحث عن إيزيس.

أردت فجأة أن أقول له حكايتي مع فاطمة، لعله ينشغل بها أو يتعزى، ولكنه قال في هدوء:



ـ وهذه الأسطورة أيضًا كانت أكذوبة، هناك ثلاث أساطير أخرى على الأقل.. حتى نقوش الأحجار هي أيضًا تخفي ما بين السطور..

بدأت أرى وجهه بوضوح، ولم أدر إن كان يتكلم جادًّا أم هازلًا، كف الغلام عن إسقاط الكتب وجاء بكومة من المجلات وجلس أمامنا ورائحة الزعفران لاتزال تفوح منه، رفع رأسه أمام المدرس ينتظر الحكاية في شغف، لم أكن أدري أنه ينوي أن يقص حكاية بالفعل إلا حين أخذ نفسا عميقًا وبدأ يتحدث بصوت رتيب متصل:

ـ بعض هذه الأساطير حقيقي ولكن أحدًا لم يجرؤ على كتابتها، بعضها كان أكذوبة ولكن لم يستطع أحد نفيها لأنها سائدة حتى الآن..

بلع ريقه وحدق قليلًا كأنه يراقب الفئران التي كانت تتحرك ببطء فوق الرف العلوي ثم عاد يقول:

ـ هناك أسطورة تقول إن إيزيس طافت طويلًا، قضت السنوات في سير متصل ممض، ربما كانت خريطة مصر أكبر منها الآن قبل أن تتآكل بفعل التقادم، كان البحث صعبًا بين الترع التي يحاصرها البوص الجارح، والجحور التي تسكنها الثعابين والفئران، والرياحات التي يغطيها البردي وتحولها إلى فخاخ خادعة، أرض مصر التي سارت عليها إيزيس كانت حلقات متصلة من الفخاخ، ولكنها جمعت الأعضاء، عضوًا عضوًا، لفت كلا منها في العشب الأخضر وظلت تبللها بالماء البارد من الصباح حتى المساء، وفي ليلة مقدسة وجدت آخر عضو وجلست تبتهل لكل القبرات والكراكي وأفراس النهر طوال الليل، ومع أول لمسة من الضوء نفخت فيه الحياة وعاد



أوزوريس، عاد كما اختفى بالضبط شابا جميلا، قويًا، بالغ العنفوان، لا يعاني إلا من التقرحات البسيطة في مكان التئام الأعضاء، ولكنه وجد أمامه «إيزيس» أخرى غير التي تركها، السير الطويل المتصل تحت الشمس قد دبغ جلد وجهها، جعل تجاعيدها تظهر أكثر حدة، تجاعيد مليئة بالضنى والشقاء وأيام الانتظار الطويلة، يداها مجعدتان، جلدهما أبيض وشاحب ومتجعد من كثرة ما وضعتهما في الماء من كثرة ما وخزتهما الحشرات والأشواك، كانت قدماها مشققتين، مليئتين بالطين، وبحشرات صغيرة لم تبرح الشقوق أبدًا، لقد وقف أزوريس أمامها مبهورًا بالشكر لهذا الوفاء العظيم، قبل رأسها، ويديها وقدميها، ثم لا شيء، لم يكن يستطيع أن يمضي معها أكثر من هذا، قضى الليلة وهو يستمع إلى حكاية بحثها المعذب في ملل، وفي صباح اليوم التالي استيقظ مبكرًا وبدأ يسعى خلف القرويات اللواتي كن يملأن جرار الماء، كان يختار أغرب الأماكن، بعيدًا عن عيني إيزيس، ولكنها كانت - كعادتها - تعرف كيف تعثر عليه، عثرت عليه مرة في إحدى الآبار ومعه فتاتان صغيرتان، كانت قدماه مغروستين في الطين وواحدة منهن معلقة برقبته من الخلف والأخرى كانت أمامه وقد فردت نفسها بحيث دخلت في طين حائط البئر، كلما ضغط عليها غاصت في الطين أكثر، وحين صرخت إيزيس من أعلى واصل عمله بالحماس نفسه وهو يقول لها إنه يخترع الساقية، مرة ثانية أعياها البحث عنه، بحثت في كل المغارات، ووسط كل أحراش العشب البري ووسط حقول الذرة،



وبدلا من ذلك وجدته فوق فرع إحدى الأشجار، وكانت هناك فتاة راقدة على الغصن المقابل، وكان الغصنان يتحركان ويتقابلان ثم يبتعدان في حركة منتظمة، وصاحت إيزيس في غضب، ولكنه أكد لها أن هذه ليست إلا طريقة جديدة لدرس الغلال، وهكذا، اخترع الشرشرة في داخل كومة قش في مخزن مهجور، واخترع الطنبور في أحد بيوت البغايا القريبة من المعبد، وظلت إيزيس تدفع ثمن كل هذه الاختراعات من عمرها، أصبحت تهرم بأسرع مما يتوقع، وزحفت التجاعيد على وجهها كديدان دقيقة، ظلت تراقبه، عجزت حتى عن مطاردته، وبدأت النساء تطارده علانية، كل واحدة منهن تتمنى أن يكون لها شرف مضاجعة إله بعث من الموت، ربما أصبح لها إلها صغيرًا تفاخر به أمام صويحباتها، وذات ليلة حملت إيزيس سكينًا ماضيًا، وانهالت عليه، مزقت كل أعضائه بسهولة شديدة لأنها كانت تعرف موضع التئام الأعضاء من قبل، أعادت فصلها مرة أخرى ونثرتها بعيدًا، في مواضع التيارات السريعة بحيث اختفت فور أن ألقتها، ثم أدارت ظهرها وسارت في عكس الاتجاه.

سكت وهو ينظر إلى عيني تمامًا، كان الولد الصغير جالسًا يحدق فينا في صمت، كانت عينا المدرس باردتين، هتف:

ـ هل تصدق هذه الأسطورة؟

كنت مفزوعًا منها، من طريقته في التفكير، أم من تلك النظرة الباردة المليئة بالرعب التي تظهر في عينيه؟ قلت وقد أحسست بجفاف في حلقي، أحاول أن أفهم ما يقصده، قلت:



ـ إنها بشعة.

ـ هذا وحده سببا وجيها لتكون حقيقة، كل الأساطير التي تحيط بنا حقيقية وبالغة البشاعة.

جاء بائع الكتب، قرب كرسيه وجلس أمامنا، رفع رأسه هو أيضًا وبدأ يسمع باهتمام، قال المدرس:

ـ هل تسمع الأسطورة الثانية؟

لم أكن أريد، ولكن الطفل وصاحب المكتبة كانا في الانتظار وكانت النظرة الباردة قد انتقلت من عينيه إلى شفتيه، قال:

ـ لقد وجدت إيزيس كل الأعضاء، إلا عضوًا واحدًا أنت تعرفه بالطبع، بحثت كثيرا دون جدوى، فقد كان صغيرا واكتشافه يمثل مشكلة حقيقية، كانت السنوات تمضي، والأعضاء التي في حوزتها توشك على التلف إذا لم تبادر بجمعها ونفخ الحياة فيها، ماذا تفعل؟ كانت زوجة وأختا وعليها مسئولية، كان بينهما رباط مقدس في الخير والشر والسراء والضراء، كما أن سنوات البحث الطويلة قد أيقظت وأماتت فيها أشياء كثيرة، استشرى إله الشر «ست» ولم يعد هناك خير في ذلك الوادي التعس، كان يجب أن يعود أزوريس حتى يعود لكل شيء توازنه المفقود، وذات يوم مجنون، شمسه قرمزية كالدم المقطر، ضمت الأعضاء ونفخت فيها الحياة، وعاد أزوريس وهو بالغ الغضب، اتهمهما بالإهمال كعادتها، وأنها تعمدت أن تبعثه ناقصا هكذا حتى تضمن إخلاصه وبقاءه تحت



سيطرتها، لم يكن أمامه إلا أن يضع كل طاقته المكبوتة في صنع أشياء لم توجد بعد، سافر إلى الفيوم فوجدهم قد اخترعوا الساقية بالفعل، عاد إلى «إهناسيا» فوجدهم يستعملون طنبورًا أفضل من الذي صمم نماذجه، حتى المنجل والشرشرة وجد الأطفال يلعبون بها في القرى، جلس حزينًا على أحد النوارج، وظل النورج يدور به في حلقات متصلة لا نهائية، بدأ لحمه يتراكم على عظامه، أصبح أشبه بثور مقدس دائم الهياج، صاح فيها :لماذا أعدتني إلى الحياة بهذه الطريقة بحيث لا أقدر عليك ولا على «ست»، ولا على أي مخلوق؟ وأخذ يطيح بكل الأشياء التي أمامه، بدأ يخرب حقول الذرة، ويفتح المياه على حقول القمح، ويضرب أغصان شجر البرتقال لينزل الثمار نيئة، واكتشفت إيزيس أنه لا مبرر لعهد الوفاء الأبله الذي قطعته على نفسها طوال هذه السنوات، وأنه إذا كان ثمة خطأ، فليتشارك الجميع في دفع ثمنه، بدأت تكتشف أجساد الرجال الأخرين، نامت مع كاهن صغير جاء إليها لتعلمه أصول التبتل والتطهر داخل قدس الأقداس، وداعبت عضو بائع جوال كان قد أتى للسيد بعضو صناعي من مادة شبه طبيعية، ولم يعجبها العضوين، وانتهزت سجود أحد الفلاحين أمامها متعبدا فألقت عليه طرف ردائها ولم تفلت رأسه، تحولت حياتهما معًا إلى وتيرة متصلة من العذاب، وأزوريس ينتفخ مثل ثور، ويدمر مثل عاصفة، وفي اللحظة الأخيرة جاء طبيب المعبد المقدس كي يراه فنامت معه إيزيس وتركت أزوريس ينفجر حتى مات.



ظللت واقفًا عاجزًا عن التصرف، كان الصبي وبائع الكتب يتشربان كل كلماته، لعله يجلس هنا كل يوم كي يحكي الأساطير بهذه الطريقة المرعبة، هل أثر فيه هجر زوجته إلى هذا الحد، أم أن هذا جزء من المرض العام الذي أصبح يشملنا جميعًا؟ نظر إليّ وعلى وجهه الابتسامة الباردة وهو يقول:

ـ هل أنت خائف؟

خفت من صوتي: من ماذا؟

ـ من هذه الأساطير؟

ـ قلت لك إنها بشعة..

ـ وما حدث لنا ألم يكن بشعًا، الأسطورة توضح لماذا أصبح الأمر على هذا القدر من البشاعة، كل الذين حكمونا تسللوا إلينا من نسل هذين الإلهين، سأقص عليك الأسطورة الثالثة..

نهضت وأنا أنظر في ساعتي، جمعت الكتب التي اخترتها لأبي، قلت:

ـ ربما في وقت آخر..

وضع يده على ركبتي، ضغط عليها حتى عاودت الجلوس، وقال في صوت قوي فيه رنة الأستاذ:

ـ أسطورة زائدة لن تحدث فرقًا..

جلست مرعوبًا وأنا أنقل بصري بينهم جميعًا..



- ربما ما أقوله لك ليس أسطورة، ربما كانت حقيقة أبشع من أن تتصورها لذا فقد حولناها إلى أسطورة، الحقيقة أن إيزيس لم تعثر أبدًا على أزوريس، لم تجمع عضوًا واحدا من أعضائه، كان «ست» ذكيًّا وهو الذي أشاع أسطورة تقطيعه ونثره في طول البلاد وعرضها، كان يعلم أنها ستقوم بهذه الرحلة الخرافية الطويلة، لذلك احتفظ بجسد أزوريس في قبو أمين في جوف معبد بنت آوى تحت ثلاث طبقات من الأرض، ثم نثر في طريقها أعضاء غريبة، أصابع لص، ويدي قاتل، ورأس مراب، وجذع مغتصب نساء، وفخذي قواد، وساقي مصارع محترف، وقلب سفاح، ومعدة شره، جمعت إيزيس كل هذه الأعضاء، وقبل أن تتفحصها جيدا كانت قد نفخت فيها الحياة، وفور ذلك اكتشفت الخطأ الرهيب الذي وقعت فيه، نهض أمامها ذلك المخلوق المشوه بكل ما فيه من صفات بشعة، ولكنها لم تكن قادرة عليه، اكتسب حياته الخاصة وعنفه الخاص وداس عليها حتى اعتلى العرش وأصبح يحكم من يومها، أليس هذا ما حدث؟

قلت وأنا أحاول أن ألتقط أنفاسي:

- ربما كان هذا ما حدث..

- وربما كان هذا أيضًا لم يحدث، أتعرف.. لماذا كان التاريخ المصري هو أطول تاريخ في العالم، لأنه يروي كل ما حدث، وكل ما لم يحدث، يخلط الحقيقة بالخداع، والوهم بالواقع، والشجن بالسخرية، ويعطي كل شيء واقعية مروعة..



هل كان هناك شيء يمت للواقع بصلة، مادام الموت قد أصبح كثيفا ولم يعد يثير الرهبة، والبيانات لا تستحق التصديق، والرؤية من خلال واجهات الزجاج المطلية بالأزرق تجعلنا نرى فقط نصف الحقيقة، ونصف الكذب، كان أبي قد عاد إلى جلسته في الركن، إلى رقدته على الأرض، رفض كل الكتب القديمة التي أحضرتها له، قال: إنها أيضًا تحمل إجابات كاذبة، وفي المستشفى مسحوا آثار الدم، وأزالوا حبات الرمل والبارود وأعادوا المرضى المزمنين بعد أن فقدنا رغبتا في التسلل إليهم ووضع السماعة على صدورهم، كان المساء في الصيف يهبط مبكرًا على غير العادة، وذرات الظلام تتكاثف في سرعة وتبقي الشوارع غارقة في ظلامها الحزين دون أن يجرؤ عمود واحد على الإنـارة، ثم يأتي فجر رمادي شاحب، مليء بالأحاديث المبتورة والنكات الجارحة عن الجثث التي فقدت أسماءها وأضاعت بلادها، حفرت كل الحدائق لتتحول إلى مخابيء، وبنيت السواتر أمام البيوت كنا جميعا قد فقدنا الإحساس بالأمان.

سوف أحدثك عن شجرتنا يا فاطمة؟!

سرت إليها كما سرت في كل الطرق التي كنت فيها معك، وجدت الشجرة محاصرة، تحيط بها أسلاك شائكة، وعربات صفراء، وجنود يمسكون البنادق، جميعهم في مواجهة شجرة الجميز العجوز، كانت ضخمة وضائعة، رأيت الفئوس وهي تلمع في ضوء الشمس قبل أن تهوي عليها، فأخذت أجري إليها بكل قوتي، صحت:



ـ توقفوا ماذا تفعلون؟

رفع أحد الجنود رأسه، كان يحمل سلاحه على كتفيه وأشاح بيده في وجهي:

ـ ابتعد عن هنا، ممنوع الاقتراب..

لم أتوقف، اقتربت حتى أمسكت الأسلاك الشائكة بيدي، أحسست بأطرافها الحادة تنغرس في لحمي، رفع الجندي السلاح من على كتفه، وبدأ هو أيضًا في التوتر:

ـ هذه منطقة عسكرية، ابتعد..

كانت الشجرة صامتة، أشرت إليها وأنا أقول بلا جدوى:

ـ إنها شجرتي.

هوت الفئوس في صوت مكتوم، ارتج الجذع وتناثرت شذرات اللحاء البنية المتفتتة، انفرطت من بين أغصانها عقود العصافير المذعورة، انطلقت نحو الفضاء في حيرة، ثم أخذت تدور حول الشجرة دون أن تجد مكانًا آخر تلجأ إليها، كان رفيف أجنحتها يتداخل مع الهواء، في نبضات فزعة، توقف الجنود مبهوتين، ظلت فئوسهم مرفوعة إلى أعلى عاجزة عن أن تهوي إلى أسفل مرة أخرى، صاح صوت آخر:

ـ لماذا توقفتم، لن نقضي اليوم من أجل شجرة..

كان هناك ضابط صغير، عصبي ومتعجل، نظر إليّ بازدراء وبلا اهتمام، ثم أمر الجندي أن يخفض سلاحه وتمهل قليلا أمام الجذع



يقرأ الأسماء المحفورة عليها، علت وجهه ابتسامة ساخرة وهو يقول لي:

ـ أوهام ما قبل الحرب، قلب محفور، وعدة أسماء، واسم لفتاة واحدة، هل كنتم تحبونها جميعًا؟

ظللت ممسكا بالأسلاك الشائكة والأطراف المدببة تنغرس في كفي، كنت في حاجة ماسة إلى هذا الإحساس بالألم، قال الجندي متوترًا:

ـ هل أبعده..؟

رفع الضابط يده ليوقفه وظل الجندي ينظر إليّ في سخرية، ثم حول بصره، ونظر إلى العصافير التي مازالت تدور، رق صوته فجأة وهو يقول:

ـ يبدو أن هذه الحرب اللعينة قد أماتت قلوبنا جميعا، كنا نفعل ذلك أيضا فوق كل الأشجار، ولكن هذا المكان سوف يصبح موقعًا عسكريًّا من أجل حماية المصنع من الغارات، ماذا تريد، المصنع أم الشجرة؟

هوت الفئوس من جديد، تهشم الحروف، وتقطع أضلاع القلب، فهل وصلت لحروفك الخمسة يا فاطمة؟ هز الضابط كتفه واستعد للانصراف وهو يقول:

ـ يحسن بك أن تنصرف، لم تعد هناك أهمية لهذه المشاعر، ولم تعد هذه الأشجار تخصنا كما كنا نعتقد.



ترنح الجذع ولم تعد هناك عصفورة واحدة قادرة على الصمود فوق الأغصان المرتعدة، ظلت تطوف في دوائر متقاطعة مذعورة، وكلما دوت الفئوس اضطربت الدوائر وتداخلت، واصطدمت العصافير في بعضها، بدأت تتساقط على الأرض ساكنة تمامًا، عاجزة حتى عن الانتفاضة الأخيرة، ارتطمت الأغصان أيضا ببعضها البعض، تساقطت الأوراق، وثمرات الجميز النيئة، وقش الأعشاش المتكور في حلقات، والفئوس تهوي، تحاول الجذور التشبث بالأرض ولكنها تخونها فتتشقق حولها، وتنقلب إلى أعلى في جروح غائرة ومتعرجة، انهارت طبقة اللحاء، وبدا الجذع أبيض مائلا إلى خضرة باهتة مليئة بجروح مثلثة الشكل كأنها فم مفغور من الألم وشدة الدهشة، تعرت لم يعد هناك ما يحميها، وظلت العصافير تواصل التحليق والارتطام والسقوط، وأصدرت الشجرة أخيرًا صوتا طويلا مؤلمًا ثم مالت ببطء إلى أحد الجوانب، كانت تحاول التماسك عبثا ولكنها لم تتحمل الضربة الأخيرة، مال الجذع فجأة، ودارت الأغصان حول نفسها ثم هوت على الأرض، وقبل أن تدرك ما حدث، انطلق من بينها عصفور بالغ الصغر، لا أحد يدري كيف بقي صامدًا طوال هذه المدة فوق الغصون، كيف تحمل الضربات والاهتزازات، راقبته مبهورًا، بدا لي مثل روح فرعونية بالغة الضآلة تخرج فجأة من ركام الموت؟

لم أستطع أن أبكي حتى هذه الشجرة، تكاثرت الأشياء التي تسقط ولم يبق لنا إلا الغضب، أحاول أن أنفس عن غضبي في



الكلمات، نستبدل الغضب بالموت لعله يكون الإنقاذ الأخير، لا أدري متى نمت في الليل، ولكن كيف استيقظت في الصباح وأنا أحمل قصيدة وكنت أعرف أن المؤتمر السياسي الذي تعد له الكلية قد حان أجله..

فحص الحرس بطاقتي الجامعية بدقة قبل أن يسمحوا لي بالدخول، لم يهتموا بالقصيدة كثيرًا، اللافتات منتشرة في كل مكان، درجة الغضب نفسها، لم يدخل أحد المدرجات، ولم تبدأ أي محاضرة، الطلبة جميعًا يدورون حول أنفسهم في دوائر متقاطعة، دورة العصافير نفسها التي فقدت مستقرها، كان الشيخ «مؤمن» يقف في مواجهتي، هتف بي متوترًا:

ـ هل ستشترك في هذا المؤتمر؟

أخفيت القصيدة في جيبي، لم أكن أدري بالفعل ماذا أنوي، ولكن سؤاله باغتني عاد يقول:

ـ الشيوعيون يريدون الاستيلاء على المؤتمر..

ـ أي شيوعيين؟

ـ إنهم كثيرون، منتشرون كالجراد، هذا الولد مثلًا..

أشار إلى طالب طويل القامة، شاحب الوجه، كان مشغولًا بتعليق إحدى اللافتات هتف:

ـ سوف يحول الأمر إلى حريقة..

ـ من هو؟



قال في سخرية: ألم تعرفه بعد، إنه علاء الحماقي.

أقبل بعض الطلبة بسرعة، همسوا في أذن الشيخ «مؤمن» ببعض كلمات فانصرف معهم، سرت ببطء وأنا أراقب الشاب الشاحب المشغول بتعليق اللافتة، كان يفعل ذلك في آناة شديدة، يحرص على أن يكون شعاره واضحًا ليراه الجميع، أقبل أحد رجال الحرس، صاح يحاول أن يمنعه، لم يلتفت إليه، اشتبك بعض الطلبة مع الحارس واضطروه للتراجع، صرخت في وجهه بنت منكوشة الشعر فبدا الذعر الحقيقي على وجهه، كانت الشمس ساطعة والطيور البيضاء تحوم من بعيد، هبط الحماقي ووقف بجانبي بالمصادفة وقال لي:

ـ ما رأيك..؟

قلت: يبدو منطقيًّا بعض الشيء عن بقية الشعارات.

التفت إليّ يتأملني وعندما أدرك أنه لا يعرفني عاد يتأمل شعاره، ظهرت مجموعة من الأساتذة، وقفوا في الركن وأخذوا يتناقشون مع الطلاب في حدة، كانوا يريدون منا مواصلة الدراسة وأن نترك السياسة لأهلها، صرخ الطلبة في وجوههم، داروا في دورات محمومة تنادي بسقوط كل شيء، كانت سلوى جالسة بمفردها وظهرها للجميع تراقب النهر والنوارس المترددة، ظهرت شعارات جديدة أكثر سخونة، وعلق أحدهم فجأة صورة جمال عبد الناصر، لا يدري أحد من أين جاء بها؟ لم يكتب تحتها أي شيء، ولكنه بدا في الصورة عجوزًا إلى حد يثير الشفقة، ذهب الألق الذي كان



في عينيه وحل مكانها نوع من الانطفاء المضني، تكاثرت الشعرات البيض في فوديه وحاصرت وجهه، وبدأ جسده العسكري مترهلًا، وابتسامته مليئة بنوع من السخرية المريرة العصية عن التفسير، أسرع كل رجال الحرس الجامعي وكأنهم يقومون بعملية فدائية، نزعوا الصورة من مكانها ثم جروا مسرعين، لم يتبعهم أحد، كان مجرد ظهور الصورة واختفائها قد أحدث في الجو تأثيرًا غريبًا، توتر الجميع وبدا على كل واحد منا كأنه يريد أن ينتهي من هذه اللعبة التي توشك أن تتحول إلى كابوس، جاء «الكوتش» طاف على كل الشعارات وقرأها بصوت عال ثم صاح «كله كلام فارغ»، واختفى سريعًا، ظل المدرج الكبير مغلقًا والحارس الذي يقف على بابه صارم الوجه، ظهر عميد الكلية أخيرًا يرتدي المعطف الأبيض يحاول تثبيت النظارة على أنفه، صاح في عصبية أنه لا يفهم في السياسة ولا يهتم بذلك، صحنا فيه نطالب بفتح باب القاعة فاختفى هو أيضًا، لمحت علاء الحماقي مرة أخرى، كان وجهه قد ازداد شحوبًا وأصبحت عينيه أكثر تسلطًا وظلت قامته الطويلة تميزه عن الجميع، صعدت البنت المنكوشة الشعر فوق منضدة التشريح وأخذت تحرض الجميع على اقتحام القاعة بالقوة، انكسر أول لوح زجاجي، لا نعرف من الذي قذف بالحجر الأول، وظهر العميد فجأة وأمر الحرس بفتح باب القاعة، وتدفقنا إلى الداخل ونحن ندمدم في أصوات غاضبة مكبوتة،أزحنا الهواء الراكد وملأنا المدرج بحرارة أنفسنا، جلسنا متلاصقين وقد حولنا الغضب وشدة الانفعال إلى كتلة واحدة، ودخل العميد حائرًا ولم



يجرؤ على الصعود إلى المنصة، أحضر له أحد الحراس مقعدًا، جاء الأساتذة وجلسوا ملتصقين بجانبه، بدأنا جميعًا نغني بلادي.. بلادي، لك حبي وفؤادي، ولا أعرف كيف تجاهلنا كل الألحان الجديدة وأخرجنا هذا اللحن من أعماق ذاكرتنا، انتقلت الشعارات من فناء الكلية إلى جدران القاعة، غطت حتى السبورة، بدت خطوطها الملونة أكثر وضوحًا وكلماتها أكثر فهمًا، صاح العميد يطالب بالنظام، فصاح علاء الحماقي أننا هنا لأننا ضد النظام، وأفزعت التورية التي في الكلمات العميد فاصفر وجهه وجلس صامتًا، ولكن كلمات الحماقي كانت بمثابة الحجر الأول الذي ألقي فبدأت كل الدوائر في الاتساع، صاح الحماقي، أن الشعب لم يكن موجودًا في الحرب، هزم قبل أن يوجد، اختطف الشيخ «مؤمن» الميكروفون ليصرخ، أن السبب هو أننا ابتعدنا عن الله فابتعد عنا، رد أحد الطلبة ساخرًا، ابتعد عنا واقترب من اليهود، وفجأة تماسكت الأيدي، وتقدم أحد الحرس ثم تراجع، وقفز علاء الحماقي بوجهه الشاحب وأشار بيده فسكت الجميع، عاد الجميع يصرخون، يتساءلون عن السبب فيما حدث؟ وكيف الخروج من المأساة التي نعيشها جميعا، هل هناك وسيلة للخلاص السريع، ثم وجدت نفسي أقف على المنصة والميكروفون في يد والقصيدة في اليد الأخرى، تحولت كل الوجوه المحتشدة أمامي إلى وجه واحد، تذكرت شوقي إليك ومرارتي منك يا فاطمة، أخذت أصرخ بالحروف دون أن أحتاج إلى النظر في الورق، لوحت بقبضتي، وراقبت رذاذ فمي وهو يتطاير متشكلًا مع الكلمات المنطوقة،



ضياع الأحلام يا فاطمة، التاريخ الذي علينا أن نعيد نبشه من جديد لعلنا نعرف من أين بدأت جرثومة الخديعة يا فاطمة، الخوف من مواجهة الشمس والذات والجروح المطمورة بالرماد يا فاطمة، الآباء الذين يحنون علينا بيد ثقيلة الوطأة وكلمات معسولة شديدة الزيف ويطلبون ثمن رعايتهم الأبوية دمًا طازجًا وأعمارًا بلا ثمن، لم أتوقف، سمعتهم يصفقون ويطالبونني بالإعادة ولكن لم أتوقف، رأيت وجوههم أخيرًا، وصرخ فيّ العميد أن أهبط، ورأيت سلوى جالسة في أحد أركان المدرج تتأمل كل ما يدور في هدوء، كنا في نظرها مجرد نوارس غاضبة وملعونة، تسبح أمامها في فضاء القاعة الضيق، صعد بعض الطلبة ووقفوا خلفي، ابتعد الحرس، فأعدت قراءة القصيدة مرة أخرى وأنا أرتجف، هبطت، رأيت وجه سلوى قد ازداد شحوبًا، وعلاء الحماقي يتأملني، صعد رجال الشيخ «مؤمن» واشتبك الجميع بالأيدي، وتحول كل شيء إلى فوضى، اندفعنا إلى خارج المدرج، وصرخنا، ووضع علاء الحماقي يده على كتفي وهو يقول: هل يمكن أن نجلس معا؟

كنا نعيش أيامًا لا يمر فيها الزمن ولكنه يموت، تتحلل الساعات، وتتعفن الدقائق ويتحول كل شيء إلى غبار رمادي ينتشر فوق صفحة النهر كالريم فتختنق الأسماك ويتناثر ورد النيل، قال لي أبي: السياسة لعبة خاسرة، ولا أدري كيف عرف أنني قد بدأت ألعب أول حركة فيها.

في هذا المساء الخريفي كان كل شيء هادئًا، ولكن الظلام كان كثيفًا، ذرات تجمعت من كل الأمسيات المعتمة ومنعت كل



شيء من أن يعطي تألقه الكامل، نجوم نصف مطفأة وقمر غارق في المحاق، وسحب ضائعة، كل شيء يبدأ دائمًا بمثل هذا الخفوت، كان من الغريب أن نلتقي أنا وعلاء الحماقي في هذه الليلة، وأن نسير معًا في شوارع المدينة التي يجعلها الظلام أكثر اتساعًا ويجعل بيوتها أقل بؤسًا، ومن بعيد كانت تتناهى الأصوات، كأنها تحاول أن تعيد ترتيب كل ما حدث، همهمات مختلفة من الدهشة والخوف والتوجس، لم نكن ندري ماذا نفعل بالضبط غير أن نواصل السير على غير هدى وبلا هوادة في دروب المدينة على الأسفلت ووسط التراب والطين، ابتعدت فاطمة الآن، وأصبحت المدينة تخصني وحدي، ولا عزاء، قلت فجأة:

ـ أشعر بالخوف الشديد، أحس أنني أسير عاريًا، ولا أعرف كيف أحمي جلدي.

قال علاء: كلنا نشعر بالخوف، ولكن، هل هذا شعور طبيعي؟

كنت أرتجف دون أن أفهم معنى كلماته، دون أن أفهم معنى ما حدث كله، قلت:

ـ ترى هل أخطأ عبد الناصر في حقنا، أم أننا نحن الذين أخطأنا في حق أنفسنا، لماذا آمنا به إلى هذا الحد، وهل يا ترى آمن هو بنا..؟

أسئلة قديمة، مريرة لدرجة لا يمكن الإجابة عنها أو التملص منها، قال علاء وكأنه يحلم، وكأن كلماته هي الليل الذي يحيط بنا ويلف المدينة فيجعل كل شيء رهيفًا ولا واقعيًا وعصيًا على

التفسير، ظلال وأضواء شاحبة وبكاء بعيد وتراتيل غامضة ووميض غير مستقر، وشذرات من ذكريات الخوف:

ـ أتدري ماذا أراد عبد الناصر منا أن نكون، عشبًا أخضر، مزدهرًا ويانعًا، ولكنه عشب، متشابه العيدان والأوراق، العشبة تشبه العشبة بلا أدنى اختلاف، ننحني جميعًا أمام العاصفة، ونخضع للقص والتشذيب، ونمتص نوع السماد الذي يوضع لنا، لم يرد منا أن نتمايز أن تخرج منا أزهار برية أو أحراش مليئة بالأشواك أو حتى أشجار تنبت النبق والحصرم، كان يحرص على تغذيتنا بالسماد المناسب ولكنه كان يقصنا في الوقت المناسب أيضًا، وفي بعض الأحايين كان يشبه الأب المهووس الذي يعتقد أن أولاده لن يبلغوا أبدًا، لذلك كان يخاف علينا من نوبات الجفاف، وغلاء الأسعار وتطرف الأفكار.

صمت فجأة، اندفعت مجموعة من الناس من شارع جانبي وهم يصرخون في لوعة، رجال ونساء وأطفال، تحركوا مثل كتلة من الظلام، أضافوا رجفة أخرى لجسدينا، حاول كل واحد منا أن يرى وجه الآخر ولكن الظلام كان شديدًا، هل كنا نبكي، نتحدث بهدوء بارد وعقلانية مروعة، أحسست بالسخرية وأنا أقول بعد أن اختفى الجميع وساد هدوء هش:

ـ هل كان هذا من حقه، من الذي يريد أن يحكم أرضا جافة ذات عشب ميت، المدهش أنه لم يكن يرانا، هل رأيته وهو يتطلع إلينا



ويرفع يده محييًا، كيف كان يمكن أن يرانا ونحن أمامه بالملايين، ذات مرة وقفت أنا وبعض زملائي في استقباله حين زار المدينة، عندما اقترب منا صرخنا نهتف باسمه فالتفت إلينا، ولكن، هل رآنا حقًّا، هل كان يهبط إلينا وفي نيته أن يرانا؟..

كنا نخوض في الليل، وسط الأجساد المزدحمة التي تتدافع من حولنا، وجوه معروقة لا يوجد تمايز بين ملامحها، ذات صوت واحد متشابه ترتفع وهي تهتف باسمه، الكلمات نفسها، والإيقاع نفسه، لا صوت يعلو، لا صوت ينخفض، لا صوت يتمايز، حتى هذه اللحظة، رغم هذه الدرجة من الإحساس بالحزن والافتقاد، لم تكن الأصوات تتمايز أيضًا، لا صوت يشبه تلاطم غصون الشجر، أو ارتطام الموج، أو انكسار السعف، مجرد عشب يهمهم وهو يحني رأسه تحت وطأة الريح العاصفة، قال علاء الحماقي:

ـ كان هو الشجرة الوحيدة بيننا، يقف منتصبا بجسده العسكري القوي الذي لم يؤثر فيه أي حصار، يرفع يده إلى أعلى مثل النخيل المصري المقدس المرسوم على جدران المعابد ثم يبدأ الحديث، صوته رائع، قوي ناضج، أحيانًا يهدر غاضبا مثل فرعون جامح، ويخفت أحيانًا مثل فلاح لا يسد رمقه إلا الخبز اليابس والجبن، ثم يقول نكتة عابرة، وعندما يزوم العشب ضاحكًا يتذكر أنه شجرة فيعاود الوقوف منتصبًا.

من منا الذي كان يتحدث، ومن منا كان يستمع إلى الآخر، وهؤلاء الذين يندفعون حولنا ويختفون هل كان في حالة تسمح له بسماع أي صوت آخر، قلت في صوت حاولت أن أجعله واضحًا:



-غريب أمر هذا الرجل، لقد قبض على أبي ومع ذلك لم أقدر على كراهيته بل إن أبي أحبه أيضًا عندما استطاع بفضله أن يدخلني كلية الطب كما يفعل الأكابر بأبنائهم، كان يضربنا بشدة فنلجأ إليه لنحتمي به، حتى داخل السجون، وهم تحت سياط التعذيب كانوا يهتفون باسمه، كانوا يعتقدون أن ما حدث هو نوع من سوء التفاهم المرير.

أخيرًا أصبح من المستحيل أن نسير وحدنا، امتلأت كل الطرق بكل الناس، شيء ما انكسر فجأة، تسربت من ثقب الروح كل أحزان الفراعنة القدامى، اختلطت آيات القرآن بتراتيل من كتاب الموتى، وحاولت أنا وهو أن نهرب إلى أي شارع جانبي ولكننا تلاطمنا في الأجساد المظلمة، مررنا بأحد المقاهي وهو يطفئ أنواره ويستعد للإغلاق ولكنني قبل انطفاء الضوء الأخير نظرت إلى وجه علاء فوجدته شاحبًا ولامعًا من أثر الدموع، وقبل أن نغرق في الظلام مرة أخرى سألت نفسي، ترى هل لمح وجهي الشاحب اللامع أيضًا؟

كنا نتجه إلى البدروم، الملجأ الأخير، المكان الذي ذهبت فيه مع علاء لأول مرة بعد المؤتمر السياسي في الكلية، كان يسكنه طالب يسبقنا بعامين، واصلنا الانحدار، لعل هذه الدرجات المؤدية إلى أسفل تعزلنا عن أصوات الجميع، كنا واثقين من أننا سوف نجد بقية المجموعة في انتظارنا، وبقايا الأقلام الملونة التي نكتب بها الشعارات ومجلات الحائط وبقايا الورق المقوي والمطبوعات «الماستر» وصيحات الغضب والاحتجاج، سنجد كل شيء متناثرًا، وسط الجماجم المدهونة «بالسبيداج» اللامع، والعظام الطويلة



الملونة بالأحمر والأزرق، وكتب «جراي» و«كانتجهام» والباطنة والسياسة والاقتصاد، كل شيء سوف يكون معدًّا كأننا سنتقابل ونتناقش في مسألة ما، ونستمع إلى آخر أغنيات الشيخ «إمام» ذلك الضرير الذي رأى كل شيء برغم عمى عينيه، أو ندبر مؤتمرًا، أو اجتماعًا، أو مظاهرة صغيرة تطوف داخل الكلية قبل أن تخرج إلى شوارع المدينة، كنت قد تتبعت علاء الحماقي منذ اليوم الأول، أحسست أننا داخل لعبة غريبة، مليئة بالبهجة والخوف، من يومها ونحن نذاكر ونلهث ونحاول أن نمسك أهداب الحلم الذي ضاع.

طرقنا الباب بنفس الطريقة المعينة التي تعودنا أن نطرقه بها، فتح الباب، كانوا جميعا في انتظارنا، كانت عيونهم محمرة وزائغة، كل واحد جفف وجهه وأعطاه قناعًا من الصلادة في مواجهة الأخرى، نظرنا إلى بعضنا وكأننا قد اكتشفنا فجأة الحقيقة، وكان علاء الوحيد الذي تحدث وهو ينهد جالسًا:

ـ من الذي يصدق أنه مات؟

من الذي يصدق أي شيء، رغم أن الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة، لأنه نوع من الغياب الذي عانيت منه طويلًا، بدا كل شيء قد هدأ فجأة، كل اللحظات أصبحت نوعًا من الترقب والانتظار، ثم أنني رأيت مدرسة الرسم القديمة، نحيلة وترتدي السواد وشعرها الناعم متهدل على كتفيها بلا اهتمام، لم تغادر وجهها مسحة الجمال القديم، إلهة منفية، تقف على أعتاب النهر الغائض، تتأمله أو ربما



تبحث عن شيء وسط الطحالب العطنة وجثث الكلاب وورد النيل والعوامات التي وضعت كي تمنع الألغام العائمة من الوصول إلى الكوبري، رحلت النوارس بعيدًا، والشمس تتقلب على وجهها النحيل وتعطي شعرها لمعة بنية داكنة، مثلما كانت تتقلب على وجوه آلهة الفراعنة القدامى، فينقلب الزمن وتبدأ رحلتهم إلى عالم لا يحده مكان ولا زمان، كنا جميعًا في حاجة إلى انقلاب الزمن، لعله يحول كل نيران الألم إلى رماد من السلوى والعزاء، هل كانت تبحث عن مدرس التاريخ، لم يكن النهر يوحي بأي أمل، من منهما كان يبحث عن الآخر، وكيف تباعدت الطرق في هذه المدينة الصغيرة التي تخنقنا بين أضلاعها، هل أتقدم وأخبرها أنني رأيته في حانوت الكتب القديمة متربًا ومعفرًا يبحث عن كتاب فيه تاريخ بلا أكاذيب؟ هل يمكن أن تسمعني أو حتى تأبه بوجودي؟ كان وجهها ذائبًا في التأمل، غافلًا عن كل شيء ولم أجد بدًّا من أن أمضي بعيدًا، ربما لم تكن تبحث عنه أصلًا، ومثل هذا النهر لا يمكن أن يحمل أزوريس مرة أخرى.

أرسلت قصيدة إلى إحدى المجلات، خرجت من شرنقتي الضيقة بحثًا عن ضوء جديد، قصيدة حزينة فيها مرثية للنفس، وظللت أترقب المجلة لمدة ثلاثة أعداد فلم تنشر، بدأنا في الكلية نصرخ من أجل الحرب من جديد ولكن أصواتنا كانت قد أصابها الإنهاك، كل شيء يتبدل نحو نوع جديد من الحياة، انكببت على المذاكرة، وخيل لي أنني نسيت فاطمة حقًا، خفت وطأة الجرح



القديم ولم يعد الألم القديم بالحدة نفسها، وكانت هناك رحلة إلى الإسكندرية كي نزور الحجر الصحي وبقية معالم المدينة، وعندما رأيت أبي جالسًا في الركن وأمي في الفراش لم أجرؤ على طلب قيمة الاشتراك، قال لي علاء الحماقي وهو يرتب نفسه:

- سأعرفك في الإسكندرية على بعض أصدقائنا من الطلبة التقدميين.

قلت في صوت خافت: لن أكون معكم، عندي بعض المشاغل، تركته وانصرفت ورأيتهم جميعًا وهم يذهبون لدفع قيمة الاشتراك ورأيت الكشوف وهي تمتلئ بالأسماء، إلا اسمي، وبعد يوم جاء علاء الحماقي مرة أخرى قال لي:

- يجب ألا تفوتك هذه الرحلة، لقد اتفقت مع بقية الزملاء أن نكون يدًا واحدة، سوف ندفع قيمة الاشتراك.

صحت فيه بصوت مختنق: كلا..

شعرت بمزيج من الخجل والغضب، أريد وجهه وهو لا يدري كيف يعتذر، أحسست بمدى تسلط ذلك الوجه الشاحب والقامة الطويلة، لم أكن أحب ذلك، سرت وحيدًا، ويبدو أنه لا حدود لهذه الوحدة، جلست بجوار أمي وأنا أحدثها عن ساعات الدراسة، وعن المرضى وأشكال العينات تحت مجهر الميكروسكوب، وكانت تبتسم وتمد يدها لتدخلها في شعري، تحاول أن تجعلني أحس أنها تفهم كل شيء، ثم حدثت المفاجأة، نشرت المجلة قصيدتي،لم أصدق عيني وأنا أرى الحروف السوداء تحمل اسمي،



كأنها لا تخصني، اكتسبت الكلمات وجودها الخاص وقوتها الخفية، حملت المجلة وأخذت أجري وتمنيت في هذه اللحظة أن أرى فاطمة وأن أقرأ عليها القصيدة بصوت مسموع، لعلها تعود من غيابها الطويل، قرأتها صامتًا عشرات المرات، وحلت القصيدة مشاكلي دون أن أدري، أخذت أول مكافأة لي وأصبح معي اشتراك الرحلة، لم أصدق نفسي وأنا أعد الجنيهات أمام المشرف ثم وأنا أقرأ اسمي في نهاية الكشف.

حملت حقيبتي الصغيرة وقفزت إلى الأتوبيس في فرح، كانوا جميعًا يغنون ويصفقون، ورمقني علاء الحماقي في دهشة، لم يتوقع حضوري ثم رأيت سلوى، كان المقعد الذي بجانبها خاليًا وقد وضعت عليه حقيبتها البيضاء، ابتسمت ابتسامة صغيرة وحملت الحقيبة فرأيت نفسي أجلس بجانبها دون أن أجرؤ على التفوه بأي كلمة، انطلق الأتوبيس زاحفًا فوق الأسفلت، ورأيتها تلتفت إليّ وهي تقول:

ـ فلنعقد صفقة، تقرأ لي قصائدك وأعطيك بعضا من السندوتشات التي معي.

كانت هذه بداية الرحلة، وعانيت من الخجل والتردد وأنا أتلو عليها أولى الحروف، ثم بدأت أذكر لها قصائدي الخفية التي لم أطلع عليها أحدًا، عذاباتي الصغيرة، افتقادي، غرامي الحزين، تداخلت الحقول الخضراء في كلماتي، وتطاول الشجر، ورأيت



الطيور تحلق عاليًا بعيدًا عن لحظات الأسى والألم، ورغم ضجة الأتوبيس فقد ظلت تستمع إليّ في صمت، تكتفي فقط بهز رأسها كي تقول لي إنها معي وقالت أخيرا:

ـ يا لها من قصائد حزينة..

وأكلنا معًا السندوتشات ببطء ونحن نراقب الحقول الخضراء وهي تستدير مبتعدة، عادوا للغناء أو ربما لم يتوقفوا، كان «الكوتش» هو الذي يقودهم هذه المرة، أصبح معنا في نفس العام الدراسي ويبدو أننا سوف نتجاوزه كالعادة، فكرت في نفسي، لقد عرفت كثيرًا، وخسرت كثيرًا، هل أن الأوان لأن أجرب حياتي بعيدًا عن انتظارك يا فاطمة؟

البحر واسع، أخضر اللون، جسد خرافي ممدد، عضلاته لا تكف عن التقلص، اندفعت الريح نحونا حاملة نتفًا من السحاب الأبيض الرقيق، كنت أريد أن أخط على الرمال اسم فاطمة مثل كل العشاق الذين خاب سعيهم،ثم يأتي الموج ويمحوه،ولكن سلوى كانت قريبة مني فلم أفعل.

ازدحم الفندق الصغير بنا، وشممنا رائحة المطهرات وسط غرف الحجر الصحي الواسعة القديمة، وسرنا على الطرق الضيقة التي تمتلئ شقوقها بالملح، وتجولنا على أرصفة الميناء المرصوفة بالأحجار القديمة، وركبنا الدور الثاني من الترام، وسرت بجانب سلوى في شوارع «بحري» الضيقة، حدثتني عن نفسها قليلًا وعن أبيها كثيرًا، ماتت أمها وهي صغيرة، فنشأ بينه وبينها نوع من الصداقة



الحميمة، تكسرت بينهما حواجز السن، خاصة أنه لم يرض بالزواج بعد موت أمها، قالت: إنه أحضر لنا كل شيء تقريبًا ولكنها مازالت تشعر أنه ينقصها الكثير من الأشياء.

في المساء اكتشفنا أن «الكوتش» قد أعد العدة لحفلة تنكرية، كانت معه حقيبة كبيرة مليئة بالجلاليب والطواقي والطرابيش، عدته التقليدية في كل رحلة، قام بها عشرات المرات حتى أصبح يحفظ كل الطقوس، استطاع أن يعد حفلة صاخبة جعلتنا نضحك على أنفسنا، كنا في ثيابنا الجديدة كمن يرتدي جلدًا يتمنى أن يمنحه شكلًا جديدًا من أشكال الحياة، انسحبت سلوى من الحفلة وهي تهمس لي:

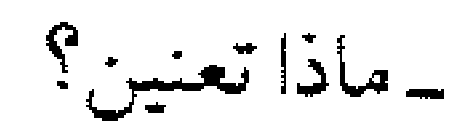
ـ تعال لنرى الإسكندرية في الليل.

لم أكن أعرف أن ليل الإسكندرية بهذه الرقة، والأضواء تتألق على الأسفلت اللامع فتصنع سماء أخرى سوداء ولكنها قريبة المنال، مدينة صالحة للأحلام، بدأ المطر يهطل في رذاذ خفيف، يريد أن يغسل وجه المدينة قبل أن نلقاها، زحفت السيارات في هدوء، أسرعنا بالاحتماء داخل أحد المحلات، أكلنا «سندوتشات» صغيرة حتى توقف المطر فواصلنا السير، كانت قطرات الماء التي مازالت عالقة في الجو قد غيرت كل شيء، لفت المدينة في وشاح مبلل من الضباب ولمسة من الأسى، قالت لي فجأة:

ـ لا أريد أن أتدخل في حياتك، ولكني خائفة من أن تضيع نفسك.

كان صوتها جادا فتوقفت ونظرت إلى وجهها وأنا أقول:





ـ ماذا تعنين؟

ـ علاء الحماقي وجماعته، أفكارهم الخطرة يمكن أن تقودكم إلى كارثة..

ـ أنت تخافين من السياسة..

ـ ليس أمامنا إلا المذاكرة، لا شأن لنا بما يحدث خارج الكلية..

قالت ذلك بصوت خافت وحازم، كانت الليلة أرق من أن نفسدها في المناقشة، وقفنا على حافة البحر وتأملنا الزبد الذي يفور على قمة الموج، مثل ملكة هيلينية غريقة تبحث عن أرض، كلما أرادت أن ترسو على شاطئ ردها الموج إلى داخله مرة أخرى، ليلة مثل هذه يمكن أن يتخلق فيها أي شيء، يخرج الحاضر من أسر الماضي ولا يعود إليه، ربما لا تعود السفن التي رحلت بعد أن رست في موانئ، أخرى ورأت أناسا جددا، ربما كان في كل ما أعاني منه بعضا من الوهم، مثل كل الملوك الذين جلسوا على هذه الصخور وأنشدوا المزامير وحسبوا أنهم قد امتلكوا العالم، تركنا البحر، خضنا في الأزقة، شممنا رائحة السمك المبهر بالكمون، خرجنا إلى عراء المدينة حيث المباني تحمل آثار الذين رحلوا، يمتد أمامها صف من أشجار النخيل الملكي، صعدنا وهبطنا منحدرات المدينة الناعمة الملتوية مثل انحناءات أنثى ناعمة، تحدثنا بخفة ونزق، لم تسألني عن أهلي، ربما كانت تعرف عنهم، ربما لم تشأ أن تتغلغل في حياتي هكذا منذ المرة الأولى، ولكنها حملتني إلى عالمها بشيء من التحفظ.



في الفندق كانوا مازالوا يغنون أغنية «العتبة جزاز» ويصفقون في نشوة، وجلسنا وسطهم نصفق بحماس، وتسربت الحمرة إلى خدي سلوى واحدى صديقاتها تتحدث إليها، وأخذني علاء الحماقي بعيدًا وقال وهو يقضم طرف سيجارته:

ـ أصبح الشعراء الآن يهتمون بالبرجوازيات الصغيرات..

لم أرد عليه، أحسست أنه مغتاظ لأنني ظفرت وحدي بهذه الجولة المسائية، وكان الصباح في انتظارنا أنا وسلوى أيضًا، صعدنا معا فوق مدرجات قلعة قايتباي، ولامسنا أجنحة النوارس، كانت تخرج من كوات داخل جدران القلعة، كانت أحجارها البيضاء وقد دبت فيها الحياة، تأملنا القوارب الملونة وشباك الصيد القديمة ورائحة اليود وأسماك المتحف الملونة تحت الضوء المعتم والمدافع الصدئة على طرف البوغاز وعمود السواري والأزقة المرصوفة بالأحجار ورنين سنجة الترام والمجاذيب المتناثرين على الكورنيش قد ضفروا شعورهم في جدائل رفيعة وأخذوا يدخنون أعقاب السجائر في أنفة، كل هذه الأشياء أعطتنا نهارًا مختلفًا حتى أنني تذكرت غياب فاطمة وتساءلت هل هذا هو الغياب النهائي وهل تكون سلوى هي نوع من التعويض؟

وقفنا نلهث أمام الفندق الأبيض ذي الطراز الإنجليزي والذي يطل على البحر، كان الجميع يبتسمون لنا، اشتريت لها باقة صغيرة من القرنفل الأحمر، ثم رأينا الرجال الثلاثة وهم يخرجون من بوابة الفندق، يتوسطهم شاب نحيل أسمر اللون، شاحب إلى حد مرعب،



خيل إليّ أنني أعرفه، كان يسير ببطء وقد وضع ذراعيه على كتفي الاثنين اللذين يسيران بجانبه ويمدان أيديهما كي يسنداه، شعره اللامع المدهون بالفازلين يتهدل كلما سقطت رأسه إلى أسفل، خيم الصمت عليّ أنا وسلوى ونحن نراقب المشهد، اتجهوا إلى سيارة سوداء واقفة في انتظارهم، أشار لهم الشاب العليل أن يسروا به عبر الشارع نحو البحر، ساروا ببطء، وتوقفت السيارات وكف البحر عن الوشيش، وظل وجهه إلى أسفل ثم أخذ يسعل بشدة كأنه يريد أن ينتزع شيئًا من داخل صدره، ثم بصق فوق البلاط المربع بصقة داكنة فيها شيئا من أنسجته، ورفع رأسه في لمحة خاطفة كي يرى البحر، هتفت سلوى فجأة في خفوت وانبهار وخوف:

- إنه عبد الحليم حافظ.

أسند يديه إلى السور وطلب منهما الابتعاد قليلًا وحاول أن يقف منتصبًا في مواجهة ريح البحر، رفع رأسه يبحث فيها عن أنفاس جديدة للحياة، كان لون جلده داكنًا فوق العادة، ولم تفلح الريح في إزالة حبات العرق التي تجمعت على جبهته، أصبح ضئيل الحجم، تخيلته وهو يقف منتصبًا أمام الميكروفون، يلوح بأصبعه، يضحك لتعليقات الجمهور في خجل ريفي ثم يغمض عينيه، ويفرد حنجرته ويحاول الاستيلاء على قلوبهم، كان هذا الشبح المريض شيئًا مختلفًا، حاولنا الاقتراب ولكن أحد الرجلين رمقنا بنظرة صارمة، التفت عبد الحليم نحونا وابتسم ابتسامة واهنة وهو يحاول التماسك، أشار لهما أن يسنداه مرة أخرى، قاداه ببطء إلى السيارة



السوداء، أجلساه في المقعد الخلفي ثم انطلقت السيارة، خيم علينا وجوم غريب حتى أننا لم نستطع الكلام، وسرنا ببطء وقد انتهت فجأة رحلتنا الصباحية، وانتهت الرحلة كلها.

حزمنا حقائبنا، وقالت لي سلوى في خجل شديد:

ـ أريد أن أعطيك شيئًا، يمكن أن يساعدك على كتابة قصائد جيدة..

ومدت يدها نحوي، كانت تحمل علبة مفتوحة، في داخلها قلمان ذهبيان بريقهما ساطع، نظرت إليها في انبهار حقيقي وهتفت:

ـ لا أستطيع أن أقبلها.

قالت مبتسمة: لماذا، إنها هدية لصداقتنا.

ـ لا أستطيع.. لا أستطيع أن أقدم لك مقابلًا لها..

ـ لقد قدمت لي هدية بالفعل، هل نسيت زهور القرنفل..

ـ هذا شيء مختلف.

ـ إنه مجرد تعبير عن الصداقة، هيا، لا أريد أن يعرف الآخرون أنني قدمتها لك.

رأيتهم يقتربون فأسرعت بإخفائها في جيبي، ولكن أنفاسي ظلت مضطربة، أحسست أن في جيبي قطعة من الجمر، وأدركت فجأة أنني عاجز عن التصرف، لم أكن لأكتب قصائدي بقلم من ذهب، أحسست أن هذا ليس وقت الشعر بأي حال من الأحوال، طوال الرحلة والهدية الغريبة تلسعني دون أن أدري كيف أردها



وأنظار الجميع مسلطة علينا، لماذا قدمت سلوى لي هذه الهدية الثمينة، هل أكون حسن النية فأعتقد أنها أرادت أن تبين مدى قيمتي عندها، أم سيئ النية فأوقن أنها أرادت أن تستعرض ثراءها عليّ؟ هدية مؤلمة، بداية تشبه طعنة خفية، وحتى عندما عدت إلى البيت وجلست وحيدا مجهدًا تعجبت أن يوجد مثل هذا الشيء المتألق وسط عتمة الغرف والأنفس المريضة، أخفيتها تحت تلال الكتب، لعل البريق ينطفئ ولعلني أنساها.

الأيام الباقية من العام الدراسي كانت قليلة، ولكنها كانت أيضًا غير عادية، كانت الرحلة مجرد إجازة قصيرة من مشاعرنا التي مازالت غاضبة، مرة أخرى كذبوا علينا في كل وعود الحرب التي قالوا إنهم سيشنونها، بدأت الصرخات تملأ ساحة الجامعة كل يوم، مجلات حائط، نشرات، مطبوعات «ماستر»، مظاهرات تشتعل فجأة بين المحاضرات، وأصبح من الطبيعي أن نذهب إلى الكلية كل يوم عبر أروقة من أجساد الأمن المركزي المحتشد بالدروع والخوذ والعصي الثقيلة، كنا نجتمع كل ليلة في البدروم، نكتب المجلات والشعارات ونذاكر، وقال علاء الحماقي إن الوقت قد حان كي نحضر لمؤتمر سياسي تشترك فيه كل الكليات وأن نصدر بيانًا يوقع عليه الجميع مطالبين بضرورة حسم الحرب، وألقى علاء الحماقي مفاجأته:

- سوف يحضر الشيخ إمام بنفسه ويغني، سيثير هذا حماس الجميع.



هللنا جميعًا، ولكن وسط هذا الفرح فوجئنا بأحد الزملاء وهو يهتف:

- أليس هذا انتحارًا..

التفت إليه الحماقي غاضبًا، والتفتنا نحن إليه بدرجة الغضب نفسها، وعاد هو يقول في إصرار:

- الأمن المركزي في الخارج، والجماعات الدينية في الداخل، أين المفر؟!

كنت أنا هذه المرة الذي صحت فيه محتدًا:

- السلطة تدعم الجماعات الدينية، ولكن القاعدة معنا، وفي موقف وطني مثل هذا لا يمكن أن ينقسم الجميع.

رأيت الحماقي ينظر نحوي في إعجاب، وهبطت حدة الغضب ولزم الزميل الصمت في خجل بالغ.

سهرنا طوال الليل ونحن نحضر الشعارات، وعندما أقبل الصباح جرينا إلى المحطة لنستقبل «الشيخ إمام» الذي كان قد نهض منذ الفجر، كما علمنا فيما بعد، فأذن في مسجد «حوش قدم» ثم ركب القطار بعد ذلك، كان شيخًا نحيفًا، يهبط من القطار وهو يحمل عوده مثل نسمة صباحية واهنة، أكلت حصائر السجن جسده، وتداخلت رطوبة المسكن الحجري القديم في عظامه، كان يخطو معنا، يوشك دائمًا أن ينكفيء من فرط السرعة، يعلق على ذلك ساخرًا من عماه المبصر ومن عماء المبصرين، جلده كان



مشدودًا على عظامه كأن خلاياه كلها في حالة من الاستفزاز الدائم، كان متألما لأن رفيقه الشاعر أحمد فؤاد نجم ليس معه، قبضوا عليه وحده وتركوا الشيخ إمام في الخارج، وقد أغاظه ذلك كثيرًا، وسعى جاهدًا لإثارة الشغب حتى يقبضوا عليه لعله يكون معه في نفس الزنزانة، ولكنهم لم يأبهوا به ولم يقبضوا عليه، زاده ذلك غضبا أكثر فأخذ يلبي كل دعوة تأتي إليه من أي جامعة غاضبة، كنا نسير حوله متأهبين، حضر العديد من طلاب الكليات الأخرى، وازدحم المكان بالشعارات الغاضبة، وتعطلت الدراسة بشكل تلقائي وانصرف الأساتذة الكبار مسرعين بينما احتمى الصغار بمكاتبهم، هذه المرة لم يقدر أحد أن يمنعنا من اقتحام المدرج الرئيسي، ووضعنا الشيخ إمام على المنصة منذ اللحظة الأولى حتى يغني «شط القنال شطي، والأرض عربية»، فأشعل كل صيحات الغضب ضد الجميع، صفقنا في جنون، ورددنا معه اللزمات، وتمايلنا، وقاطعناه بالهتاف فابتسم وسكت ثم واصل الغناء، كان بجسده النحيف، وآلة العود الوحيدة التي يتكئ عليها قادرًا على الاستيلاء على الجميع، أخذنا من أنفسنا وأطلق حنجرته فاختلط الغضب بالحب، وحدة الثأر بمرارة الفراق، كانت نبراته مليئة بذلك الشجن الخاص: أرض شراقي، وشقوق غائرة، ونباتات لا يكتمل نموها، وأحلام لا تموت، وغراميات قصيرة الأمد، وحرقة للعدل، وفرحة بالغد، كانت تفاحة آدم في عنقه شامخة كأنها أنف أخرى، ويضم شفتيه ويغرس أصابعه في الوتر ويدب الأرض بقدمه فينبعث النغم الغريب آسيان وآسرًا، كيف دخلت هذه الصور في عالمه المظلم،



كيف تشكلت واكتسبت ألوانها الحقيقية، وكيف أحس بها كل هذا الإحساس؟ سكت أخيرا فظللنا صامتين، كانت بقايا ذبذبات صوته مازالت عالقة في الجو، وعندما بدأ يمسح عرقه مجهدا أخذنا نصفق في جنون ونطلب منه المزيد، قال ضاحكا: إن هذا مؤتمر سياسي وليس غنائيا، فتذكرنا جميعا أننا لم نبدأ بعد.

بدأت بإحدى القصائد، رأيت سلوى وهي تنسحب ممتقعة الوجه، وقف علاء الحماقي ليعرض مشروع البيان الذي سوف يوقعه الجميع، وبدأت مناقشة حرة واسعة وساخنة بين الجميع، وفي الخارج زمجرت عربات الأمن المركزي الشبيهة بالزنازين المتحركة، ومن الباب الخارجي دخل أحد زملائنا ممتقع الوجه، هتف في أذن الحماقي:

ـ إنهم يمزقون مجلات الحائط، وينزلون الشعارات.

هتف علاء الحماقي في دهشة:

ـ ماذا، هل اقتحم الأمن المركزي الكلية؟

ـ كلا، إنهم جماعة الشيخ «مؤمن»، وبقية الجماعات.

وقبل أن نفعل شيئا كانوا هم قد جاءوا إلينا، سدوا علينا كل أبواب المدرج، متحفزين يمسكون في أيديهم السلاسل الصلبة وعصيا لها مقابض كالتي يستعملها رجال الشرطة، كان الشيخ «مؤمن» في المقدمة، يصرخ محرضا الجميع أن يطهروا الكلية منا نحن الكفرة، ثم اندفعوا في عنف بين الصفوف، رفعوا السلاسل وداروا بها



في الفضاء فأصدرت أزيزا مرعبا، كان همنا الأول أن ننقذ الشيخ إمام حتى لا يدهسوه تحت أقدامهم الغاضبة، كانوا يندفعون نحوه بالفعل بشكل ثأري، استطعنا أن ننجوا به من أحد الأبواب، ولكن الذعر كان قد ساد فوق كل شيء، تحول المدرج والطرقات والفناء إلى ساحة للضرب والعراك، معركة غير متكافئة، كنا عزلا تقريبا وهم مجهزون، رأيت إحدى المجلات التي سهرت في كتابتها ليلة أمس ممزقة إلى نصفين وملقاة على الأرض، حاولت أن ألتقطها، ولكن واحدا منهم انقض عليّ، لم أر وجهه ولكن ذراعيه القويتين حملتني من فوق الأرض وشلت حركتي، ورأيت الابتسامة الشامتة على شفتيه، ثم ارتفعت يده عاليا بالسلسلة الصلبة، وهبط الألم في أعماق رأسي، تحول كل شيء إلى اللون الأحمر، تركوني أحاول التشبث بأي شيء ثم شعرت بطعم التراب في فمي، كنت منبطحا أحاول النهوض دون جدوى تحولت الأصوات من فوقي إلى دمدمات كحيوانات جائعة، صرخ أحد الأصوات في ذعر:

ـ الأمن المركزي يقتحم الأبواب..

هل سيدوسونني تحت أقدامهم، يجب أن أنهض، حاولت فتلقيت ركلة أخرى أطاحت بي على الأرض، غمر الألم كل جسمي، سمعت أصوات أقدامهم، شممت رائحة النشادر النفاذة، الرائحة نفسها التي شممتها مع أول إضراب قام به العمال، ومازالت القنبلة في غرفتي عليها الورقة التي تشبه الزهرة، أحسست بيد تقبض على ذراعي، وصوت يقول لي، تماسك، حاول أن تنهض، يا إلهي، أهي أحلام الاحتضار الأخير؟



هناك من يدفعني، يضع يده حول خصري ويقود خطاي، الدم ينثال على عيني والضباب المجنون يحيط بي،أسمع بوضوح صوت تردد الأنفاس واللهاث، ومحاولة التقدم دون تعثر، أضع قدمي على الأرض محاولًا التوازن ولكن كل شيء ينسحب من تحتي، هناك من يرتطم بي، رائحة النشادر تملأ صدري وأنا أتشبث بالذراع الممنوحة لي، أين نحن، إلى أين نسير؟ إنني أتثاقل، العالم يطبق عليّ ولا أحد يمد يده، أفلت من اليد التي تمسك بي وأرتمي على الأرض، أسمع صوت عظامي وهي ترتطم، وصوت مفزوع يصيح:

ـ يا إلهي، إنه يموت..

وصاح آخر يهتف: ابحثوا له عن نقالة..

ترى لماذا ضربني الشيخ «مؤمن» بهذه القسوة، اللون الأسود يزحف، يأخذني ببطء إلى راحته الغامضة، أي شيء يخفف من وطأة هذا الألم، أحس ببعض الأنفاس تتردد على وجهي ولكنني أبتعد عن أي دفء، سمعتها تصرخ في لوعة:

ـ نزيف في رأسه يجب أن نوقفه..

هل هذا صوتها حقا؟ هل هذا وجه أمي، صوت أبي الأجش، ولمسة أنامل فاطمة ورقة أجنحة العصافير ونسم أعالي الصهريج وكل الأحلام التي دفعنا ثمنها غاليا، الظلام يقبل ـ الحقيقة المؤكدة ـ بلا أحلام..



أخيرا استطعت أن أفتح عيني دون ضباب أحمر، رأيت الأشكال المختلفة باهتة كالأطياف ثم تحددت معالمها في بطء، كم مرّ عليّ من الوقت، وما هذا الألم الشديد الذي أيقظني من غفوتي؟! وضعت يدي على رأسي، كانت ملفوفة مربوطة بإحكام بشريط ضاغط، تلفت حولي ببطء، أنا في المستشفى، وسط المرضى الذين كنت أتسلل إليهم، كيف جئت ومن الذي حملني؟ هل كان ذلك حقيقة أم أن أمنياتي الدفينة هي التي صنعت كل هذا الوهم؟ أم أنها تظهر كما يحلو لها دائما عندما أكون على الخط الفاصل بين الحياة والموت؟ لم يكن حولي أحد ولم يلحظني أحد، كنت مثلهم راقدا على الملاءات الصفراء المتسخة عاجزا عن الحركة.

جاءت ممرضة نحيفة من أقصى العنبر، كانت تحدث الجميع وهي ثائرة وتسبهم بألفاظ قبيحة، ولم يكن أحد منهم قادرا على أن يغضب منها، رأتني مستيقظا فوقفت أمامي وهي تهتف في دهشة:

ـ استيقظت أخيرا، حسبناك سوف تودع، لقد نزف جرحك كثيرا، وهناك سبع غرز في رأسك.

لم أهتم بحالتي ولا بعدد الغرز، قلتَ لها بصوت واهن:

ـ من الذي جاء بي إلى هنا؟

هزت كتفيها وهي تقول:

ـ قدرك، مكتوب لك ألا تموت وألا تدخل السجن، كنا نخشى أن يكون عندك ارتجاج..



ـ هل قبضوا على أحد..؟

ـ يـوووه، أصبح الطلبة الذين في السجن أكثر من الذين في الجامعة.

أغمضت عيني في تعب وإنهاك، وهتفت تطمئنني:

ـ لقد اكتفوا الآن، أنت زائد عن العدد..

ولكن السؤال ظل يلح عليّ، هل كان هذا وهما أم حقيقة، استجمعت كل قوتي كي أقنعها بأهمية سؤال:

ـ من الذي جاء بي إلى هنا؟!..

ـ وما أدراني، لقد هبطتم علينا من كل مكان، ما لكم والمظاهرات.

تركتني ومضت وهي تسب الجميع، ألم ير أحد فاطمة وهي تسندني، وهي تقود خطاي، وهي تجلس بجانب هذا الفراش وتبكي من أجلي قليلا، ألم يرها أحد؟ من الذي أدخلني في دوامة الإغماء المظلمة وانتزعتني من لحظة الرؤية التي كنت أنتظرها؟

ظللت جالسا أحدق في الباب دون أن يأتي أحد، كنت متحفزا إلى أي خطوة، وبدأ المرور، أقبل حشد من الأطباء الصغار وهم يحيطون بالأستاذ، عيونهم عليه وليس على المرضى، قرأ التذكرة الموجودة على سريري ثم نظر إليّ في امتعاض وهو يهتف:

ـ لقد نجوت من كسر رأسك هذه المرة، تابع المظاهرات وسوف تفقد رأسك كله بالتأكيد..



ودون ملاحظاته ثم انصرف وهم خلفه، أحسست بالدوار يصيبني من كثرة ما ركزت عيني على الباب، غصت في الظلام، كأنما هو قدري، كلما مددت يدي نحوها تسلل الظلام من أغوار لا أعرفها فأصابنا بالفرقة والشتات، كان هناك من يهزني، فتحت عيني ملهوفا، ولكنها كانت الممرضة مرة أخرى، حان موعد الطعام، برتقالة ورغيف أسود وخضار شكله غريب ورائحته أغرب، لم أكن أريد طعاما، قالت:

ـ كل، لم يدخل جوفك شيء منذ الأمس.

كنت أريد فاطمة، وسيلتي الوحيدة لأتمسك بأهداب الحياة، تناول الجميع طعامهم وهم ينظرون إليّ، ينتظرون اللحظة التي أنصرف فيها عن طعامي حتى ينقضوا عليه، لم أبال، كنت غارقا في حزني الخاص، من الذي أشعلها في قلبي فجأة؟ أكانت أوهام الاحتضار، أخرجت ذكراها من قلبي لعلها تساعد على المقاومة؟ ترى هل عرف أبي وأمي بما حدث؟ هل وصل إليهما خبر إصابتي؟ هل أتيا معا ورأياني ثم تركاني في إغمائي ماذا حدث؟ هل غبت عن الوعي كل هذه المدة الطويلة؟

بعد الظهر بدأ زوار المستشفى يتوافدون، زوار قلائل في البداية، دخلوا بخطوات مترددة، كأنهم يعيدون التعرف على المرضى الذين هجروهم طويلا، تعالت أصوات الثرثرة، وأخذ الأطفال يصيحون وهم يعدون بين الأسرّة، ارتفعت أصوات فتح سدادات المياه الغازية مختلطة برائحة «اليوسفي»، لم ينظر إليّ أحد، بدأت



أغمض عيني وأسترجع راحة يأسي القديمة، كنت واهما، لم تكن فاطمة، غابت ولن تعود، الأفضل أن أبحث عن بعض الراحة في ذلك الظلام المؤكد، سمعت صوتا يقول لي:

ـ ماذا بك، لماذا تبدو حزينا هكذا، هذا لا يليق بك وأنا بجانبك؟

يا لله يا فاطمة، ها أنت تدخلين زمني مرة أخرى، تجعلينه فجأة يعود إلى الوراء، أول الكلمات وأرق اللحظات، تستحضرين اللحظة النادرة التي راقبنا فيها القطط المولودة لتوها، وقد ولد زماننا أيضا، فتحت عيني فرأيتك أمامي، أشد نحافة وأكثر رقة، خفت أن أمد يدي إليك فتتبددين، ولا أقبض إلا على الهواء، شعرك القصير استطال قليلا، عيناك ازدادتا اتساعا وعمقا وحزنا، وشفتاك تحولتا إلى خطين رقيقين لكنهما قادرتان على صنع تلك الابتسامة العذبة التي لم أنسها أبدا، أهو أنت حقا، أم أنك فقط تتشكلين أمامي كي تمنحيني القدرة على الإمساك بالحياة؟ ولكنك تتحركين، تجلسين على طرف الفراش فيهتز وتنتقل الهزة إلى جسدي فينتفض، تقولين:

ـ أنت الآن أفضل، لم أحب منظرك وأنت غائب عن الوعي، قريب من الموت.

تضعين يدك على ركبتي فأحس بدفئك القديم يتسلل إليّ رغم الملاءات الصفراء، تقولين:

ـ لماذا لا تتكلم، هل جعلتك الإصابة تفقد النطق؟

فأفتح فمي وأردد اسمك يا فاطمة، يا فاطمة، غير مصدق وغير واع، ثم أقول في همس:



ـ أين كنت يا فاطمة؟

السؤال نفسه، البداية نفسها وإحساس الفرح والدهشة والخوف نفسه، يا إلهي، هل كان العالم بهذا الاتساع حتى تختفي فيه كل هذه المدة؟ لماذا لم يكن ضيقا وخانقا حتى لا يختفي أحد منا عن عين الآخر؟ قالت:

ـ رأيت بالأمس أباك وأمك، لم يرياني، كانا جالسين هنا بجانب فراشك، ولكن الطبيب أكد لهما أنك بخير، ونصحهما بالانصراف حتى تأخذ نصيبك من الراحة.

تأملت شفتيها وهي تنطق بالكلمات، تواصل الأحاديث نفسها التي لم تنقطع بيننا، قلت:

ـ لقد أنقذت حياتي يا فاطمة..

لم أكن أتوهم، أو أحتضر، قالت وهي تبتسم وتزيح الخصلة التي تهبط على وجهها:

ـ لم أقصد.. كانت مجرد مصادفة..

نظرت في وجهها فتقابلت عيوننا وعاد جسدي يرتجف، كانت كلماتها قد اكتسبت مسحة من النضج والسخرية، خيم على المستشفى هدوء غامر، صمت جميل عذب مليء بالتساؤل والذكرى والشجن، قلت لها مرة أخرى:

ـ أين كنت يا فاطمة؟



ـ على الأقـل ظهرت لك في الوقت المناسب قبل أن تدوسك الأقدام.

أزاحت خصلة شعرها مرة أخرى، كأن لم يحدث أي انقطاع في لحظاتنا معا، وكأن كل عذابات البحث والانتظار لم تحدث، لابد أنها ارتدت عشرات الأقنعة، واختفت خلف كل الوجوه، ولم تفارقني لحظة واحدة، ما كان أعذبك يا فاطمة وما أكثر عذاباتك! قلت متلهفا:

ـ كيف جئت إلى الكلية، كيف اشتركت في المظاهرة؟

نظرت إليّ في إنكار كأنما كان المفروض أن أعرف كل الإجابات دون أن أسأل سؤالا واحدا..

ـ ومن أين تعتقد أنني جئت، من كليتي طبعا أنا بصحبة وفد من كلية الحقوق.

ـ أنت في كلية الحقوق؟

ـ وما الغريب في ذلك، ها هي كتبي أمامك..

وأخرجت من حقيبتها السحرية كتب القانون الضخمة فتذكرت حقيبتها القماش وهي على ظهرها وعلى ظهري حقيبتي، هل كانت بقربي كل هذه الأيام وأنا لا أدري؟ كان هذا هو عامها الدراسي الأول، فأين تبددت كل الأعوام التي مرت؟ لم تجبني ولكنها قالت ضاحكة:

ـ أنا أيضا لم أعرف أنك قد دخلت كلية الطب، بل لم أعرف إن كنت قد نجحت في الثانوية العامة أم لا.



نظرت إليها، هل يجب أن أقولها لها في هذه اللحظة؟ هذا السؤال الذي أثقل قلبي دائما، قلت:

ـ لم تعرفي؟ أم لم تريدي مقابلتي؟

خفضت رأسها وقالت: لست أدري.

قلت فجأة وقد قررت أن أزيح هذا الشيء من على صدري:

ـ لقد شاهدت موت مصطفى، مات هنا، على أحد هذه الأسرة.

ندمت عندما رأيت الدموع وهي تنساب من عينيها، قالت بصوت مختنق:

ـ هل مات هنا، حقا؟ قالوا لنا إنه مات في الجبهة..

ـ قتل في الجبهة، ولكنه مات هنا..

ـ هل تعرف أين دفنوه؟

ـ في أحد مقابر الشهداء على أطراف البلدة.

ـ هل زرته؟

ـ زرت مقبرة السيارات، قرأت الفاتحة هناك، اعتقدت أن هذا قد يسعده أكثر.

وسكتنا طويلا ومددت أصابعي فأدخلتها في أصابعها، تشابكنا أخيرا كأن لم نفترق لحظة واحدة، تداخل نسيج حياتنا معا، عشقا وحزنا ورغبة، أمسكت يدها وأخذت أردد اسمها في أعماقي كأنها تعويذة يمكن أن تمنعها من الاحتجاب مرة أخرى، دخلت الممرضة

النحيفة، ابتسمت لنا ولم تسب أيا من المرضى، دخل أحد الأطباء الصغار نظر في تذكرتي بحدة ثم مضى مسرعا، استقامت في حديقة المستشفى شجرة جديدة، انبثقت من أعماق الأرض الملوثة بالديتول والسفلون وبقايا الغيارات والقطن الأحمر، شجرة تشبه شجرتنا القديمة محفور عليها القلب نفسه والأسماء نفسها، قالت:

ـ هل ما زلت تتألم؟

ـ لا أستطيع أن أبقى هنا، فوق هذا السرير وأنت جالسة أمامي، لابد أن أخرج معك.

ـ أنت مجنون، هل نسيت أنك مازلت مريضا والغرز تملأ رأسك؟

ـ يجب أن أخرج معك الآن..

ـ أباك وأمك، على وشك المجيء.

ـ سنذهب إليهما، ستقودينني إلى بيتي، وتشربين الشاي مع أمي.

ـ سوف آتي لزيارتك هنا مرة أخرى.

صحت في لوعة: كلا، سوف تذهبين وتختفين وأعود لأيام الحزن والانتظار مرة أخرى، إنني عاجز عن الاستمتاع بأي لحظة من لحظات وجودك معي لأنني أعرف أنها قصيرة وعابرة، أيام غيابك هي التي تتطاول وافتقادي إليك هو الذي يصبح أكثر مرارة، هذا الأمر يفسد كل شيء، يفسد الأيام الماضية، ويفسد الأيام التي ستجيء.

هتفت في حدة: لن أسمح لك بالخروج.



توسلت إليها:

ـ كلا يا فاطمة، لو بقيت هنا وحدي سوف أموت،من حرقة الانتظار، ومن خوف افتقادك مرة أخرى، خذيني معك لأي مكان، لأي زمن، لأي وهم أو حلم ولا تضيعي مني.

عادت الممرضة النحيفة، تحمل بعض زجاجات العينات وتحتضنها إلى صدرها كالوليد، صحت:

ـ استدع الطبيب المناوب، أريد أن أخرج..

وانتفضت واقفا أمامها في نشاط مفاجىء، قالت الممرضة وهي تهز كتفها:

ـ إذا أردت أن تكسر رأسك في مظاهرة أخرى فاخرج.

كنت مفعما بالحياة، متدفقا بالفرح، لم يكن لي أبدا أن أفقدها، دخل الطبيب الصغير، نظر إلى التذكرة، ولوح بأصابعه في وجهي يهددني من التهور أو الانفعال أو مغادرة المستشفى، ضحكت في حبور وأنا أتقافز فوق السرير، أصدرت اللوالب المعدنية صوتا يشاركني في الضحك، نظر إلى فاطمة في ارتباك فأعطته ابتسامة عذبة فقدم لي الإقرار فوقعت عليه فأخليت مسئولية المستشفى من الموت والمضاعفات، أصبحت حرا وأصبحت فاطمة معي فقبلتها في إحدى الطرقات الخالية.

كنت أريد أن أفعل كل شيء، أتكلم وأسير وألمس يدها طول الوقت، تبتسم وتنظر إليّ في إشفاق، أنا طفلها الشقي الذي أهملته



طويلا، امتد أمامنا النهر مترقبا زمن الحضور الجديد، إلى متى سوف يستمر ويتواصل، مررنا بالقرب من سور الكلية، رمقنا رجال الأمن المركزي شذرا فأخذت فاطمة بيدي وابتعدنا عنهم لأقصى ما نستطيع، اللفافة البيضاء على رأسي يمكن أن تثير شبهتهم أو تثير ثائرتهم، على الأرض بقايا من اللافتات والشعارات ومجلات الحائط وفوارغ قنابل الدخان والأحجار والعصي، كل شيء ممزق، والعربات السوداء تحتل الزوايا، وعلى وجوه الجنود غضب أبله.

أصرت فاطمة على أن نذهب إلى بيتنا أولا، وعلى باب البيت وجدت أبي وأمي، كان هو عائدا لتوه من الوردية الطويلة المرهقة، وهي قد نهضت للتو من فراشها وأخذا يتوكآن على بعضهما البعض، فوجئا بنا أمامهما وهتفت أمي وهي تبكي:

ـ علي، ياربي.

لم تتصور بعد أن رأتني ملقى بين الموت والحياة أنني سوف أبعث بهذه السرعة، لم أجرؤ على أن أقول لها إن هذه إحدى معجزات فاطمة الصغيرة، كانت أمي هي التي تطلعت نحوها بامتنان وهي تقول ضاحكة

ـ كبرت يا فاطمة..

واحمرّ وجه فاطمة ثم أخفت ذلك بالضحك، ضحك أبي وأعد لنا الشاي وسندوتشات الجبن والخيار، وأكلنا كثيرا، وأكد أبي أنه كان يتوقع هذه النتيجة، وأن اللعب في السياسة هو أيضا أحد الأخطاء التي ورثتها منه، نظر إلى وجه فاطمة باهتمام، أحسست



أنها قد أحدثت أثرا كبيرا في نفسه، أخذ يلح عليها حتى تأكل وتشرب ثم نهضت فجأة فانخلع قلبي، قالت:

ـ حان موعد انصرافي، لا أستطيع التأخر أكثر من هذا.

قلت لها: سأوصلك إلى باب المنزل.

وهبطت معها السلم وقلبي يرتجف، لم تكن هناك قطط، فقط مخاوف باردة، قلت لها:

ـ هل سأراك غدا..؟

قالت: بالتأكيد، على شاطئ النهر.

أوشكت أن أجعلها تقسم بمصطفى، ولكن لم أشأ أن أذكرها بمزيد من الأحزان، نظرت إليّ وقالت:

ـ لا تخف، سوف آتي، لم يعد هناك ما يبرر غيابي.

وسارت مبتعدة، وصعدت وحيدا، وربت أبي على كتفي، دخلت إلى فراشي وغرقت في النوم.

التقينا في اليوم التالي، عندما رأيتها أمامي لم أصدق عيني، كانت واقفة في انتظاري وهي تتأمل النهر، وطيور النهر تحوم حولها في انتشاء، لم نمش كثيرا، جلسنا متلاصقين في ظل شجرة، كنت أريد أن أستمع إليها، فأين كنت إذن يا فاطمة؟ في كل مكان.. وهذا يعني أنه لم يكن هناك مكان، حتى مصطفى نفسه كان يفشل أحيانا في الاتصال بهم، وبعد أن مات كانوا هم آخر من سمعوا خبر



الموت، كان صوت فاطمة حزينا كانسياب مياه النهر، قبلت باطن كفها، وقبل أن تسحبها بسرعة كنت قد أحسست بمدى خشونتها، آثار أيام الغياب الطويلة، بدأ الشتات عندما طلب منهم صاحب قاعة الأنوال مغادرة البيت ليأتي بصنايعي آخر بدلا منهم، انفتحت أمامها دروب الرحيل عبر الطرق والترع والقرى والمدن الصغيرة وتشعبت بلا نهاية، كانت الأوحال تملأ الطرقات عندما خاضوا فيها بحثا عن سبيل، عادوا إلى بلدة الأم والأهل القدامى، ولكنهم قالوا لهم بعد يومين فقط، أنتم أهلنا حقا ولكن الرزق ضيق، حسبوا أنهم يريدون مشاركتهم فتات الميراث القديم، وهكذا لم تعد هناك بلد بعينها تخصهم أو تأويهم ضاقت الأرض على سعتها، أخذت الريح تذروهم على الشقوق العطشى، استقبلتهم أخصاص البوص فلم تهب لهم دفئا ولا أمانا، مات أول الأخوة بنفس الطريقة المصرية التقليدية، حمى قصيرة، وهذيان، وسعي خلف كل الأبواب الموصدة بحثا عن إنقاذ متأخر ومعونة لا تجيء، ثم موت مفاجئ، وراحة ساكنة أشبه بالشلل، ثم شعور عميق بالأسى، رغم أن هذا كان هو الأفضل للجميع الأحياء والأموات، على الأقل أعطاهم هذا القبر الصغير مبررا للاستقرار، لا أحد يترك لحمه ويرحل بإرادته، غرزوا جذورهم رغما عنهم، أقاموا في بيت قديم وبدءوا يعملون في كل شيء، وكان مصطفى غائبا وسط رماد الجبهة، والإجازات متباعدة والقروش التي يأخذها من الجيش تضيع في المواصلات قبل أن يصل إليهم، لم يكن يستطيع أن يبقى معهم فترة أطول من الزمن، كان كل شيء في طريقه إلى التوتر، والحرب المستحيلة تدق



الأبواب، عملوا في مواسم الحصاد، ومحالج القطن، والمصانع الصغيرة القريبة من المدينة، انفرط عقد الأفواه الجائعة وتحولت إلى أبدان متعبة لا تكف عن اللهاث طوال النهار، كان هناك نوع من الحرص الغريب على العيش في حياة لا تستحق أن تعاش، جمعت فاطمة لطع القطن، ووقفت خلف دواليب الغزل، وحملت فوارغ المواسير في المصانع، وفي كل مساء مجهد كانت تعود وتنزوي في ركن البيت أمام مصباح معتم وتفتح كتبها القديمة التي تمزقت وضاعت صفحاتها، ثمة شيء في داخلها كان يدفعها للمقاومة، يرفض أن يحول حياتها إلى كدح يومي ووقوف مستمر على حافة اليأس والموت.

كل هذه الليالي نامتها بلا أحلام، وزاد هذا من قسوتها، ثم جاء مدرس القرية الإلزامي يريدها، هللت أمها من الفرح، كان يريدها هي فقط بما عليها من ثياب، قال هذا مؤكدا وهو يفحصها بعيني خبير جائع، كان يجيد اختيار صفقته، ولكنها رفضت، شيء غامض في داخلها جعلها تواصل المقاومة، دون أي أمل في حدوث شيء أفضل، عادت تعمل وتذاكر وتمارس الجوع، تحلم بأنه ذات لحظة ما، سترفع رأسها وتدخل الامتحان وتنجح وتدخل الجامعة، كانت في حاجة حقيقية إلى معجزة لم تستطع أن تحققها لنفسها.

كان الثمن فادحا، بكت وهي تقول لي، كيف تلقوا خبر فقدان مصطفى في الجبهة، ثم جاء خبر موته مؤجلا بعض الشيء، كانت المكافأة المالية التي قبضوها هي ثمن الحلم الدامي، استطاعت أن تجمع الكتب وأن تدخل الامتحان، وأن تطأ قدماها عتبة الجامعة بوصفها أخت الشهيد، كان مصطفى قد دفع من حياته ثمن كل شيء.



ظللنا متلاصقين، كل منا يستمد دفئه من الآخر، والنهر يمضي والزمن يمر والدمع الذي يطفر من عينيها يغمر وجهينا معا، كيف يمكن أن يتحمل جسدها الصغير كل هذه العذابات، قلت:

ـ سوف أتخرج، ونتزوج وتنتهي كل هذه العذابات..

قالت: ما أطول الطريق يا على، مازلت في حاجة إلى أكثر من معجزة.

كانت قد فقدت شيئا ما، ضاع بعض من روحها في تفاصيل الشقاء اليومي، خفت ذلك التألق الذي كان يشع من عينيها، وتبدد بعض من السحر الآسر الذي كان يلفني كلما لقيتها ويدخلني طائعا في عالمها، أدخلت أصابعي في شعرها فأغمضت عينيها ومالت برأسها على ساقي ونامت دون مبالاة بأحد، ولم أجرؤ على الحركة حتى لا تستيقظ وظلت طيور النهر تواصل الدوران.

تغرب الشمس علينا، دمي ودمها يمتزجان تحت سماء بعيدة باهتة، يقبل الليل علينا، يضمنا معا جدار من الظلمة، لو أن لحظات الزمن المتسربة تتوقف قليلا، ولكن فاطمة تكف عن أحلامها وترفع رأسها وتزيح خصلات شعرها ثم تحدق في وجهي لتراني وأراها، في مثل هذه اللحظات لا أصدق أننا يمكن أن نفترق ولا نكف عن الافتراق، قالت:

ـ أنا جائعة..

اكتشفت أنني أيضا ميت من الجوع، مضينا متشابكي الأصابع، توقفنا أمام أحد باعة السندوتشات، وأكلنا بشراهة الخبز الجاف



والجبن المقدد والطرشي الحرّاق، ولأن الطعام كان رديئا فقد اشتريت لها عقدا من الفل ووضعته حول عنقها، بدأ الهواء البارد يهب من على سطح النهر، والأضواء لا تكف عن الاهتزاز، وقارب يسبح في بطء ودون صوت، وطائر تأخر في العودة، وسحابة مرتعدة لا تجرؤ على لحظة الوداع، ونحن ننحدر مع النهر، تحت الجسر المعدني الذي يمر من فوقه القطار، نغوص وسط العوارض الحديدية مرتجفين، أصابع كل منا ملتفة على أصابع الآخر باردة ومغطاة بالعرق، ندخل في ظلمة العوارض الكثيفة، تخفت أصوات المدينة، تتحول إلى نوع من رجع الصدى المكتوم، تبدو الصواميل ورءوس المسامير الضخمة مثل عيون معتمة لا تكف عن التحديق فينا، لم نلفظ كلمة، ولكن صوت أنفاسنا كان مضخما عشرات المرات، أمسكت يدها فانصاعت إليّ دون مقاومة، أدخلت جسدها في تجويف إحدى العوارض الحديدية، ووقفت في قبالتها تماما، وضعت أصابعي على وجهها، وأنزلتها إلى عنقها ثم مررتها على صدرها، كانت صامتة، تأخذ أنفاسا عميقة متباعدة، تترك لي الفرصة كي أعيد التعرف على جسدها من جديد، لم يكن أحد منا يرى وجه الآخر بوضوح، كنت فقط ألمح بريق عينيها من خلال الظلمة، رغبة وترقب وقطرات من دمع، ملت عليها فوجدت شفتيها مفتوحتين في انتظاري، كان ريقها رطبا، ضغطتها فانضغطت وتداخلت وامتزجت، أخذت جسدها كله بين ذراعي فدخل في دفئها، كان جسدها نحيفا، لينا، مرهف الصدر، يقشعر تحت وطأة أصابعي، قالت لي ذات مرة، إن جسدها كله صالح للقبل، فلم أحاول



أن أختصر كل رغبتي في شفتيها، كان النهر يهر مثل قطة والريح تتخبط بين العوارض الحديدية، وجسدي وجسد فاطمة متلامسين في يأس ورغبة ومحاولة مستحيلة للامتزاج، قالت في صوت مكتوم متقطع، أوحشتني يا علي، أوحشتني، تشبثت بصدرها لاهثا، ودخلت رائحتها أنفي، أيقظت كل جوعي وحزني ورغبتي وافتقادي واشتياقي وحنيني ووحدتي، لماذا قسوت عليّ إذن بكل أيام البعاد يا فاطمة؟ قبلت عينيها وأذنيها، وأخذت جلد عنقها بين أسناني ثم غمزت وجهي في نعومة ثدييها، اصطكت الدعامات الحديدية، واهتزت الأساسات في قاع النهر واستيقظت الأسماك، وتفتح ورد النيل عن زهر أحمر، فرأيت سطوع الضوء في صدرها، ورأيت حرقة الجوع في بطنها وسرتها المستديرة، وسمعتها وهي تقول في فرحة طفولية: ياه.. يا علي، صدرك امتلأ فجأة بالشعر، أخذت هي أيضا تعيد اكتشافي، كنت أريد أن أبكي على صدرك يا فاطمة، لأنني وأنا ألمسك الآن، لا أدري متى سوف أعود للمسك مرة أخرى وماذا سيحل بجسدينا إذا عاودنا الالتقاء من جديد؟ قلت: أريدك الآن يا فاطمة، من الأفضل أن يكون الآن، وضعت ذراعيها حول عنقي وأدخلتني في أضلاعها، قالت: سوف تحين اللحظة يا علي، كان عليّ فقط أن آخذ الآن من دفء جسدها وحرقة رغبتها أقصى ما أستطيع من تذكارات، لعلها تكون زادي في أيام الوحدة الباردة، أليس من المؤلم أن أفكر في الفراق في صميم تلك اللحظة من عناقنا معا، من امتزاج أنفاسنا وعرقنا ورغبتنا؟ مرّ القطار فوقنا مثل إعصار مفاجئ، سرى الصوت في العوارض الحديدية



وفي عظامنا فارتجفنا وتماسكنا، أصابنا البرد فجأة، وبدت الريح شديدة الوطأة، أعادت فاطمة أزرار ثوبها بسرعة وقد امتلأت عيناها بالخوف، التفت إلى الخلف، كان هناك من يحدق فينا معا، وجه عجوز رابض بين الزوايا المعدنية يرفع فانوسا معتم الضوء ويسلطه علينا ونحن أمامه كفأرين مذعورين.

حاولت أن أقف أمامها، أغطيها حتى تكمل ترتيب ملابسها، ثم أمسكت بيدها المرتجفة ووقفنا معا في مواجهته، لم يتحرك، كان مأخوذا بما رآه، بدت ملامح الدهشة والاستغراب على تجاعيد وجهه المتغضنة، دون غضب أو حنق، طفل عجوز فوجئ بمشهد يراه لأول مرة، جامد متصلب والمصباح مرفوع في يده، أمسكت يد فاطمة وبدأت أسحبها ببطء، كي نخرج من وطأة عينيه، ولكنه تحرك ورفع ذراعه، وهتف في حرقة:

ـ بالله عليكما لا تذهبا، لا تخافا، بالله ابقيا قليلا.

كانت في صوته نبرة من التوسل أصابتنا بالخجل، خفضت فاطمة رأسها وبدت على وشك البكاء، وقالت في همس متوتر، لنمض، ولكن الرجل صاح:

ـ اشربا الشاي معي، الجميع يأتون إلى هنا ويمضون، أراهم جميعا، ولا أحد يراني أنا حارس الكوبري العجوز، وهم يحسبون أنني مجرد عارضة حديدية صماء.

كان صوته مختنقا، كل شيء فيه كان غريبا، وظل ضوء المصباح يتحرك بين العوارض فيكون عشرات الظلال كأنها شهود علينا،



أدركت فجأة مدى مرارة لحظات الوحدة التي يعيشها هذا العجوز، وأنني عشت دائما مثل هذه اللحظات، سار أمامنا وهو يعرج بساقه اليمني فيتمايل المصباح معه وتتحرك بقعة الضوء وتتكاثف العوارض الحديدية من حولنا، تكون جدرانا داخلية معتمة، قادنا إلى مأواه في جوف الكوبري، فراش من القش والجريد، كومة من الثياب المهلهلة، عدة صفائح صدئة، قصعة قديمة مليئة بالحجر المشتعل، أجلسنا ثم تقافز في فرح هابطا إلى النهر كي يحضر ماء للشاي، قالت لي فاطمة وهي ترتعد:

ـ لماذا أطعته، لماذا جئنا إلى هنا؟

قلت لها: انظري كم هو وحيد وأليف يا فاطمة، وانظري كيف ينعكس حبنا على الآخرين فيجعلهم ينتشون.

عاد العجوز وهو مازال يتقافز، ووضع «الكوز» المترع بالماء فوق الجمر، ورأيت انعكاس الوهج على ملامح فاطمة،كأن رغبة الحياة قد عادت إليها من جديد، أصدرت الجمرات طقطقات غاضبة، فنفخ فيها بكل قوته وقال وهو يلتقط أنفاسه لاهثا:

ـ هذا الكوبري قد بني من أجل العشاق الصغار، لا من أجل مرور القطار.

وضحك في صوت خافت وضحكت أنا وابتسمت فاطمة في خجل، ملأ كفه بالشاي ثم وضعه على الماء وسألنا عن اسمينا وعمرينا، وتسللت إلينا سكينة غريبة كأن هذا المأوى قد أعد لنا منذ زمن بعيد، أشار حوله وهو يقول في صوت مليء بالأسى:



ـ أضعت عمري هنا، لم أعرف سوى رءوس المسامير، وأطراف الأسياخ، وحواف العوارض الحديدية، لم أسمع من الدنيا إلا رجع صداها، رفيقي الوحيد هو ذلك المفتاح.

أشار إلى مفتاح ضخم موجود في أحد الأركان، كان من الواضح أنه يستخدمه في ربط الصواميل والضغط على رءوس المسامير، ولم أدر كيف كان يستطيع جسده النحيل أن يحمله، بدا كأنه قد نسي وجودنا وأخذ يقلب في الشاي ويتحدث بصوت منخفض متواصل:

ـ أعرف كل شيء عن هذا الجسر، كأنه زوجتي، أو أكثر، أماكن الصواميل، وتداخل العوارض، ومواضع اللحامات، وطول الأسياخ، ونقاط الضعف التي يتساقط منها الطلاء ويتسلل إليها الصدأ، أعرف كل الأصوات التي تمر من أعلى، أنواع القطارات المختلفة، وصدى العربات، وأقدام المارة، هذا الحديد لا يكف عن الحديث معي أبدا، يختزن كل صوت ويظل يكرره على مسامعي.

فار الشاي، التصقت بي فاطمة، وتوقف الرجل عن الحديث، ورفع إلينا وجها عليه ملامح الألم والأسى، ملأت الدموع عينيه فجأة وقال:

ـ أنتما صغيران، ولكن العالم أصبح عجوزا، أنا عجوز، وهذا الكوبري عجوز أيضا، تغيرت نقاط الثقل فيه وأصابها الوهن، ذلك اللحام الذي يضم العوارض الحديدية يتحلل، أعرف ذلك من رجع الأصوات، اختلف صداها عن الأصوات التي كنت أسمعها دائما،



أصوات القطارات، والعربات وحتى أقدام المارة، كل شيء قد اختلف، المشكلة أنني لا أعرف أين مكان هذا الخلل، أي صامولة، أي مسمار، أي عارضة، أي سيخ؟

جسد الكوبري العملاق يمتد فوقنا، حيوان خرافي رابض ومتأهب يبدو مستعصيا على الزمن، كيف يمكن أن يجرؤ أي نوع من التحلل على الوصول إليه، كان العجوز مرتعدا وهو يفرغ السكر، ويحمل الكوز الساخن ويبدأ في تقليبه حتى يمتزج كل شيء، ثم توقف، وضع الأكواب على الأرض وانتابته هزة عنيفة، كتم أنفاسه فلم يعد هناك أي صوت سوى وشيش النهر وطقطقات الجمر، تقوس جسده وبدأ يرتجف، بدا كأنه يتسمع بكل خلاياه أصوات لا نسمعها نحن، أمسكت فاطمة بذراعي، لم نجرؤ على الحركة حتى لا نتلف كل شيء، ثم رفع رأسه ببطء، وسمعنا صوت الصفير القادم من بعيد.

بدأت أضلاع الكوبري في التأهب، هل يحدث فيه قدوم كل قطار هذا النوع الحاد من الانفعال؟ ازداد الصوت ثم غمرنا جميعا كما فعل في المرة الأولى، وضعت فاطمة يدها على أذنيها، وتقلص وجه العجوز وغمره العرق، فتح فمه كأنه يتشرب الصوت حتى آخر همسة، ارتطمت العجلات بعنف، وارتجف الكوبري، ثم أخذ الصوت في الانحسار بالسرعة نفسها، ولكن العجوز نهض وهو يرتجف، صاح وهو يلوح بأصبعه ناحية العوارض:

ـ هل سمعتما، ألم أقل لكما، الصوت مختلف، هناك شيء فاسد في مكان ما.



تلفت حوله في فزع، أمسك بالمفتاح الضخم، قفز مثل قرد عجوز فوق العوارض وأخذ يتشبث بالمفتاح وهو يحاول ضبط الصواميل، دمدم بكلمات غاضبة مفزوعة، وهمست فاطمة في فزع، هيا ننصرف يا علي، ضرب المسامير في قسوة، وتردد الصوت عبر جنبات الكوبري، أمسكت بفاطمة وأخذت أساعدها على السير، ومع كل ضربة تتناهى إلينا كان جسدها يرتجف، والكوبري يئن والعجوز على وشك الجنون، خرجنا أخيرا، تحررنا من قبضة الأصابع المعدنية التي كانت تحيط بنا، المدينة نائمة، وأضواؤها خافتة ولكن فاطمة ماتزال تلتقط أنفاسها في صعوبة، كنا نسير، هي التي تقودني في طريقها، لم أكن أعرف أين تسكن، ولا كيف تقيم، ولكنها وقفت فجأة وأدارت وجهها في مقابلتي فرأيته مغرورقا في الدموع، ضممت جسدها المرتجف:

ـ فاطمة، ماذا بك؟

أسندت رأسها إلى كتفي وكتمت نشجيها المتواصل ثم قالت:

ـ لم أكن أريد أن أحدثك عن ذلك، ولكنني... ولكنني في حاجة ماسة إلى نقود..

ـ هل هذا ما يبكيك فقط؟!

ـ سوف يطردونني من سكن الطالبات، تأخرت كثيرا في الدفع، وتراكمت الشهور..

ـ سوف أدبر لك النقود التي تحتاجين إليها.

- لا أحد يستطيع أن يساعدني.. أنا أعرف أنك لا تملك النقود التي يمكن أن تساعدني بها..

أمسكت ذراعيها، ورفعت رأسها، ومسحت الدمع من على خديها وقلت:

- ثقي بي، وتوقفي عن البكاء، سأدبر لك أي مبلغ تريدينه

حدقت في تساؤل، هل أعني حقا ما أقول، أم أنني أحاول تهدئتها فقط، في هذه اللحظة لم أكن أعرف بالضبط ماذا يمكن أن أفعل، كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء، قلت:

- غدا، سأحضر لك المبلغ الذي تحتاجين إليه، دعيني أوصلك.

- كلا، لا يجب أن يراك أحد معي خارج البيت، تكفي بقية مشاكلي مع المشرفات.

حاولت أن تمنحني ابتسامة صغيرة، ولكنها كانت حزينة، ابتعدت ببطء وأنا أتابعها ببصري، هل كان يجب أن أجري خلفها، لأعرف أين تسكن بالتحديد، ولكن بلا فائدة، ففي ذات لحظة ذهبت إلى منزلها وحسبت أنني عرفت كل شيء عنها، فغابت عني أطول الغيبات.

من أين يمكن أن أحضر لها نقودا؟

فكرت في حيرة وأنا عائد إلى البيت، كنت أعرف ظروف أبي ولم أكن أجرؤ على طلب أي مبلغ منه لأنه ببساطة لا يملك شيئا، في كل شهر نحتاج إلى معجزة حتى يمر، هل يمكن أن أجد من



يحل مشكلتي غدا، الدراسة معطلة والأمن المركزي مازال يحتل حرم الجامعة، علاء الحماقي والرفاق، ماذا حدث لهم، أين ذهبوا، كيف لم أفكر فيهم، هل هم في السجن، أم خارجه، هل يستطيعون حل مشكلتي أم تكفي مشاكلنا الأخرى؟

جلست في فراشي وأنا أحس بالصداع الهائل، صداع لم يمسني منذ أن قابلت فاطمة، كان ما يؤلمني أنها لو غادرت بيت الطالبات فسوف تكون غير قادرة على مواصلة الدراسة دون مأوى، هل يمكن أن تأتي وتعيش معنا، وأن نتزوج، هل أقدر، وهل يقبل أبي وتقبل أمي؟

لو كانت الدراسة مستمرة للجأت إلى أي حد، حتى إلى سلوى، تذكرت سلوى فجأة، نهضت من الفراش، مددت يدي تحت تلال الكتب وأخرجت العلبة الذهبية التي كنت قد حسبت أنني نسيت وجودها، ضحكت في صوت خافت وسط الظلام، هل يعقل هذا، أن تنقذ سلوى فاطمة من ورطتها من حيث لا تدري، دورة مضحكة من دورات المصادفة، فتحت العلبة، رأيت الأقلام الذهبية التي لم أكتب بها حرفا واحدا، تأملت بريقها الخاص، لم يكن عليها أي نوع من الكتابة أو النقوش، لا تنتمي لي، ولا لسلوى، ولا لأي أحد، قربان ذهبي صالح فقط للتضحية من أجل فاطمة.

نمت والعلبة في يدي، كان الصباح هادئا، وبدا أن جرح رأسي أصبح على وشك الالتئام، نظرت أمي إليّ باسمة، كانت قد استردت جزءا من عافيتها، هبط أبي إلى العمل مبكرا، وعليّ أن أهبط أيضا

للذهاب إلى الصاغة، قبل أن أذهب للقاء فاطمة على حافة النهر، ثم عليّ بعد ذلك أن أسعى لأعرف ماذا حدث لعلاء الحماقي وبقية الرفاق، كنت أريد أن أساوم لأقصى درجة، كل جنيه زائد أظفر به سوف يبقي فاطمة بجانبي في البلدة نفسها، مشكلتي أنني لا أعرف قيمة العلبة الحقيقية، ولا من أين أبدأ المساومة وأين أنتهي بها، كنت في حاجة إلى معاونة ولكن من يعاونني؟ على أي حال كنت سعيدا لأنني وجدت حلا، وانعكس هذا الإشراق على وجهي، أكلت بنفس مفتوحة فابتسمت لي أمي بامتنان، خبأت العلبة في جيبي وهبطت متقافزا فوق السلم، رأيت قططا جديدة صغيرة ترقد متلاصقة على الدرجة الأخيرة، جلست بجانبها ومررت بيدي على ظهرها وبعثت ملامستها في داخلي نوعا من النشوة، رأيت عيونها المغمضة وأنوفها الصغيرة فتذكرت لقائي الأول مع فاطمة، لو أن لحظات السعادة هذه تطول قليلا.

رأيت فاطمة واقفة في انتظاري، تقف مقابل باب بيتنا، بملابس الأمس نفسها، كأنها لم تخلعها، شاحبة الوجه، جريت نحوها ملهوفا وأنا أهتف:

ـ فاطمة، ماذا حدث؟

قالت: أنا قلقة، هذا الصباح أعطتني المشرفة إنذارها الأخير، لم أجد ما أفعله غير أن آتي إلى هنا وأنتظرك، هل هناك حل حقا؟

تطلعت إليّ بوجهها الشاحب وبعينيها الواسعتين، فأخرجت العلبة من جيبي وقربتها من وجهها، نظرت في دهشة، واستضاء وجهها ثم هزت رأسها متسائلة، قلت:

- سنبيعها، ثمنها سوف يحل كل مشاكلك، هيا بنا إلى شارع الصاغة..

ظلت واقفة غير مصدقة، فتحت العلبة، وتأملت الأقلام، وقلبتها تبحث عن أي إشارة ثم قالت:

- من أين أحضرتها، هل هي لك؟

قلت متردداً: كانت هدية، أقصد، كانت جائزة في أحد المهرجانات الشعرية.

- لا أستطيع أن أحرمك منها.

- كلام فارغ، ليس لها أي أهمية عندي، أهميتها الوحيدة أنها سوف تحقق لك شيئا.

سرنا معا في ضوء الصباح، تلامست أيدينا في دهشة وتساؤل، ورأينا الصهريج العالي والطيور النائمة ولم نر الحارس الأعور فضحكنا، لم يكن الصباح نديا بالدرجة الكافية، كل شيء كان مثقلا بالخوف من الآتي، فقدت المشاهد القديمة سحرها وسذاجتها وبدت شديدة الواقعية والجهامة، كان شارع الصاغة ضيقا، ملتويا له رائحته الخاصة، مزيج من تفاعل الأتربة ورائحة النشادر وتبر الذهب.

المحلات نصف مفتوحة تستقبل الصباح في حذر، أصحابها في الداخل يعيدون ترتيب الحلي من جديد خلف الواجهات الزجاجية، والبعض الآخر يرش الماء، ويشعل أعواد البخور، لم أكن أدري بم



يفضلون أن يبدءوا يومهم بالبيع أم بالشراء؟ أخرجت فاطمة العلبة، وتأملتها قليلا، وتفحصت الأقلام ثم حدقت في عيني وهي تقول:

ـ هل هي عزيزة عليك؟

شعرت بخجل مفاجئ فأخفيت وجهي وقلت: لا تحمل لي أي ذكرى.

ظللنا نتجول في الشارع الضيق دون أن نجرؤ على دخول أي محل، لم نكن ندري كيف نبدأ، تلألأت كل الواجهات بعد أن امتلأت بقطع الذهب ووضعت عليها الشمس خيوط أشعتها الأولى، وتضاءلت قيمة العلبة التي نحملها.

أشارت فاطمة إلى أحد المحلات، كان قد أكمل استعداداته ووقف صاحبه خلف المنضدة الزجاجية ينتظر الزبائن، خطونا إلى الداخل، وأدرك الرجل منذ النظرة الأولى أننا جئنا من أجل البيع لا من أجل الشراء، أحنى رأسه وهو يتفحصنا من أسفل إلى أعلى، مدت فاطمة أصابعها وأخرجت العلبة ووضعتها أمامه، كانت قد أصبحت أقل تألقا، تناولها بأطراف أصابعه وتفحص زواياها، فتحها وتأمل الأقلام ثم عاود إغلاقها مرة أخرى، وضعها أمامنا دون أن ينطق بكلمة واحدة على وجهه ابتسامة باهتة نصف ساخرة، نظرت فاطمة لي مستنجدة فقلت بصوت منخفض:

ـ نريد أن نبيعها.



تناولها مرة أخرى، وقلبها كأنه يشاهدها من جديد، قلب شفتيه وهو يقول:

ـ هل معكما إيصال.

أصابنا الارتباك، نظر كل منا إلى الآخر وقد أحسسنا فجأة أننا نقوم بعمل غير مشروع، قلت:

ـ كلا، إنها هدية..

ـ ولو، الإيصال هو الضمان الوحيد ضد أي مسروقات..

لم أفهم، مددت يدي، تناولت العلبة واستدرت خارجا واستدارت فاطمة معي، وجاء صوت الرجل من خلفي:

ـ على أي حال إنها لا تساوي أكثر من خمسين جنيها..

كان هذا المبلغ أقل مما نحتاجه بكثير، واصلت السير نحو الباب، سمعت صوته وهو يهتف وقد علته نبرة من الغضب:

ـ لن تجدوا مثل هذا السعر في الصاغة كلها.

أصبحنا في الخارج، كانت فاطمة تلهث مثلي، قلت لها:

ـ انظري كيف تتم المساومة، لقد هددنا أولا ثم عرض علينا هذا السعر المنخفض.

قالت في حزن شديد: إنني خائفة أن يكون هذا هو ثمنها الحقيقي.

ـ مستحيل، سوف نسأل الجميع قبل أن نوافق على البيع.



ظلت خائفة، دخلنا المحل الثاني في تردد، وعندما ألقى الرجل العلبة بلا اهتمام أوشكت أن تبكي، قال لنا إنه لا يتعامل في هذه الأشياء فخرجنا مسرعين وأنا أشد على يديها، همست، تماسكي يا فاطمة، نحن مازلنا في البداية، ولكن كنت أيضا قد بدأت أشك في قيمة الأقلام، بدأت الحركة تدب في السوق، كفوا عن رش الماء أمام المحلات ورفعوا كل الأبواب وعلقوا على وجوههم ابتسامات مثل الذهب القشرة، كان الثالث رقيقا، ناعما، بدا كأن تبر الذهب قد تداخل تحت جلده وأكسبه تلك الصفرة اللامعة، أكد لنا أنه خائف على مستقبلنا لأننا صغار، وأنه يجب عليه أن يتصرف التصرف الصحيح ويبلغ الشرطة، صحت به غاضبا أن يلزم حده فتراجع، وقال إنه سوف يدفع مائة جنيه كاملة، تنفست فاطمة الصعداء وأوشكت على الموافقة، ولكني رفضت، كانوا مازالوا يواصلون تهديدنا، وكان المبلغ قليلا، قالت فاطمة وأنا أقودها إلى الخارج، أنت تعذبني، قلت: أنا أحاول إنقاذك وإنقاذ نفسي، سوف يأكلوننا بلا ثمن لو علموا مدى حاجتنا، كانوا يلعبون معنا لعبة كلاب الصيد، عبر أعتاب الدكاكين والتفافات الحواري، أصابعهم الرفيعة المدببة التي تتحسس العلبة هي التي تفضحهم، بينما تظل وجوههم جامدة لا مبالية، يحاصروننا بقطعهم الذهبية، والفصوص الملونة التي تحدق فينا بعيون بلهاء، كنا لعبتهم الصباحية، أدخلونا في شبكتهم العنكبوتية، بدءوا بكلمات التهديد والمساومة والتظاهر بالرفض وانتزاع الأرقام الضئيلة، كانوا يعرفون أننا خائفين ونود الهروب، وأننا من فرط حاجتنا عاجزين عن الهرب، علينا أن نتخلى عن



خوفا وأن نلعب بطريقتهم، ولكن فاطمة كانت في طريقها للانهيار بعد كل لحظة وأخرى، اجتزنا الحواري والمحلات،ارتفع الثمن وانخفض، تداخلت في أنوفنا رائحة النشادر والتراب المرشوش بالماء، ولم يعد أحد يهددنا، ولم نعد نبالي بأي تهديدات، صاحت فاطمة وقد وقفت وسط الشارع وهي تلهث:

ـ فلنبع بأي ثمن، أي ثمن.

صحت: كلا، لو لم تحل هذه العلبة مشكلتك فلن نستطيع أن نحلها أبدا.

توقفنا لاهثين، عاجزين عن التصرف، وبدءوا جميعا ينظرون إلينا من خلف المناضد والواجهات الزجاجية، قالت وهي تجز على أسنانها:

ـ لم تعد لي طاقة على الاحتمال، سوف أدخل أول محل وأبيعها بالثمن الذي يحدده..

واستدارت، أحسست أن كل شيء سوف يضيع، أسرعت خلفها، في هذه اللحظة سمعت صوتا يناديني، كان مألوفا، تجمدت في مكاني مرعوبا لم أكن أريد لأحد أن يراني، كان «الكوتش» واقفا أمامي وهو يتأملني ضاحكا، أشار إلى الرباط الذي فوق رأسي وهو يهتف:

ـ ماذا تفعل هنا، كان يجب أن تكون في السجن أو المستشفى.

توقفت فاطمة، عادت إلينا ببطء، واكتسى وجه «الكوتش» بهيئة مؤدبة مؤقتة وهو يتعرف على فاطمة، قلت له:



ـ نريد أن نبيع هذه العلبة اللعينة.

تفحصها بين أصابعه، لم أدر إن كان قد تعرف عليها أم لا، كنت متأكدا من أن سلوى لم تطلع أحدا على سرها، قال:

ـ تبدو ثمينة، كم تريد فيها؟

ـ ليس أقل من مائتي جنيه.

ـ مادمت تريد ذلك علينا أن نحاول..

كنت واثقا بشكل أو بآخر أنه قادر على إنجاز أي شيء، أمسك العلبة وأشار إلينا.

ـ هيا معي، أعرف واحدا هنا هو أقلهم لصوصية، ولكنه لص على أي حال.

دخلنا أحد المحلات التي دخلناها من قبل، نظر الرجل إلينا، كان قد عرض سعرا بالغ الضآلة، وهددنا تهديدات مفزعة، ولكن «الكوتش» صاح فيه بصوت مرتفع، لم يترك له فرصة لأي مناقشة، أشار إليّ وإليها وإلى العلبة وهو يقسم بكل مناجم الذهب والفضة، وأخذ الرجل العلبة، وضعها في خزانته ثم عد النقود ووضعها طائعا أمام «الكوتش» الذي ناولني إياها وهو لا يكف عن الحديث بصوته الصاخب، لم نصدق أنفسنا، ووضعت فاطمة الجنيهات في حقيبتها في دهشة، وخرجنا من المحل وهتف الكوتش:

ـ لا تثق بهم أبدا، الجأ إليّ دائما أنا أجيد التفاهم معهم.



وقبل أن نقول له كلمة واحدة كان قد لوح بيديه واختفى من أمامنا، وقفت أنا وفاطمة، كل واحد منا ينظر إلى الآخر، كانت سعيدة، تم كل شيء في بساطة آسرة وخلف وراءه كل هذه المشاعر المعذبة، قلت:

ـ هل أنت راضية يا فاطمة؟

قالت وهي تومئ برأسها: لن أستطيع أن آخذها كلها..

هتفت في حدة: هي لك، أنت في مقام زوجتي، قرأت الفاتحة مع أبيك وأنت مسئولة مني.

قالت ضاحكة وهي تمد ذراعها وتضعها في ذراعي:

ـ سوف أدعوك إلى غداء دسم إذن يا زوجي العزيز..

ـ والمشرفة التي تنتظرك؟!

ـ سوف أدفع في المساء، دعنا نستمتع بصحبة النقود قليلا.

في أحد المطاعم المطلة على النهر جلسنا متقابلين، بيننا المنضدة ولكن ركبتينا كانتا متلامستين أسفلها،قالت وهي تتأمل طيور النهر:

ـ أتعرف.. لقد مرت عليّ كثيرا من اللحظات البالغة المرارة، ولكني في ظلمة الليل كنت أرفع رأسي قليلا فأشم هذا الهواء، وأرى هذا النهر، وأحس بدفء هذه الشمس.



نظرت إلى عينيها، أخيرا أصبحتا صافيتين، مرت أيام الشقاء ونامت أصابعهما بين أصابعي،لو أن لي القدرة أن أحمل أحلامي في قلبي كما تفعلين؟ حدثتها عن «الكوتش»، ثم عن علاء الحماقي وبقية المجموعة،لم أذكر لها شيئا عن سلوى،لم أكن خائفا، ولكنني أحسست فجأة أنها لم تكن تعني شيئا بالنسبة لي، وقالت:

ـ يجب أن تذهب للمستشفى كي تغير أربطة هذا الجرح..

ـ يجب أن أذهب أولا لأرى علاء الحماقي والزملاء.

ـ ألا يمكن أن تكون هناك خطورة في مثل هذا الوقت.

ـ أريد أن أطمئن عليهم..

صمتت قليلا، تأملت وجهها وهي تتطلع نحوي ثم قلت: سوف تأتين معي.

أبعدت ركبتها قليلا عن ركبتي، وانحنى أمامنا الجرسون، وانبعث صوت عبد الحليم يغني «النيل والليل..والشوق وعنيك.. باعتولي..وجيت أسأل عنك» قلت لها:

ـ هل أنت خائفة؟

ـ أنا لا أعرفهم..

ـ ينبغي أن تعرفيهم، وينبغي أن يعرفوا أنك فتاتي، حلمي الوحيد.

أكلنا ببطء، وكان صوت عبد الحليم مازال ينساب فوق سطح النهر، عادت تقول:



ـ قد تكون الطرق مراقبة..

ـ سننتظر حتى المساء..

ـ قد لا يقبلونني وسطهم.

ـ دعي هذا الأمر لي، لي حياة واحدة هي حياتي معك، لا أريد أن أعيش حياة أخرى أنت لست فيها.

رفعوا الأطباق وظللنا جالسين، ضحكت فاطمة وهي تعطيني النقود من تحت المنضدة كما يحدث في الأفلام العربية، وضحكنا ونحن ننصرف متشابكي الأيدي وأنا أرشق زهرة في شعرها، سرنا في كل الطرقات التي هجرناها من قبل، جددنا حياتها، غيرت الضماد الذي على رأسي بآخر نظيف، ورأيت القلق في عينيها، وهي تتأمل فروة رأسي، قبلتها قبلات خاطفة ولم أكن أشبع من شفتيها أبدا، وهبط المساء علينا وتركتني فاطمة أقودها في الطرقات الضيقة المؤدية إلى البدروم، كنا نخطو خطوتنا الأولى من عالمنا الخاص وزمننا الخاص إلى عالم الأخرى، واصلنا السير، تلفتنا حولنا في حذر أكثر من مرة وبدأت فاطمة تشعر بالإثارة، وصلنا إلى البيت دون أن يكون هناك ما يريب، لم يلحظنا أحد ونحن نهبط السلم، تأملتني فاطمة في إعجاب وهي تراني أطرق الباب بطريقة معينة، وسمعنا صوت حركة ثم فتح الباب ببطء، بدا وجه أحمد عبد التواب، صاح في فرح:

ـ علي.. لقد عدت، حسبنا أنك مازلت في المستشفى.



ارتفعت أصوات الجميع من الداخل، كان البدروم حافلا بهم وآثار المعركة ظاهرة عليهم، جروح وكدمات وأذرع مربوطة إلى الرقبة، وفي أقصى الغرفة تحت المصباح كان علاء الحماقي واقفا، يتأملنا دون حركة، دخلت فاطمة وهي تحتضن حقيبتها في خجل بالغ، صمتوا وهم يتأملوننا في تساؤل، قلت في زهو حقيقي:

ـ أقدم لكم فاطمة يا رفاق..

كأن هذا كان كافيا، تخلوا عن الصمت واندفعوا يصافحوننا ويذكرون أسماءهم، وأخذت هي تحدثهم بكلمات بسيطة والخجل مازال يعلو وجهها، تقدم الحماقي مني ببطء، قال:

ـ كان من الخطر أن نزورك في المستشفى، كيف حالك؟

ثم ألقى على فاطمة نظرة متفحصة واستدارت إليه وهي تبتسم، قلت:

ـ هذه فاطمة خطيبتي.

تصافحا، كان باردا، على وجهه تعبيرات غريبة، تظاهر بترتيب بعض المجلات والكتب الواقعة على الأرض، أحسست بالبدروم ضيقا، ورأيت الطلاء المتساقط في أحد الأركان، وعجبت كيف ترك إبراهيم العنكبوت ينسج خيوطه كل هذه المدة، تحدثوا في صخب، والقوا على فاطمة عشرات الأسئلة، ضربني أحدهم على كتفي وهو يتساءل كيف خبأت هذا السر كل هذه المدة، لم يتكلم الحماقي، ظل يرتب في الأوراق المبعثرة، أخذت أقص عليهم كيف

تظهر فاطمة في حياتي فجأة، على كل حد فاصل، وكيف تغيب، وكيف أفتقدها؟ وكانت هي تضحك في خجل بالغ، ورفعت رأسي فرأيت الحماقي يحدق فينا.. فيها على وجه التحديد، نظراته غريبة، ووجهه الشاحب ازداد امتقاعا، نهضت من بينهم اقتربت منه حتى وقفت أمامه، قلت له:

ـ ماذا حدث، ما الأمر؟

رفع يده، أشار بأصبعه نحو فاطمة، هتف بصوت أجش متوتر:

ـ مباحث، إنها تعمل مع المباحث..

دوت صيحته مثل عواء حيوان جريح، ساد الصمت، امتقع وجه فاطمة، أحسست كأن هناك من ضربني على رأسي فجأة، تمالكت صوتي، هتفت مستغيثا لعله يصمت أو يتراجع:

ـ إنها خطيبتي؟

ـ أنا متأكد مما أقول، إنها من كلية الحقوق، أليس كذلك؟ كل من في الكلية يعرفونها.

استدار نحوي، حدق في وجهي وهو يواصل الصراخ:

ـ ابتعد عنها فورا، مجيئك بها إلى هنا خطأ قاتل..

كنت مبهوتا، غير قادر على الحركة أو الرد، بدا أمامي مثل عملاق مخيف، تحول البدروم إلى كهف مظلم واجتاحت الرعدة بدني، سمعت صوت فاطمة قادما من بعيد:



ـ أنت كاذب ومعقد..

صرخ، مرددا عشرات الاتهامات، أحسست بدوار شديد، امتلأ رأسي بالألم، استدرت إليها ولكنها لم تكن موجودة، سمعت الباب يصطك بعنف ثم ساد الصمت، وتقدم الحماقي مني ووضع يده فوق كتفي وهو يقول:

ـ يجب ألا تنخدع بهذه السهولة، إن أساليبهم كثيرة.

أفقت أخيرا، عدت من عالم الذهول لأرى وجهه الشاحب المنفعل أمامي، لأرى بريق عينيه الغريبتين، صرخت:

ـ أنزل يديك من على كتفي.

أنزلهما بسرعة، حدقت فيه صارخا:

ـ كان يجب أن أحطم فمك قبل أن أدعك تنطق بهذه الكلمات.

عبرت الغرفة تحت عيونهم الباردة، أغلقت الباب خلفي، أدركت أنني لن أعود إليهم مرة أخرى، كنت مجنونا بالتساؤل، هل ذهبت، هل ضاعت؟ صعدت الدرج المؤدي إلى الطريق مسرعا، وجدتها جالسة على الدرج المقابل للمدخل مكومة ومستندة إلى الجدران وجسدها يهتز في صمت، تنفست في ارتياح وأنا أجلس أمامها، وضعت يدي على ركبتها، وأنا أهتف:

ـ حمدا لله لأنك لم تذهبي.

أزاحت يدي، ضمت ركبتها إلى صدرها، هتفت في صوت بارد:



ـ لقد ترددت..

ـ ماذا؟..

قالت من بين أسنانها: عندما وجه إليّ الاتهام ترددت، لم ترد عليه على الفور، جزء منك كان يصدق، جزء من عقلك كان يفكر.

ـ كذب يا فاطمة، لم أشك فيك أبدا، لقد قاطعتهم وجئت خلفك..

ـ بعد أن فكرت، كان يجب ألا تفكر، يجب أن تكون ثقتك فيّ مطلقة، لا تخضع لأي أهواء أو كلمات، لقد ترددت يا على، وهذا فراق بيني وبينك.

ـ لن يكون هذا يا فاطمة، لقد تركتهم من أجلك، وسوف أترك كل شيء، من أجلك.

نهضت دون أن ترد عليّ، بدأت تسير نحو الباب، جريت خلفها، أمسكت ذراعها ولكنها انتزعتها مني في حدة، وصاحت:

ـ لا تسر خلفي، لو فعلت فسوف أصرخ وأقول للجميع إنك تطاردني.

كانت تتحدث بشراسة غير عادية، تراجعت من أمامها، فتحت حقيبتها وأخرجت النقود، ألقتها على الأرض تحت قدمي ثم خرجت من باب البيت، ورأيتها وهي تبتعد وتغيب في الظلام.

إلى أين أفضى بك هذا الليل يا فاطمة؟



المحلات تغلق أبوابها، والظلام يسود المدينة، والصمت يطبق على كل شيء، وأنا أترنح وحيدا وسط الطرقات، كأن الجرح الذي في رأسي قد عاود الانفتاح من جديد، ينفذ منه إلى تلافيف جسمي ألمٌ من المستحيل احتماله، أهذي باسمها وأنا أعدو، يرمقني المارة القلائل في حذر ودهشة، هل يمكن أن تختفي بهذه السرعة؟ هل يمكن أن تضيع مني لأجل هذا السبب؟ مستحيل، سوف تزول لحظة الغضب وتعود، سأذهب أنا إليها، سأعرف أين تسكن، سأرصد جدولها في الكلية..

عدت إلى باب المنزل المؤدي للبدروم، أخذت لفة النقود الملقاة على الأرض، نقود فاطمة التي رفضتها، كان يجب أن تدفعها حتى تستمر معي في نفس المدينة، عدت أجري في الشوارع، وصلت إلى حافة النهر، سرت في نفس الطريق الذي سرنا فيه، وسط الظلام الكثيف والألم الممض، هنا تفترق كل الطرق فأيها طريقك يا فاطمة؟ والبيوت متشابهة والنوافذ مظلمة، والنجوم مطفأة والقمر محاق والسحب راحلة والنهر غائض ولا توجد إشارة تهديني إليك، الألم يغمر كل جسدي وأنا أنتزع قدمي من أسفلت الشوارع ومن أوحال الطرقات ومن عطن الحواري، يغوص جسدي في بحر من العرق اللزج وأرتجف من فرط الحمى، لست أدري كيف وصلت إلى البيت، ولا كيف صعدت السلم؟! ولابد أنني قد دست فوق القطط لأنها ماءت في فزع، ولابد أنني قد تعثرت أكثر من مرة فقد تلوثت يدي ببقايا القمامة، استلقيت على فراشي والتفت حول عنقي عشرات الأصابع، صرخت، أنقذيني يا فاطمة فلم



يخرج صوتي، جاءت ووضعت في فمي علبتها الذهبية، ضحك «الكوتش» وكشف عن رأسي المليء بالغرز، ورفع علاء الحماقي سلسلة الشيخ «مؤمن» عالية، كلهم جاءوا، ارتدوا أقنعة، وخلعوا أقنعة، مدوا أظافرهم، نهشوا طفولتي وقدرتي على البكاء وأخذوك بعيدا، غاص النهر في جسدي وامتلأت عروقي بالطمي والطحلب اللزج ولم أعد قادرا حتى على ذكر اسمك.

صرخت يا فاطمة فاستيقظت، ورأيت أمي جالسة بجانب فراشي دامعة العينين، كم لبثت في الحمى، كم فقدت من الوقت الحرج؟ نهضت وغيرت ملابسي وتوسلت إلى أمي أن أرتاح قليلا، ثم أعطتني النقود الملوثة بالطين دون أن تسألني عن مصدرها، رأتها ساقطة بجانب فراشي، عدوت إلى الخارج، هذا النهار هو فرصتي الأخيرة كي أصل إلى بيت الطالبات، بدأت رحلتي من شاطئ النهر، وأخذت أدور في الشوارع، لا أدري إن كنت أقترب أم أبتعد، الشمس حارقة، والغرز تشد فروة رأسي في قسوة، سألت البوابين وبائعي السجائر وعساكر الدورية، واصلت الطواف حتى وصلت إلى عمارة قديمة كالحة اللون يحيط بها سور نصف مهدم ولم تكن عليها لافتة، بدت رءوسهن الصغيرة خلف النوافذ، وامتدت قطع ملابسهن على حبال الغسيل، وأوقفني البواب العجوز بجانب الباب طويلا حتى يستأذن المشرفة، وامتلأت الطرقة حولي بالبنات المتطلعات، أشرن إلى الرباط الذي فوق رأسي وهن يضحكن في سخرية، وحين حدقت في وجوههن أبحث عن فاطمة، أخرجن لي ألسنتهن الصغيرة الحمراء، تطلعن من خلف الأبواب المواربة



وهن يهززن رءوسهن، وشعورهن الملفوفة على حلقات معدنية، ووجوههن المتناثر عليها بثور حمراء، أصدرن أصواتا غريبة، كن أشد جرأة مما نراهن في الطريق، حدقت فيّ المشرفة بنظرة مستغربة، رأت شكلي الصغير، والرباط على رأسي، ووجهي المجهد، والنقود الملوثة بالطين التي أمد بها يدي، وقالت لي الجواب الذي كنت أعرفه وأتوقعه وأخاف منه..

ـ لقد رحلت منذ الأمس..

ـ إلي أين؟..

ـ لا أحد يدري، ولا نريد أن ندري، يكفي ما سببته لنا من مشاكل، لا مكان لها عندنا، هل أنت قريبها؟

ـ خطيبها.

ـ لو كان الأمر كذلك حقا فلابد أنك تعرف مكانها..

رنة السخرية كانت واضحة في كلماتها، عاودت الانهماك في الأوراق مرة أخرى وتجاهلت وجودي، كأنني لست واقفا أمامها مادًّا يدي بالنقود الملوثة بالطين، لم أجد بدًّا من انتزاع قدمي وأستدير وأخرج من الباب منكسرا، أقف حائرا وسط الطرقة ترمقني عاملة التنظيف العجوز بلا اهتمام، وتخرج البنات من غرفهن يتأملن هيئتي الزرية في استغراب، فأقول لهن..

ـ إني أبحث عن فاطمة يا بنات، فهل منكن من تعرف الطريق إليها؟



يتهامسن ويشرن إليّ ويتحدثن فأختنق برائحتهن وهمسهن ووجوههن الشبيهة بالقطط الجائعة، تقول إحداهن، لقد ذهبت إلى سكن آخر، وتضيف ثانية، إلى مدينة أخرى، تتناثر الكلمات، لقد ضبطوها وهي تسرق حليّ إحدى زميلاتها، اخرسي، أنت كاذبة، إنها بريئة، كانت يائسة وتفكر في الموت، كانت رقيقة، كانت غامضة، مرحة، تبكي وحدها، وتهاجمها الكوابيس، كانت.. وكانت، ولم تعد موجودة، لكنهن موجودات، باقيات، يتحدثن بكل أنواع الكلمات الفارغة ما عداها، الكون ثابت ومستقر وهي دائمة الغياب، تتركني دائما في مواجهة افتقادها القاسي المستمر.

إيه يا فاطمة، ياغربتي الدائمة، جاء اليوم السابع، اليوم نفسه الذي خلق فيه الله العالم، أفقت من الحمى، وذهبت إلى المستشفى ففككت الرباط الذي يمسك فروة رأسي، وفتحت كل الكليات أبوابها، وانسحب رجال الأمن المركزي، وبدأت رحلتي المضنية في البحث عنك بين المدرجات وقاعات الدرس وأماكن الاستراحة، سألت كل الطالبات، وحضرت معظم المحاضرات وكنت أعرف أنني لن أجدك إلا حين ترغبين في ذلك، لم نعد أطفالا بعد، ولم تعد الجروح تندمل بسهولة، ولكنك لم تمنحيني فرصتي هذه المرة، كان اختبارك لي قصيرا وقاسيا، ظللت أطوف مثل نحلة أصابها الجنون لا تجد زهرا ولا مستقرا، لا جوع ولا ظمأ، أسألهن، فلا أظفر إلا بنظرات السخرية حتى أن بعضهن كن يبدين الاستعداد لإقامة علاقة بديلة، كن يسخرن من شدة إحساسي

بالافتقاد، ترى، لماذا تركت كل أحلامك هكذا دفعة واحدة، لماذا كنت بالغة القسوة عليّ وعلى نفسك؟

قالت لي :أنت توشك أن تقتل نفسك.

رفعت رأسي فوجدت سلوى واقفة أمامي، جلست بجانبي وحدقت في وجهي وهي تهتف في اهتمام :

– ماذا يحدث لك بالضبط، كيف تدهورت أمورك لهذه الدرجة، لا تحضر المحاضرات، ولا دروس العملي ولا تدخل المستشفى، ماذا حدث، لماذا تبدو تائها لهذا الحد؟..

نظرت إلى وجهها كأنني أفيق من غيبوبة طويلة،أتساءل فعلا، ماذا حدث لي؟ أحدق في وجهها الرقيق، أود لو أبكي وأخبرها بكل شيء، ولكنني أحس بالخجل وأنا أستمع إلى كلماتها، وأرى خوفها وخشيتها عليّ، كنت أخاف أكثر من أن أكون مثيرا للسخرية، قلت:

ـ إنني أحس بالضياع..

قالت وهي تبتسم:لأنك تركت علاء الحماقي وجماعته، إنني سعيدة بذلك رغم أن الغيظ يأكلهم..

كانت تعلم نصف القصة، أم تراها فقط أرادت أن تعلم الجزء الذي يرضيها، كنت قد أدرت لهم ظهري بالفعل، كرهتهم لدرجة المرض، ولكن ذلك لم يفدني كثيرا، قالت سلوى:

ـ تعال معي،أنا هنا لأساعدك..



وركبت معها سيارتها البيضاء للمرة الأولى، سرنا وسط الشوارع، قطعنا المدينة كلها طولا وعرضا في زمن وجيز، كانت سلوى تتحدث وأنا أنظر شاردا إلى الأرصفة، هل يمكن أن ألمحها ولو بالمصادفة؟ كان قلبي يدق في وجل وأنا عاجز عن الخروج من دائرة فاطمة والبحث المضني عنها، لا أدري عم تتحدث سلوى، لعلها كانت تتحدث عن نفسها، أو عن الكلية، أو عن المستقبل الذي يجب أن نحلم به، وقفت بجانب النهر فشاهدت الكوبري القديم الآخذ في التحلل، والطيور التي أنهكت من فرط الحومان، والموج المتثاقل بما في جوفه من طحلب وعطن، قالت سلوى:

ـ لم أكن أدرك أن حالتك بهذه الصعوبة.

الأيام تتراكم، والامتحانات تتوالى، وأنا أنتزع نفسي من دائرة البحث إلى عتمة اليأس ـ الراحة التي لا مفر منها ـ كلما تلفت وجدت سلوى بجانبي، لم تعد تخفي رغبتها في مساعدتي، تحولت إلى أم صغيرة بالغة الرقة، انتقلنا من جثث المشرحة إلى المرضى الأحياء، من صمت الاستسلام إلى صرخات الألم، كانت رحلتنا الصباحية إلى المستشفى يلاحقها دائما صرخات الموت.

كأن هؤلاء النسوة المتشحات بالسواد لا ينتقلن من أمام باب المشرحة، يبكين كل الموتى، كففت عن البحث، دخل قلبي يقين مؤكد أن هذه كانت مرتي الأخيرة معها، بدأت أدخل ببطء عالم سلوى الغريب الناعم.



أكتشف أن لها جانبا آخر من الأصدقاء، معنا في نفس المدرج، يدرسون نفس الساعات ولكنهم لا يروننا ولا نراهم، على الأقل لم أكن أنا أراهم جيدا، يأتون إلى الكلية في سياراتهم المختلفة الألوان، ويجلسون بين المحاضرات في استرخاء يتأملون كل شيء في نوع من التعالي واللامبالاة، لست أدري كيف قادتني سلوى إليهم، كيف حاولت أن تزرع جسمي الغريب بينهم، في المرات التي جلست فيها معهم لم يحسوا تقريبا بوجودي، ولم أحاول أن أفتح معهم أي مجالات للحديث، كنت ألمح الحماقي وهو يمرق من بعيد، أرى وجهه الشاحب وعينيه اللامعتين، هناك شيء في داخله لا يكف عن الاحتراق حتى يفنيه تماما، وكان «الكوتش» هو القاسم المشترك في معظم الجلسات، رمقني بتساؤل حين رآني جالسا معهم وحين رآني أركب السيارة مع سلوى، ولابد أنه عرف في هذه اللحظة مصدر العلبة الذهبية ولكنه لم يتكلم، كان يمكن أن أتشاجر معهم منذ اللحظة الأولى، عندما أعلنت أمامهم أنني أكتب شعرا رفع أحدهم حاجبه وهو يقول:

ـ حقًّا، شاعر حقيقي.

وقال أحدهم في لهجة شبه ساخرة:

ـ لم أكن أعرف أن سلوى تهوي قراءة الشعر..

احمرَّ وجه سلوى وحدجته بنظرة قوية وهي تهتف:

ـ أفضل منك، فأنت حتى لا تعرف القراءة، ولا الكتابة..



ضحكوا جميعا، دون غضب، لم يكن هناك ما يمكن أن يغضبهم، نظرت إليَّ سلوى في استغراب وقد بدأت أتحسس مواطن قوة شخصيتها، كانوا يشبهون تماما تلك العجينة التي يجيد صياغتها إحسان عبدالقدوس في معظم قصصه، لا أدري إن كان يحبهم أم يكرههم، ولكني لم أحب هؤلاء الناس الذين أرغمتني سلوى على الجلوس في وسطهم.

عشت معها لحظات في الحقيقة، نمت علاقتنا ببطء وبدون تردد وبلا استعجال، كمن يخرج من غيبوبة طويلة فقد خلالها الإحساس بالحياة وبدأ يعيد اكتشافها من جديد، لم أستطع أن أمنع نفسي من الخجل كلما ركبت معها السيارة، وكلما أشحت بوجهي عن علاء الحماقي وجماعتي القديمة وكلما رأيت جريدة غاضبة معلقة على الحائط دون أن يكون لي نصيب في غضبها، لم أكن أفكر، لم أكن أريد أن أفكر، وحتى عندما وضع «الكوتش» يده على كتفي وهو يقول:

ـ من المؤكد أن سلوى تحبك.

كان واثقا من كلماته، ولم أدر كيف سمح لنفسه أن يتدخل هكذا، ولكنني وجدته قد تسلل بالفعل وأصبح قريبا مني إلى حد كبير، كنا نقف في الفناء الخلفي للكلية وكانت النافورة قد تعطلت وبدا العطن الأخضر وصفوف النمل تزحف إليها، قلت بصوت مختنق:

ـ لا أعتقد، ربما كان هذا نوعا من الصداقة، هذا هو ما أحس به على الأقل.

أشعل سيجارة وامتص نفسا منها بشراهة وهو يقول:

ـ أنت خائف، خائف منها، الفتاة التي رأيتها معك في الصناعة كانت تشعرك بالأمان أكثر، أليس كذلك؟

صمت، ماذا يمكن أن أقول عن حلم ضائع، وهل يمكن أن يفهم شخص مثل «الكوتش» ذلك، كان يبدو مختلفا إلى حد كبير، صوته منخفض ويتكلم بنوع من الاتزان الغريب، ورغم ذلك لم أستطع التعود على مناقشته بجدية، قال:

ـ لا أحب أن أعرف الكثير من الناس، ولكني أعرف عن سلوى وأبيها أشياء كثيرة.

ـ أنا لا أهتم..

ـ عليك أن تهتم، سلوى لديها كل شيء تقريبا، لا تنتظر شيئا من أحد، تنتظر فقط من يأخذ منها..

هتفت في حنق: لا أحب هذا الأسلوب، ولا هذا التفكير..

وضع يده على كتفي وهو يقول:

ـ لا تفكر كالتلامذة، بعد شهور قليلة لن نكون تلاميذ بأي حال من الأحوال، حتى أنا، التلميذ الأبدي، قررت أن أتخرج هذا العام، أخيرا لن أنهي الدراسة فقط، ولكن سأتخلص من أفكارها أيضا، لا وقت للأحلام ولا الشعارات ولا الكلمات المثالية،عندما تتخرج سوف تكتشف أن زمن الحماقات الصغيرة قد انتهى إلى الأبد.

يتحدث بمنطق قوي وغريب، كأنه يقرأ الجانب الخفي من أفكاري، الذي لا أستطيع أن أواجه به نفسي، يحدق فيّ يحاول أن



يعري الأطماع التي زرعها الفقر بداخلي،استدارت الشمس وبدأت تنحدر خلف النهر، وانسحبت الطيور وتركت السماء جامدة، لم تكف أسراب النمل عن الرحيل إلى شقوق الرخام في النافورة المعطلة، خيل إليّ أن الشقوق تواصل الاتساع، والنافورة على وشك التداعي لتتحول إلى فتات من صخر، يحملها النمل ويمضي بعيدا، ضحك الكوتش ساخرا:

ـ ألم تسمع بالمثل: «إذا لم تجد الفتاة التي تحبها، حب الفتاة التي تجدها»، إنها أغنية الجميع، لماذا لا تغني مثلهم؟

كنت مغتاظا منه، هتفت من بين أسناني:أغنية نفعية..

ضحك في سخرية وأشعل سيجارة أخرى:

ـ نفّع واستنفع، لقد بقيت في هذه الكلية أكثر مما ينبغي، رسبت في كل السنوات، ورأيت كل الدفعات وسمعت قسم أبو قراط حتى مللت ومل الجميع منه، لم يعد أحد يقسم به على أي حال، ورأيت عشرات من قصص الحب الفاشلة والقلوب المهشمة، شاركت في مئات المظاهرات ورفعت شعارات لم أقراها ولا أعرف ماذا تريد، سمعت كلاما عن المبادئ وكلمات المحبة والإخلاص، أقنعة يرتديها الجميع، وكلمات جوفاء محفوظة يرددونها، لم أعد أؤمن بشيء، في هذا العام أحسست أني كبرت فجأة، من فرط رعبي أخذت أصبغ الشعيرات البيضاء التي نبتت فجأة، بعد كل هذه الحروب والمظاهرات والإخفاقات المتوالية كيف يمكن أن نظل

أطفالا؟ شخنا مبكرا، ما ضرّ أن تكون واقعيا، لا أحد يتغذى بأكل السحب، هذه الفتاة تريدك،تقدم لك نفسها وهي مغمضة العينين، حماقات الثراء، خذها إذن بشروطك وكف مؤقتا عن قول الشعر حتى لا تفسد كل شيء.

استمعت إليه دون أن أكون قادرا على مناقشته، ربما لأنني لم أكن أملك قوة منطقه، كنت أنزلق إلى طريق لا أعرف نهايته، كنت مأخوذا، عاجزا عن التفكير الصحيح أراقب نفسي حين أكون مع سلوى كأنني أتفرج على شخص آخر، أسعى إلى المقهى الذي يجلس عليه «الكوتش»، أستمع منه إلى مزيد من الكلمات التي لا أحبها والتي لا أستطيع الرد عليها، كان يجلس في قهوة بلدي مع بعض تجار الحي، يتحدث معهم بنفس الصوت العالي والنبرة المنطلقة التي يتحدث بها في الكلية، كنت بجانبه طالبا ضئيلا، واكتشفت أنهم لا يتعاملون معه كطالب ولكن كأستاذ في الكلية، استثمر أكاذيبه وإقامته الطويلة في الكلية، وأفهم الجميع أنه قد تخرج منذ زمن بعيد وأنه يعمل بالكلية أستاذا للتخدير، وقد أعفاه هذا من وصف أي أدوية أو معالجة أي أمراض أو تقديم أي استشارة، كان فيه شيء خارق للعادة، رغم أنه كان قادما من جذور بالغة الفقر مثلي ولكنه استطاع أن يحول شهوة الحياة في داخله وإحساسه بالوضاعة إلى شخصية أخرى، ارتدى فوق جلده إيهابا آخر، كان وغدا بطريقته الخاصة، يعيش عالم المدنية السفلي باستمتاع، وحين تتبعته لم أجده مؤذيا إلى حد كبير، تركته يقودني إلى الغرز، وشقق



العزاب، وجلسات الحشيش وبيوت الدعارة التي تطل على الجانب الآخر من النهر ومراهنات الديكة وجلسات القمار، ولم أستطع أن أشاركه في كل هذه الأشياء ولكني كنت أتفرج عليه مبهورا ومأخوذا ومستسلما كأنني أسير خلال نومي، وهو يمارس سخريته الخفية التي لم تعد تثير غضبي، كان يصرخ فيّ:

ـ كيف تكتب الشعر وخبرتك محدودة إلى هذا الحد؟

كنت أتساءل: إن كان يمكن أن أتعلم منه، وأتغير، وأقنع نفسي بأن سلوى يمكن أن تصلح مادة للتعويض، عن فاطمة، عن أيام الفقر، هل تستحق مثل هذه الفتاة الرقيقة هذا المصير؟ كنا أنا والكوتش لا نكف عن السير في حواري الليل، وفي كل مرة يقودني إلى مكان جديد، يتصرف فيه كأنه يملكه، كنت دائما أسأله نفس السؤال:

ـ هذا المكان الذي نحن ذاهبان إليه، هل يخصك؟

وكان دائما يضحك بصوت أجش: أنا كالغجري، لا أملك شيئا على الإطلاق، ولكن العالم كله ملك يدي.

وظل يتصرف على هذا الأساس، العالم كله ملكية خاصة له، وفي العادة كان يظفر به.

كان يجب أن تدوي صفارات الحرب مرة أخرى، أن نعيد اكتشاف الحقائق القديمة من خلال الظلام، ريح باردة من الخوف والفرح، مرة أخرى كان علينا أن نخلي كل أسرَّة المستشفى، تم هذا بسرعة أكثر لأن الحرب كانت مفاجأة للجميع، كنت هذه المرة قد



تخرجت وارتديت المعطف الأبيض، وأصبح لي الحق في المرور على المرضى، بدأت رحلتي العبثية لمعرفة منابع الألم، وأدركت منذ البداية أنه لا نهاية ولا علاج لهذا الألم، السعادة مكتسبة والألم دفين، علينا أن نخرج كل حالات المرضى المزمنة التي تعودنا على وجودها، حالات محكوم عليها بالموت الحتمي، ولكنها لا تموت ولا تحيا، تجيء إلينا دائما في الشهور الأخيرة من كل عام دراسي، تستلقي منهارة على الأسرة وتتلقى العلاج المؤقت في انتظار أيام الامتحانات حتى يتوافد الطلبة الذين لا يعرفون من تفاصيل المرض بقدر ما يعلم كل واحد من هؤلاء المرضى، لم يكن هذا وقتهم، الموت الحقيقي كان رابضا في وسط الرمال بعد أن فتحت الحرب أبوابها، كأن تصف الزجاج المطلي باللون الأزرق قد تكسر وتهاوى دون أن يفقد لونه، وقالت سلوى:

- لن أعود إلى المنزل، سأتصل بأبي وأخبره أنني سأبقى الليلة في المستشفى.

بدأت هي أيضا حياتها العملية بوجه صلب مليء بالحزم، حاولت كثيرا أن أفصلها عن «الشلة» الذين تجلس بينهم وعن السيارة التي تركب فيها، حاولت هي أيضا أن تجذبني إلى كل هذه الأشياء، وظلت كلمات «الكوتش» الملعونة تطاردني كلما طالت بيننا لحظات الصمت، من المؤلم أن أفكر في فاطمة وسلوى معي، أن أحاول المزج بين عالمين من المستحيل المزج بينهما.



كنا نقف في وسط العنبر: الأسـرّة مازالت بيضاء وخالية، الممرضات يسرن بخطى خفيفة لا تكاد تلامس الأرض، يحضرن زجاجات الدم والمحاليل والجلوكوز، وأضواء النيون ترسل ضوءا شاحبا جعلنا جميعا نشعر بالخوف، مررنا بهذه التجربة المروعة من قبل، الراديو يلقي نفس البيانات، والأطباء يراجعون آخر لمسات التعقيم في غرفة العمليات، صمت زائف وهدوء مخيف، وترقب يثير الرعدة وعدم قدرة على تصديق أي شيء، ستبدأ حربنا الحقيقية عندما تدوي صفارات سيارات الإسعاف، ويبدأ سباق الزمن المرعب بين الموت والحياة دون أن يستطيع أحد إيقافه.

قالت سلوى: تكاثرت الحروب علينا..

نظرت في عينيها، لم يعد هناك وقت للراحة أو للحب، أو للبحث عن الأحلام المفتقدة، هل يمكن يا سلوى أن نعبر بسهولة كل الحواجز التي بيننا؟ هل يمكن أن نرتبط معا، ونعيش معا؟ ماذا ستقولين حين ترين منزلنا وترين أبي الذي مازال مصرًّا على النوم على الأرض، وأمي التي برتها سنوات الخدمة في البيوت ولم تترك على عظامها إلا رقائق من جلد ناحل؟ كيف ستدخلين بسيارتك شارعنا الضيق، وتخرجين من شقتنا الضيقة وثوبك محتفظ بنصاعته؟ كان من السخف أن أفكر في كل هذا وأنا أرى ابتسامتها، ونحن نقف في انتظار الموت على حافة الأسرة الخالية.

بدأت الحمى، ودوت أولى الصفارات، أخذنا نعدو جميعا، فتحت كل أبواب العنابر وانتفض زجاج النوافذ، واستيقظت طيور



الليل، أخذت النقالات تزحف في سرعة، تناثرت خيوط الدم والرمل والبارود، تعالت الشهقات وصيحات الألم، وانخفضت مؤشرات ضغط الدم، وتحول الصمت إلى هدير متصل ومازلنا نواصل الجري، لا يرى أحدنا وجه الآخر، نرى الجروح، البسيطة والمميتة بكل أشكالها، نبحث عن شرايين الدم، نغرز فيها الإبر حتى تسري محاليل الحياة، ثم نبحث عن الضمادات، نعقم الإبر المقوسة، ونلضم فيها الخيوط السوداء، نضم أطراف الجروح الممزقة بواسطة الغرز، لا وقت لاستخدام أي مخدر، نسقي المحتضرين آخر قطرات الماء، ونغمض أجفانهم بعد آخر رؤيا، ونتلو الشهادة وكلمات الرحمة ثم نهرع لإحضار المزيد من المحاليل والدم وأكياس البلازما.

ثم جاء جندي غريب الهيئة مستلقيا فوق نقالة قادمة ببطء من الطرقة الطويلة، لم تكن حالته بادية الخطورة، ألقوه على أحد الأسرَّة في الركن، من النظرة الأولى أدركنا أنه ليس مصابا بأي جرح، سمرته مصرية خالصة، كل ما في الأمر أن جسده كان يهتز في حركات متوترة، نفذت صدمة الحرب إلى كل خلايا جسده ففتحت فيه جرحا بطوله وعرضه، لا يظهر على جلده إلا بعض السجاجات البسيطة، ولكن كل عضلة منه كانت متوفزة ومشدودة تحت الجلد، ظل جسده كله يوالي الانتفاض حتى انتقلت الرعدة إلينا، نقل إلينا أول دوي للحرب وأول صرخة للقتال وأول فزع من الموت، كان جسده المستلقي أمامنا مليئا بالأصوات، جسد الفلاح الذي أخذ من الحقل إلى رمال القتال دفعة واحدة، يداه مضمومة



الأصابع، مثنيتان ملتصقتان بصدره كأنهما توشكان أن تطبقا عليه، اقتربت أنا وسلوى، حاولنا أن نفرد ذراعيه أو نفك أصابعه، ازداد تشبثا، ضم ذراعيه إلى صدره وبدأ يبكي في رعب وهو يصرّ على أسنانه، محاولا التماسك..

ـ فلنعطه مخدرا..

كان نحيفا، عروقه بارزة، متقلصة ومتأهبة، غرست فيها إبرة المخدر فانتفض جسده لوخز الألم، وجاء ممرض ضخم ووضع يده على كتفيه وضغطه إلى أسفل كي يثبته في الفراش، ثم ابتعد بعد أن أفرغت المحقن، بدأ جسده يهدأ أخيرا، توقف عن الانتفاض ببطء ولانت عضلاته واسترخى وجهه، بدا أصغر سنا وأقل سمرة، ابتعدت ذراعاه عن صدره، أمسكت بذراعه وبدأت أفك أصابعه، كانت سلوى صامتة تتطلع إلينا بعينيها الواسعتين، لم يكن في قبضته إلا حفنة من الرمل، بيضاء وناصعة، فيها القليل من ذرات البارود، استكانت لشقوق يديه وتعرجت معها وبدت كأنها طبقة باهتة فوق خلاياه، هذا هو الرمل المحرم الذي حلمنا به طويلا، مددت أصابعي إلى كفه وتناولت بعضا منه وتحسستها بهوادة، رأيته فجأة وهو يقفز وسط فوهات النار، ينحني ويحاول التشبث بهذا الرمل المتسرب، بدأت ابتسامة واهنة تعلو شفتيه بعد أن ظفر بهذه البرهة القصيرة من الراحة، لعله استعاد فيها كل ذكريات طفولته في قريته البعيدة، سمعت سلوى وهي تبكي في صوت خافت، كانت تتأمل هي أيضا ذرات الرمل البيضاء على أطراف أصابعها، كل شيء كان



غير واقعي، على الحافة الفاصلة بين الحلم واليقظة، سارت إلى أحد الأركان، وقفت بجانب النافذة ومسحت دموعها في سرعة، كانت تظن أن أحدا لم يلحظها، أمسكت أصابعها وقبلتها، لا أدري إن كان قد شاهدنا أحد، ممرضة واحدة ابتسمت وهي تعبرنا حاملة زجاجة من الجلوكوز.

دوت الصفارات في أرجاء المدينة، وأطبق الظلام علينا، ظللت ممسكا بيدها، كنا في حاجة إلى أي نوع من الملامسة، عاد الضوء خافتا، وأغلقنا كل النوافذ، ثم دوت صفارات الأمان، وعند الفجر بدأت حمى الحرب تهدأ قليلا، لم تعد هناك سيارات، ونام معظم الجرحى، وكانت المشرحة صامتة، قالت سلوى:

ـ فلنهبط إلى المدينة..

نصف قمر يهتز فوق الماء، تركنا سيارة سلوى في فناء المستشفى وسرنا على أقدامنا، هبت ريح باردة من على سطح النهر، وبدأت وشوشات اليقظة الأولى، ضمت سلوى ذراعيها حول صدرها، وأصدرت صوتا خافتا، قلت:

ـ هل تشعرين بالبرد؟

قالت في سرعة: بردانة، ولكني سعيدة..

وضعت يدي على كتفها، التصقت بي وواصلنا السير في بطء عاجزين عن الكلام، تذكرت فجأة ليلة الإسكندرية البعيدة عندما



صعدنا درج القلعة الأبيض إلى سماء مرصعة بالنجوم، لحظة غريبة وليلة غريبة يمكن أن يولد فيها أي شيء، تقودني سلوى إلى عالمها، إلى حيها الراقي على أطراف المدينة، المرة الأولى التي أرى فيها بيتها، أبيض وهادئ، يشع من جدرانه ألق خاص، لا علاقة له بنصف القمر المعلق في السماء، تتسلقه الأغصان الملتوية وتحيط به أشجار مليئة بأزهار الفل التي لا تكف عن التساقط، توقفنا أمام الباب، قالت:

ـ يمكننا أن نرتبط بشكل مؤقت، أبي سوف يتفهم ذلك..

فاجأني عرضها، حاولت أن أتبين ملامحها في الضوء الشاحب، قلت:

ـ ولكن يا سلوى، مازال الطريق أمامي طويلا.

ضحكت في صوت رائق وقالت: هل تفكر أن تدعني أنتظر طويلا؟

قبلتها وعدت وحيدا، تحدثنا عن الزواج قبل أن نتحدث عن الحب، لم تدع لنا الحرب وقتا، أم أن الجانب البارد من قلبي هو الذي كان يفكر! كانت لحظة خارجة عن زمني، تحت أغصان الشجر المتدلي والليل الشامل المتواطئ المليء بأصوات الغارات البعيدة، لم يكن هناك أي إحساس بالأمان، أو الحلم بأبعد من موطئ القدمين، في هذه الليلة والنهار يتخلق والقمر يختفي والنهر يرتعد أدركت أنني وصلت مع فاطمة إلى نهاية حكايتنا قبل الأوان.

انتهت الحرب أيضا قبل أوانها، تدفقت علينا أشتات من الجرحى والموتى بصورة بالغة الفزع، تحول وهج الأيام الأول من الحرب إلى كابوس من الموت والتشوه والأكاذيب الغريبة، كنا نجري ونتقيأ ونبذل دمنا ونحلم وتزيد البيانات المتوالية من قسوة الكوابيس، لم تنته الحرب بالنسبة لنا إلا بعد شهور طويلة، استمرت ملقاة أمامنا فوق الأسرَّة والمقاعد المتحركة ورفوف المشرحة الباردة، ثمن الانتصار يبدو فادحا، كنت متعبا وحزينا، ولكن ضابطا مستدير الوجه ذا شارب عريض وذراع واحدة قال لي:

ـ لقد حاربناهم هذه المرة حقا، لم يعد هناك ما نخجل منه، عندما يرون ذراعي أمامهم وسط الرمال لن يجرءوا على حربنا مرة أخرى،

كنت أريد أن أصدقه، لكن كل شيء كان مضطربا، وحتى علاقتي بسلوى لم تهب لي أي نوع من السكينة، ازداد شحوب أمي وغزت آلام المفاصل جسدها كله وأصابنا الأرق جميعا، ظل أبي ينام برفقتها ولكن على الأرض،هو يكتم كوابيسه المعذبة داخل بدنه، كل شيء كان يتغير، سنة الامتياز الطويلة، راتبي صغير ولكنه يبهرني لأنه أول راتب أتقاضاه، ولكن عالم ما بعد الحرب يبدو غريبا رغم ذلك، أكتب القليل من الشعر، وأحاول النظر إلى كل ما حولي فأجد سلوى، شديدة الصبر، قوية الاحتمال، تبدو كأنها تتفهم خوفي وترددي، ولكنها مصرة على أن أخطو خطوتي الأولى الرسيمة، أن أذهب لمقابلة أبيها، ولكن منظر البيت الفاخر كان يخيفني، كيف أدخله، وكيف أعرض عليه نفسي، وكيف أحكي له عن أبي وأمي؟



كان «الكوتش» للغرابة الشديدة قد تخرج، ودفع به هذا إلى حافة الجنون فأخذ يضحك في صوت منطلق ويعدو في أروقة المستشفى ليمسك صدور صغار الممرضات ولا ينام الليل أبدا، هائجا، منتشيا بالحياة، يسير وسط أطباء أصغر منه سنا، وأقل منه خبرة، ويحاول المستحيل كي يبدو مثلهم، كانت أخطاؤه الطبية رهيبة ولكن كثرة المرضى وصعوبة الأمراض كانت تداري كل شيء، وأخيرا قالت لي سلوى في صوت حازم:

- سوف تأتي اليوم لمقابلة أبي، لقد سأل عنك، وطلب أن يراك؟..

عاودني التردد، وهتفت: ولكن، ماذا سأقول له على وجه التحديد؟

- لا شيء، إنها مجرد زيارة للتعارف، عليك فقط أن ترتدي قميصا أبيض.

- لماذا أبيض؟

- أبي يحب اللون الأبيض.

وانصرفت وهي تضحك، كان عليّ أنا أيضا أن أغالب ترددي وأحاول الضحك..

بوابة خشبية بيضاء، وممر مكسو بالحجر الناعم يمتد وسط حشائش زاهية الخضرة، حلّتي كاملة وقميصي أبيض، سهرت



طوال الليلة الماضية وأنا أعيد ترتيب كل شيء، كيف أبدأ الحديث، وكيف أنتقل من موضوع إلى آخر، ثم كيف أختتم آخر الكلمات مستعدا للانصراف، ورغم محاولات سلوى المستمرة لتصف لي أباها فقد ظل مجهولا بالنسبة لي،أو ربما، لم أجرؤ على تخيله، تذكرت المرة الأولى، عندما وقفت في مواجهة أبي فاطمة في قاعة الأنوال الرطبة، كان هناك إنسان غيري يدخل من البوابة، ويخطو فوق الممر، إنسان غيري انتقى حلته بعناية وحلق ذقنه إلى أنعم درجة وعليه أن يحذر في أن يتحدث عن مرض أمه وأزمة أبيه، إنسان غيري يمد أصبعه ويضغط على الجرس وينتظر واقفا أمام الباب الذي تغطيه أشكال جميلة ومتداخلة من الزجاج الملون، إنسان لم تعد له القدرة على التراجع.

نظر إليّ الخادم الذي فتح الباب بوجه جامد وبلا اكتراث، كان نحيفا، يرتدي الملابس الكاملة وقميصا أبيض مثلي، أشار إليّ أن أدخل وهو يحني رأسه في ترفع، ثم تركني واقفا حتى أغلق الباب بعناية مبالغ فيها، تركني للحظات قصيرة أتأمل هذا العالم الغريب الذي خطوت إليه فجأة، دخل بأضوائه وظلاله إلى عيني في دفعة واحدة، لم أستطع أن أراه بصورة محددة، لم يستطع ذهني أن يستوعب ما رآه فجأة، لا المرايا ولا الصور ولا قطع الخزف أو السجاد أو الأثاث، من المؤكد أن لكل شيء اسما، وطرازا وتاريخا، لها وجودها الخاص مثلنا تماما، حتى النقود تعجز عن تقييم هذا الوجود، كان عليّ أن أخطو بينها، وأشم نفس الهواء حتى أستطيع أن أتعرف عليها جيدا، أتحرك ببطء حتى لا أخدش صمتها



وأصطدم بها عفوا، كأنها هي أيضا تتأملني، تماما كما يقف الخادم الجامد الوجه، هل أملك الجرأة على أن أمد يدي وأتحسسها، لم أجرؤ، كان اللمعان الذي يشع من ألوانها يشلني تماما، يجعلني خائفا من التقاط أنفاسي كاملة، لماذا لا تظهر سلوى لتنقذني وليته كل شيء؟

يرتجف الشاعر المسكين في داخلي مقرورا، هل يمكنه أن يعيش وسط هذه الأشياء، هل يمكنه أن ينتزع سلوى من بينها؟ ظل الخادم واقفا صامتا يتأملني دون أن يراني، تركني حتى توقفت عاجزا عن فعل أي شيء حتى الرؤية، هبط الدرج ببطء وعبر الصالة وغاب قليلا، ثم عاد وأشار إليّ أن أتبعه فانصعت، سرنا في طرقة طويلة تغطيها السجاجيد أشار إلى غرفة مفتوحة، غرفة مكتب، وتركني،ألم يكن من الأجدى أنا تقابلني سلوى بنفسها؟

كان هو جالسا خلف المكتب، منهمكا في مراجعة بعض الأوراق كأنه لم يسمع صوت خطواتي، رفع رأسه ببطء وأزاح النظارة ليراني جيدا ثم نهض وهو يقول في صوت متحفظ:

ـ أهلا وسهلا..

اكتشفت أنني مازلت أحمل في يدي باقة من الزهور الملونة التي لابد أنها ذبلت في هذه اللحظة بالذات، ولم أدر ماذا أفعل بها، ولا كيف أبدلها في يدي بحيث أمد له كفا خالية أرد بها تحيته، ابتسم ابتسامة صغيرة وضغط بطرف أصبعه على الجرس، التفت

نحو الباب كان الخادم واقفا باردا محايدا شاهدا على ارتباكي، تقدم ببطء وانتزع الزهور مني برقة، وانصرف دون صوت، وهكذا استطعت أن أرى أباها للمرة الأولى، لم يكن جلده حقيقيا بلا شك، كان مشدودا على عظامه بطريقة متقنة، لا تترك مجالا لأي ترهل، شد على أصابعي وهز ذراعي وأشار لي أن أجلس، وجلس متباعدا وهو يقول:

ـ سلوى حدثتني كثيرا عنك، كان يجب أن نتقابل قبل ذلك..

لم يكن يعني ذلك بالتأكيد، الغرفة يضيئها نور غير مباشر وغير معروف المصدر، أضفى على كل شيء طابعا من الغموض، قال لي:

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟..

بدأت الأسئلة أيضا بطريقة غامضة، انتزعت الكلمات الجافة من فمي وقلت مداورا:

ـ بخصوص ماذا؟

ـ مستقبلك بطبيعة الحال، أليس هذا ما تفكر فيه؟

هادئ ومحدد، كلماته مشدودة على فمه مثل جلده، ترى هل فرضت عليه سلوى مقابلتي؟ هل يلعب معي لعبة ما؟ قلت:

ـ التكليف، أمامنا عام تكليف، سوف أذهب إلى الريف..

قال فجأة في صوت عال، حاد بعض الشيء، فيه انفعال لا أدري سببه:



ـ كلام فـارغ، لقد مضى زمن العلاج المجاني والتعليم المجاني،وكل هذه الأشياء المجانية السخيفة التي تضر أكثر مما تنفع، سوف تبقى هنا بالتأكيد..

هذه هي البداية، عليّ أن أرفع رأسي كي أراه من جديد، دخل الخادم وهو يحمل صينية لا يوجد عليها إلا فنجان واحد من القهوة، وضعها أمامي ثم انسحب دون صوت ولم تظهر سلوى.

كان طعم القهوة مرًّا، وكان يجب أن أجادله وأعارضه ولكني شربت القهوة حتى آخر رشفة، قال مؤكدا كلماته وهو يجلس خلف المكتب:

ـ سوف تبقى هنا بالتأكيد..

بـدا كأنه قد أعـد كل شـيء، وأنـه يخبرني فقط بالنتيجة الحاصلة، قلت:

ـ زملائي كلهم سيذهبون إلى الريف..

قال في سرعة: أعرف، لقد حصلت على استثناء لسلوى من الوزير، ويمكنني أيضا أن أحصل على استثناء بالنسبة لك، إنها أمور عادية..

لابد أنه لاحظ حيرتي، وخيبة الأمل على وجهي، نهض وجلس أمامي وقال مبتسما:

ـ سلوى قالت لي إنك شاعر، حالم بعض الشيء، صدقني، أيام ما بعد الحرب مختلفة، ويجب أن نكون نحن أيضا مختلفين.

كنت أريد أن أفهم إلى أين يسير الحديث بهذه الصورة، مجرد حديث عادي لإزجاء الوقت، أم أن هناك هدفا محددا يسعى إليه؟ قال مواصلا كلماته دون أن ينظر إليّ:

ـ الأمور تغيرت كثيرا، الحرب غيرت كل المفاهيم القديمة، مصر الآن قد أصبحت مشروعا استثماريا ضخما، هل تفهم ماذا أعني؟..

لم أفهم، كنت أتوقع أن يحدثني عن سلوى، عن مستقبلنا معا، أن يعلن رضاه أو غضبه أو تحفظه، لم أتصور أن يدور في مثل هذه الحلقات الغامضة ولابد أن إضاءة الغرفة قد أصبحت أكثر عتمة فلم أعد أراه بوضوح، هل هناك صفقة ما يجري التمهيد لها؟ وما هذا الأب الذي يبدو غير حقيقي بجلده المشدود وكلماته المتلاحقة؟! ثم دخلت سلوى أخيرا، بسيطة ورقيقة وباسمة كعادتها، قالت:

ـ ماذا حدث، هل نجح في الاختبار؟

هدأ الأب تماما، وضع ابتسامة على شفتيه واستكان إليها، أدركت أنه على استعداد لأن يفعل أي شيء من أجلها، حتى لو أدى ذلك إلى أن يتقبلني، ولم يكن هذا مريحا بالنسبة لي، قالت سلوى:

ـ أبي عجوز، ولكن المدهش أن أفكاره حديثة جدا..

قال الأب حازما: أنتم العجائز..

حاول أن يظهر أمامها روحه المرحة، بدأنا نتحدث في هدوء، واستمع إليّ بلا انتباه تقريبا، تحولت نبراته إلى بعض من الرقة وإن

لم تختلف في معناها، كان قد رسم حدود كل شيء بالنسبة لأيام سلوى القادمة، بي أو بدوني، وكانت الخطوط واضحة في ذهنه غير قابلة لأي مراجعة أو مناقشة..

نهضنا من غرفة المكتب إلى المائدة، لم آكل إلا قليلا، تقلصت معدتي واصطدمت الملاعق بالشوك بزجاج المنضدة وحواف الأطباق وأصدرت صوتا خدش هدوء المنزل،بدا أن كل شيء قابل للكسر، تطلعت إلى سلوى وهي تبتسم وتمضغ الطعام ببطء، تدرك مدى حرج الموقف الذي وضعتني فيه، هل كان يجب عليّ أن أتذكر فاطمة في هذه اللحظة: الطبلية بأطباقها البسيطة، الأرغفة الداكنة القليلة والأيدي الكثيرة، وسط فناء الدار التي يغطي السناج جدرانها؟ هززت رأسي، يجب أن أكف عن مثل هذه الذكريات، أن أجفف طرف شفتي بالمنشفة وأن أتناول رشفة قليلة من الماء، ثم أعود إلى تجفيف شفتي وابتسم وأحرص على التحدث إلى أبيها بفم فارغ وأستمع إليه وهو يقول:

ـ منذ هذه اللحظة عليكما أن تفكرا معا في المشروع.

قلت: أي مشروع؟

قالت سلوى كأنها لا تعرف شيئا: أي مشروع؟

ـ مشروع طبي طبعا، ألم تتخرجا، يجب أن تستغلا شهادتيكما بشكل جيد.

قالت سلوى وهي تنظر إليّ مبتسمة: أبي لا يعترف بالأحلام..



قلت بصوت خافت: قال لي ذلك..

رفع الأب حاجبه متعجبا وهو ينظر إلينا معا: وهل يعترف بها أحد؟

انتهى الطعام، ولم يعد هناك داع لجلوسي بعد ذلك، ودعتني سلوى حتى الباب الخارجي ضغطت على يدي وهي تقول:

ـ لقد تركت لديه انطباعا طيبا، أنا أعرف أبي رغم أنه يجيد إخفاء مشاعره.

وظل الخادم واقفا جامدا متصبا، وعندما أصبحت في الخارج أخذت أسب «الكوتش» دون أن أدري لماذا!

قابلت سلوى في اليوم التالي، والذي يليه، وحدثتها من تليفون السكن في المستشفى، وتناولنا الغداء في أحد المطاعم، وتركنا السيارة بعيدا وتسكعنا على أقدامنا، كانت تمنح كل اللحظات التي أجلس فيها بالقرب منها نوعا من الصفاء الغريب، ولكن الذي حدث أنني بدأت أرى فاطمة.

كنت محشورا في أحد الأتوبيسات المزدحمة عاجزا عن التنفس عندما هبت من النافذة نسمة باردة من الهواء، نظرت عبرها فرأيت فاطمة وهي تسير على الرصيف في عكس اتجاه الأتوبيس، صرخت يا فاطمة، فالتفت كل الركاب إليّ، زاحمتهم كالمجنون حتى وصلت إلى الباب وتوسلت للسائق أن يتوقف فلم يتوقف إلا في المحطة، هبطت مسرعا، أخذت أعدو والجميع ينظرون إليّ من النوافذ، جريت دون توقف حتى وصلت للمكان الذي لمحتها



فيه، لم تكن هناك، كنت متأكدا من أنني أشم رائحتها، رائحة العطر الذي كانت تضعه في آخر يوم تقابلنا معا، كان باقيا في الجو شيء منه، أحس بوجودها ولكني لا أستطيع الإمساك بها، تلفت حولي وأنا أقف حائرا، ربما كانت تراقبني الآن من مكان خفي ولا تريد أن تظهر لي، أي عقاب قاس هذا الذي توقعينه عليّ يافاطمة؟ إنني في حاجة لأن تتجلي لي في هذه اللحظات، في أمس الحاجة إلى كلمة منك، أن كل شيء يتغير، كل الأماكن التي تحمل ذكرياتنا تسحق وتتهدم، كل المفردات التي استعملناها تنسى وتتبدد، فلماذا لا تظهرين قبل أن يضيع كل شيء؟

لم تظهر في هذه اللحظة، ولكنها ظهرت بعد ذلك كثيرا، كانت تمر بي مثل رؤية خاطفة، حلم يقظة، إشراق مفاجئ، كنت متأكدا من أنني أراها، حتى وأنا مع سلوى، ونحن نسير معا بالقرب من النهر ويدها في يدي، تعبرني فجأة مثل هزة كهربائية، في سيارة، في قارب، ترغم أصابعي على أن تتحلل من أصابع سلوى، وأن تهرب مني كلماتي ويغيض الدم من وجهي، وأن أجلس لاهثا على سور النهر فتهتف سلوى بي:

ـ ماذا بك، هل أنت مريض؟

وفي المستشفى كان ضغط دمي عاديا، ودقات قلبي منتظمة، كنت أعاني من خجل طاغ لم أتصور أن يمزقني إلى هذه الدرجة، أطل عليّ وجه «الكوتش» من خلف زجاج غرفة الكشف، غمز إليّ بعينه، ومضى مبتعدا، نظرت إلى وجه سلوى وأنا أهتف:



ـ إنني آسف بحق..

ـ ولماذا الأسف، نوبة من الإعياء تحدث لكل واحد منا..

لم يكن أسفي على الإعياءِ يا سلوى ـ كان الإعياء بعضا من الأسف ـ لم تكن تستحق ذلك، ويجب أن أغير من هذه النفس المتهافتة التي تسكن بداخلي حتى أستحقها.

ظهرت قوائم التكليف، كان اسمي ضمن الذين استثناهم الوزير من الخدمة في الريف، نظروا إليّ بطريقة خاصة ولم يعلق أحد، لمحت ظهر فاطمة وهي واقفة تقرأ اسمي في الكشوف، وحين وضعت يدي على كتفها التفت إلى وجه فتاة أخرى وهي تهتف بي مستنكرة، كان عليّ أن أتخلص من أسرك يا فاطمة، ولكن كيف ذلك وأنت تنبعثين أمامي فجأة، تحتلين كل فراغ ألجأ إليه كنوع من السلوى والعزاء، تظهرين دون سابق إنذار وتختفين دون عتاب، فلا أنت تظهرين لي كحقيقة واقعة، ولا أنت تتركينني في حالي، قالت لي سلوى:

ـ لماذا تبدو شاردا، هل أنت نادم لأنك لم تذهب معهم إلى الريف؟

كان زملائي قد أخذوا حقائبهم وأحلامهم، وركبوا سيارات الأجرة المتهالكة ثم انطلقوا إلى فجاج مصر، إلى كل القرى التي لا توجد لها طرق واضحة ولا تعرف النور وسط الظلام الدامس، يعودون مع مطلع كل شهر، يحملون حكايات غريبة عن عالم غريب كنا جزءا منه دون أن ندري، ربما لو أنني كنت قد ذهبت معهم إلى إحدى هذه القرى النائية المظلمة لرأيت فاطمة!



وبعد ذلك، لم أعد أرى فاطمة..

ازدادت حالة أمي سوءا، كانت رطوبة البيت كله تتسرب داخل عظامها، وجهها يزداد صفرة كل يوم وحركاتها تتناقص، قلت لها:

- يجب أن ننتقل من هذا البيت، الرطوبة التي فيه سوف تقتلك..

ابتسمت في شحوب وهي تقول: فات أوان ذلك يا علي.

كنت أعرف ذلك، العظام قد تقوست، والجلد قد تجعد، والمناعة داخل جسدها ترجعت لخطوطها الأخيرة، ظللت أواصل علاجها، عليها فقط ألا تستسلم، كنت أخشى أن تستسلم.

تعلمت أن أحلم دون فاطمة، أحلام صغيرة، ليست سعيدة، وليست سيئة، كنت أنساها في الصباح، تظهر فيها وجوه زملائي، وأبي وأمي، وسلوى أحيانا، ولكن بلا فاطمة، كان يجب أن أبحث عن شقة جديدة أقل عتمة ورطوبة، وعن شارع أوسع قليلا، وعن مساحة تدخل منها الشمس ولكن كل ذلك كان بعيدا، أحلام المعطف الأبيض مازالت عسيرة المنال، المرضى يحاصرونك بآلامهم، وأنت غير قادر على تخفيف ألمك، سلوى تنتظر مني أن أخطو نحوها خطوة أخرى لم أكن أجرؤ عليها، عاطفتي نحوها تنمو ببطء وكانت تأخذ كل ما تريده برقة ونعومة، ولكنها لم تستول عليّ، كان النهار لها، وأحلام الليل خالية من فاطمة، وكل شيء متشابه.

عندما انتهت نوبتي الليلية أصرت سلوى أن تصحبني معها في سيارتها، كنا في أول النهار، ولكنها أصرت قائلة:



ـ لا نوم اليوم، أمامنا أشياء مهمة..

ومرقت السيارة سريعا خارجة من بوابة المستشفى، اجتزنا الشوارع ومررنا بكل الأماكن التي تعودنا أن نجلس فيها، تركنا النهر والكوبري، ثم تركنا المدينة كلها، صحت قائلا:

ـ أهو اختطاف؟!

ابتسمت ولم ترد عليّ، كانت الحقول خارج المدينة تحيط بنا من كل جانب، تغير طعم الهواء، تركنا الأسفلت سريعا، أحدثت السيارة صوتا عاليا، وهي تدخل إلى الطريق الترابي الضيق، نظرت إليها وأنا أبتلع ريقي بصعوبة كانت تتطلع إلى الأمام، لم تر وجهي الشاحب، لم تسمع وجيب قلبي، تمضي في الطريق بسرعة وثقة كأنها قد سارت فيه قبل ذلك عشرات المرات، نظرت إلى الأمام دون أن أجرؤ على سؤالها إلى أين تتجه، كنت أتوقع في أي لحظة أن تنشق الخضرة عن التل الصدئ الملون والزجاج المتكسر الذي يعكس أشعة الشمس، متوقعا أن ينزع مصطفى نفسه من كوابيس الموت ويلملم أعضاءه ويحشو شقوق جسده بالطمي وينتصب أمامي ليسألني إلى أين أنا ذاهب، وهل سأهب سيارته القديمة لأحد آخر؟

توقفت سلوى بالسيارة فجأة، أثارت موجة عالية من التراب، ملأ صدري فأخذت أتشاغل بالسعال، ولكن كل شيء تبدد، أهبط من السيارة وأنظر حولي، المكان خال تماما، بقعة جرداء من الأرض لا يحيط بها إلا سور من الأسلاك الشائكة، اقتربت ببطء، لعله مكان آخر، لا يمكن أن يكون كل شيء قد اختفى فجأة، ولكنها



نفس الأرض العارية مغطاة بطبقة من ذرات الصدأ الداكنة، لم يكن الحارس العجوز موجودا، لم يظهر مصطفى ولا سيارته، وظلت الريح تزوم وتصنع دوامات من غبار الصدأ، تقدمت سلوى ووقفت بجانبي وهي تنظر إليّ في استغراب، هل كانت تتوقع أن يثير المكان في داخلي كل هذه الدوامة من الانفعالات، هذا الإحساس بالافتقاد المرير، التفت إليها، من العبث أن أنكر أنني أعرف هذا المكان..

قلت في صوت مختنق: كانت هنا مقبرة للسيارات؟

قالت في هدوء: لقد ألقوا بها بعيدا، هذه الأرض أكثر قيمة من أن تكون مقبرة للصفيح الصدئ.

التفت إليها، طريقتها في الكلام تشبه أباها إلى حد كبير، خيل إليّ للحظة أنه جاء ووقف بيننا، وأنه هو الذي يتكلم، قلت:

ـ ماذا تعنين؟

ـ أبي يفكر في مشروع مستشفى خاص، اشترى هذه الأرض وجهزها من أجل ذلك..

ـ ماذا؟

ـ الفكرة ليست مثيرة للفزع إلى هذا الحد..

استدرت وواجهت الأرض العارية، تذكار آخر يضيع، زمن يتآكل، لم تأت فاطمة معي هنا، ولم تقرأ الفاتحة، ولم تشاهد طيور البشاروش التي كانت تضع نفاياتها على سيارة مصطفى، كل شيء قد تبدد فجأة مثلما تبددت هي، أهي مصادفة أن سلوى وأباها قد اختاروا هذا المكان بالذات، قلت:



ـ ألسنا صغيرين بالنسبة لهذا الموضوع..

ـ لن نبقى صغيرين إلى الأبد، أبي لايفكر بنفس العقلية التقليدية التي تفكر بها، إنه دائما يقفز إلى المستقبل، ربما كنا أكثر شيخوخة منه كما يقول.

ألا يوجد خطأ واحد فيك يا سلوى؟ خطأ صغير يحمل لي بعضا من التبرير، صغيرة، رقيقة، ولدت في عالم بلا مشكلات، ولم تعان من نقص، لم تصبها أي من الجروح الصغيرة التي تترك ندوبها في الروح؟ تطلعت إلى الأرض الداكنة مرة أخرى، أليس هذا هو التفكير الصحيح، أن تدفن نفايات الماضي في مقبرة الماضي، وأن تنهض بدلا منها أحلام جديدة، أن تنكسر دائرة الضياع من هذه اللحظة وإلى الأبد؟ إن كل شيء يدنو مني فلم كل هذا الخوف؟ استدرت إليها، أمسكت بيدها وابتسمت، تلقت ابتسامتي بسعادة وشددت على أصابعي، عبث الهواء بشعرها فتناثر على وجهها بدت قريبة مني وعرضه لكل تقلبات الجو، قالت:

ـ بعد أسبوع يحين موعد عيد ميلادي، وسوف أقيم حفلا صغيرا، هل ستحضر؟..

ـ بالطبع..

ـ وبالطبع ستقدم لي هدية؟

ـ هذا أقل مايمكن..

ـ ماذا؟



نظرت إلى وجهها، لم أدر ماذا تعني؟ مؤكد أنها تعلم أنني لا أملك الكثير، فتات المرتب الهزيل الذي يتبقى كل شهر، ماذا يمكن أن أقدمه ويكون لائقا ببهاء «الفيللا» وجلال القطع الأثرية اللامعة الصامتة المتناثرة في أرجائها، قلت متهربا:

ـ فلنجعلها مفاجأة.

ـ أحب المفاجآت أحيانا، ولكن الآن.. لا أميل إليها..

نظرت في عينيها، أحسست أن الريح قد ازدادت برودة عما قبل، قالت:

ـ فلنعلن خطوبتنا..

فتحت فمي وحاولت أن أقول شيئا فلم أستطع، تأملت وجهي في هدوء وانتظرت جوابي في صبر، ولكن لحظة الصمت طالت رغما عني، قالت في صوت جاد:

ـ هل أنت متردد؟

ـ كلا.. فقط لست مستعدا..

ـ الأمر لا يتطلب استعدادات كثيرة، الرغبة أهم..

ـ هل كان هذا رأي أبيك؟

ـ ليس لأبي دخل بالأمر، هذا بيني وبينك، أليس كذلك؟

ـ كما تريدين..

ـ كما نريد نحن..

كان يجب أن أعانقها، أو أقبلها، ولكن ساحة المقبرة الخالية ظلت تحدق فينا بعيون مليئة بالصدأ، كنا من عالمين مختلفين، يجهل أحدنا التفاصيل الحقيقية عن الآخر، لا تجمعنا إلا معرفة سطحية نظن أنها حميمة، قلت في صوت هامس:

ـ أنت لم تري أبي وأمي بعد، لم تسأليني عنهما أبدا..؟

ـ انتظرتك حتى تتكلم عنهما، حتى تعرض عليّ أن أذهب معك لزيارتهما، ولكن لم تفعل حتى الآن، هل حان الوقت؟

ثار الغبار على الطريق الضيق، وابتعدت قطعة الأرض الجرداء، بلا ذكرى، ارتفعت السيارة وانخفضت، وانجلى الغبار وبقيت حبات من اللقاح معلقة في الجو، ستظل هكذا حتى تجف وتفقد خصوبتها، أصبحت أشجار السنديان بعيدة وعلى وشك الذبول، أغلقت زجاج النافذة وأحسست أنني أختنق من وطأة الصمت، صعدنا إلى طريق الأسفلت المؤدي إلى المدينة، سلوى تتطلع دائما إلى الأمام، لم تحاول أن تراني، ولم أجرؤ على النظر إليها، كنا نقترب معا من لحظة ما، لعلها البداية أو النهاية، الشاحنات الضخمة تهدر قادمة في الاتجاه المضاد، واضطرت سلوى إلى تخفيض سرعتها عندما تركنا الشوارع الواسعة، بدأت أتحدث بصوت خافت، أصدرت إشارات صوتية موجزة أحدد بها الاتجاه، ازداد صوت السيارة ارتفاعا والشوارع تضيق عليها والجدران تقترب منها، ثم توقفنا أمام منزلنا، ارتعدت من فرط الانفعال بينما هبطت هي في هدوء بالغ، في الركن كان بضعة من الأطفال



المتسخين ينظرون نحونا ويزيحون الذباب من على وجوههم في تكاسل، طلبت منها أن تتأكد من إغلاق السيارة جيدا، كان يجب أن يحدث هذا منذ البداية، حتى يتم كل شيء دون ذرة زائفة من الأكاذيب، صعدنا السلم معا، لم تكن هناك قطط صغيرة، وكانت هناك بقايا رائحة عطنة، وضعت قدماها في حذر على الدرج المتآكل، وفتحت عينيها لأقصى ما تستطيع كما تتحرك وسط العتمة، لم أستطع أن أرى وجهها بوضوح ولا أدري إن كانت قد تخلت عن ابتسامتها أم لا.

كنت أعرف أن أمي وحدها داخل الشقة، موعد عودة أبي لم يحن بعد.

أضأت كل الأنوار، ربما تخف العتمة، ويظهر كل شيء بوضوح، قلت: تفضلي، فتفضلت وجلست على أحد المقاعد وهي تحتضن حقيبتها وتتطلع إليّ بعين متسائلة، تنتظر عرضا خاصا يقام من أجلها، ذهبت إلى الغرفة التي ترقد فيها أمي مستنزفة من ماء الحياة، أمسكت يدها وربت عليه وقلت:

ـ معي ضيفة تريد أن تراك..

أضيء وجهها بشعاع غريب، اتسعت ابتسامتها واكتسى جلدها بحمرة خفيفة، وقالت:

ـ فاطمة؟

هززت رأسي بالنفي فانطفأ كل شيء، قلت:

ـ زميلتي، طبيبة مثلي، اسمها سلوى وتريد أن تطمئن عليك.

ـ كان يجب أن تقول لي قبلها يا علي، يجب أن ننظف البيت أولا.

كان الخجل الطاغي يعلو وجهها، ربت على يدها مرة أخرى:

ـ لا تهتمي بذلك، لا تهتمي بشيء..

دخلت سلوى بخطوات حذرة، وقفت أمام الفراش ونظرت إلى الجسد المسجى، قالت لها في صوت خافت:

ـ سلامتك.

ابتسمت لها أمي بكل ما في جسدها من طاقة، قدمت مقعدا لسلوى حتى تجلس عليه، فضلت أن تجلس على حافة الفراش، ثم ساد الصمت ولم يجرؤ واحد منا نحن الثلاثة على الحركة أو الكلام، أدركت هي منذ النظرة الأولى التي ألقتها على أمي أنه قد فات الأوان، ولم تعد تجدي كلمات المجاملة العادية، كانت سلوى تبدو نظيفة جدا، ناصعة، وكانت كل حركة واهنة تقوم بها تبعث بالقلق والتوتر في داخلي، سمعنا صوت الباب وهو يفتح، عاد أبي وسمعنا صوت خطواته الثقيلة، ظهر عند باب الغرفة لابسا «العفريتة» ويداه ملوثتان بالشحم، تطلع إلينا في تساؤل وتأملته سلوى دون أن تفقد ابتسامتها، قالت أمي:

ـ سلم على ضيفتنا..

تراجع مسرعا وهو يقول: سأغسل يدي أولا..



وسمعته يغسل يديه أكثر من مرة، وعندما صافحها أخيرا خيل لي أنه ترك على كفها أثرا ما، قلنا كلاما كثيرا، بلا معنى في أغلب الأحيان، ونظر أبي إليّ مستفهما فلم أسعفه بإجابة شافية، نظرت إلى وجه سلوى فلم أعرف فيم تفكر بالضبط، صنعنا لها شايا فأخذت منه رشفة صغيرة، فتحنا كل النوافذ وأغلقناها، تبادلنا كلمات حول الجو وندرة الأشياء، ألقت نظرة خجلي على غرفتي، أمسكت بعبوة القنبلة الفارغ وأخرجت منها الزهرة المتربة، علقت بعض ذرات التراب بأطراف أصابعها وأخرجت من حقيبتها منديلا مسحت به طرف أنفها، وضحكت ضحكة قصيرة، وقال أبي عدة كلمات عن عمله في المصنع، عاد يحدق في وجهها لعله يكتشف من تكون، ولم يعد هناك ما يقال، ولكن سلوى ظلت جالسة دون أن تبدي أي نوع من التململ، نهضت أنا وأعلنت أن وقت الانصراف قد حان، هبطنا السلم معا وحرصت على ألا ألمسها، كان الأطفال المتسخون يلعبون فوق مقدمة السيارة، قادتها وحدها، لم تكن في حاجة إليّ كي أرشدها لتخرج إلى شوارع المدينة الواسعة، رأيت النهر الغائض وهو يتألق بالأضواء المرتعدة، وسمعت صوت سلوى قادما من بعيد:

ـ لماذا أنت صامت هكذا؟

قلت دون أن ألتفت إليها: لقد رأيت كل شيء

ـ أجل، وماذا في ذلك، هل كنت تظن أن رأيي سوف يتغير؟

وانطلقت بالسيارة.



كان عليّ إذن أن أبدأ خطوتي الأولى، كنت أرتعد، هل الليلة باردة، أم أن خلايا جسدي أصبحت عاجزة عن التماسك؟ الحديقة، ممر الأحجار الأبيض والعشب الذي ينمو بينها أسود اللون رغم الأضواء، الأشجار كلها مزدانة بالأضواء الملونة، لابد أن العصافير قد رحلت بعيدا، حلّتي جديدة، وقميصي جديد، ورباط عنقي يميل إلى الحمرة، وفي جيبي علبة من القطيفة الحمراء، لا يوجد فيها إلا زوج من «الدّبل» وخاتم بالغ الصغر، ومع ذلك فقد استهلكت كل ما ادخرته وما استطعت أن أقترضه، هل أجرؤ أن أفتحها أمام كل هذه العيون المتطلعة؟! وقفت وحيدا ورعدة الخجل تتصاعد في جسدي، بدأت معي منذ أن وقفت أمام المرآة في غرفتي وأخذت أعقد رباط عنقي، كان البيت صامتا فسرت ببطء إلى غرفة أمي، وجدتها مستيقظة وأبي جالس على الأرض أمامها وكلاهما صامت، ابتسمت وهي تتأملني قائلة:

ـ كم تبدو جميلا يا علي!

وتطلع إليّ أبي بعينين جامدتين ليس فيهما أي تساؤل، تأملت الجلباب الأبيض الذي تعود أن يرتديه في المنزل، وآثار الشحم الذي تداخلت في أظافره وشقوق يده، أصبح من المستحيل إزالتها، وأنا أقف أمامهما بحلتي النظيفة وعلبة القطيفة رابضة في جيبي عاجزا عن شرح أي شيء، لم يسألاني عن سلوى أو عن سبب زيارتها، ولم أحاول أن أقدم لهما أي شرح، ولم تقدم لهما سلوى أي دعوة أيضا، كانت تريدني بمفردي منزوعا من الماضي،



بلا جذور، وعليّ أن أخضع لشروط الصفقة متظاهرا بعدم الفهم، كنت أود أن أعترف لهما، أنني ذاهب الليلة لإعلان خطوبتي ولكنني عاجز عن دعوتكما، هل كانا يستحقان مني ذلك؟ فوجئت بأبي وهو يقول لي بصوت هادئ:

ـ سوف تتأخر يا علي؟..

فانسحبت على عجل والخجل يطاردني، هل استنتج شيئا؟ هبطت السلم، بحثت سريعا عن سيارة أجرة وهبطت أمام الفيللا وقد استيقظ داخلي الشخص الآخر الذي يتصرف بدلا مني دون خجل، خطوة واحدة ووجدتني بينهم جميعا، وسط ملابسهم الفاخرة، وجلودهم المشدودة وحركاتهم الناعمة وضحكاتهم الجافة المبتورة، عطر النساء، الفراء الذي يغطي أكتافهن العارية قطع المجوهرات التي تعكس الأضواء الملونة في نقاء وزهو، كيف يمكن أن أعلن ارتباطي بهؤلاء الناس، وأخرج خاتمي الصغير ودبلتي الهزيلتين أمامهم جميعا، كانوا يحاصرونني دون أن يراني أحد منهم، يدورون حولي في خطوات منتظمة، يسيرون وفق أنغام موسيقية لا أسمعها، كنت فقط أسمع غمغمات أحاديثهم الناعمة، وضحكاتهم الخفية، كيف يمكن أن أفلت من هذا الحصار، أعود إلى العالم الذي أنتمي إليه؟ سمعت صوت سلوى وهي تهتف بي:

ـ لماذا تأخرت؟..

أعطتني خدها، شممت رائحة المساحيق على بشرتها، قبلتها أمام الجميع ولكن أحدا منهم لم يرني،استمروا في حديثهم

الخافت وسيرهم المتمهل، أخذتني من يدي، كانت ترتدي ثوبا ناصع البياض، يكشف عن كتفيها وعنقها الطويل، بجعة مسحورة تركت البحيرة للتو، تقدمت بي إلى الداخل، كان «الكوتش» واقفا أمامي وهو يبتسم، الوجه الوحيد الذي تعرفت عليه في هذا الزحام الفاخر، لم يصافحني، أشار لي فقط من بعيد بالكأس التي يمسكها في يده، ابتسمت سلوى له وأومأت برأسها، ترى لماذا اختارت أن تدعوه فقط من بين الجميع؟ أناس كثيرون يصافحونني، سلوى تقدمني لهم نتبادل الأسماء بلا تعارف، اتسعت الحديقة وتداخل حشد من الناس بيني وبينها، أخذوا يتحدثون في صخب فابتعدت سلوى وابتعدت، في أحد أركان الحديقة مجموعة من الكلاب الضخمة، جلودها سوداء مرقطة كانت تلهث بشدة وألسنتها مدلاة إلى أسفل أجسادها مشدودة، مليئة بالعضلات المتحفزة، ماذا يحدث لو أنني فككت قيودها وتركتها تنطلق بين المدعوين؟..

وجدت سلوى تبحث عني بعينيها، اقتربت وسرنا معًا مرة أخرى، لم أستطع أن أمنع توتري رغم اهتمامها الخاص بي، كانت تقودني إلى عالمها الذي لا أعرفه، قلت:

ـ متى؟!..

ـ ليس الآن، يجب أن نطفئ الشموع أولا، على أي حال يسعدني أنك متعجل.

لم تسألني عن أمي وأبي، كأن من الطبيعي جدا ألا يكون لهما وجود في هذا المكان، أحاطت بنا باقة من الفتيات، جميلات



وناضرات يتقافزن من فرط الهرمونات التي تفور بداخلهن، صافحنني، وهمسن في أذن سلوى بعدة كلمات، انصرفت معهن بعد أن ضغطت على يدي، لم أكن أعرف أحدا فلجأت إلى «الكوتش» الذي حضر مبكرا، وشرب كثيرا، بدا أن خمور الدنيا كلها لا تقدر عليه، أشار إلى كل المدعوين وهو يقول:

ـ انظر حولك، هؤلاء أعظم وأنظف اللصوص في البلد، الورثة الحقيقيون للحرب، لكل الحروب..

عدت أتأملهم من جديد، مدى الرقة والنعومة التي يتحركون بها ويعقدون الصفقات الجانبية، يسيرون بتمهل بين أحواض الزهور، كأس في يد، سيجار ضخم بين أصابع اليد الأخرى، والنسوة يلوحن ويضحكن ويضعن أصابعهن على أطراف الحلي، فتتألق كل قطع المجوهرات على أجسادهن، قلت:

ـ سلوى ليست منهم..

أحاول أن أجد مبررا، أشار إلى جمع من الفتيات والأولاد الأصغر سنا، كانوا يتحدثون بطريقة حميمة، باقة من الزهر الحي الملون، قال:

ـ وهؤلاء ليسوا منهم أيضا، إنهم جيل نظيف، ونقي تماما، عيبه الوحيد أنه تربى بنقود مسروقة.

استدار إليّ وحدق في وجهي فأخذت عيني بعيدا عنه، قال:

ـ ماذا بك، يا أحمق يا عبيط، مازلت مترددا..؟



ـ أجل..

ـ لو أتيحت لي الفرصة كي أدخل هذا العالم لدخلته دون تردد..

ـ كف عن الكلام بهذه الطريقة إذن..

ارتفع صوتي عن الحد المسموح به، استدارت بعض الوجوه مستطلعة، ابتسمت فابتسموا وعادت الحفلة إلى إيقاعها الخفي، ابتلعت احتقاني، أقبلت سلوى مثل فراشة، ابتسمت وابتعدت، ظل «الكوتش» يواصل الشرب والحديث كنت قد كففت عن الإنصات إليه، جاءت امرأة، وقفت أمامنا فتوقف «الكوتش» عن الحديث فجأة، لم تكن تنظر نحونا ولكنها أرغمتنا على النظر إليها، جسدها يعلن عن وجوده المحسوس، كل انحناءة أو بروز فيه محفور بدقة متناهية، مليء بالعبق، شعرها أشعث، غجري، تتداخل فيه كل الألوان، عطرها يصل إلينا مختلطا برائحة جسدها المتوفز، التفتت إلينا فرأيت عينيها الواسعتين، ورموشها الطويلة المقوسة لأعلى، ثم تغير التعبير الذي كان على وجهها فجأة، في البداية نظرت إلينا مستطلعة، ثم تقلصت ملامحها، سلطت نظراتها على «الكوتش» الذي احمرَّ وجهه هو أيضا، هل كان ذلك بتأثير الخمر؟ أو بتأثير نظرات السيدة؟ سارت ببطء من أمامنا دون أن تلتفت مرة أخرى، انضمت إلى حلقة من الرجال والنساء الذين تبدو عليهم الأهمية وسرعان ما أصبحت محور الحلقة، التفت «الكوتش» تخلص من تأثير نظراتها وبدأ يضحك لنفسه في صوت خافت، قلت في دهشة:

ـ ماذا يحدث، هل تعرفها، هل تعرفك؟..



تمالك نفسه، وقال في جدية: طبعا، إنها زبونة مستديمة..

ـ أي زبائن، هل تأتي أمثال هذه المرأة إلى المستشفى المجاني؟!

ـ لم أكن أقصد المستشفى، إنها مسألة خاصة جدا..

بدأ يبحث عن كأس أخرى ممتلئة، ولم يستطع أن يقاوم رغبة البوح بأي شيء، أخذني بعيدا عنهم، وقفنا بالقرب من الكلاب التي كانت تنبح في صوت خافت مهدد، قال:

ـ أنا أقوم بعمل آخر، طبيب بخبرتي لا يمكن أن يكتفي بعمل المستشفى التافه..

ـ هل لك عيادة خاصة؟..

ـ شيء مثل هذا..

ـ لا يوجد شيء مثل هذا، إما أن لك عيادة خفية، أم لا..

ـ أنت ساذج، وسوف تبقى ساذجا بقية عمرك، إنني أعمل طبيبا خاصا لبعض البيوت والملاهي الليلية، هل فهمت؟

ظللت أحدق فيه غير قادر على استيعاب أي شيء، قلت:

ـ على من تكشف بالضبط؟

ـ البنات، البنات اللاتي يتعاملن مع الزبائن، إنهن دائما في حاجة إلى طبيب، طبيب مثلي يفهم طبيعة عملهن.

كنت مندهشا، أحاول أن أفهم دون جدوى، كنت أعرف بوجود هذا العالم، ومن الطبيعي أن توجد هذه المهنة، قال «الكوتش» مؤكدا:

ـ هاته البنات يخشين دائما من الأمراض الجنسية، لا أحد يضمن زبائن هذه الأيام.

ـ وهذه السيدة؟!..

ـ إنها منهن، تذهب للعمل بانتظام، وتتقاضى أجرا، وتتعرض للكشف الدوري.

التفت أحدق فيها، كان ظهرها لنا، الفستان الأنيق، والحركات الأرستقراطية، هل يكون «الكوتش» صادقا؟ نسيتنا السيدة تماما، انهمكت في الحديث والضحك، والجميع ينصتون إليها في اهتمام هل هي إحدى أفكار «الكوتش» السوداء؟

تقدم والد سلوى وهو يمد أصابعه الطويلة النحيفة، لم يصافحني بقدر ما جذبني خلفه دون أن يبالي باستئذان «الكوتش»، قال في صوت ساخر:

ـ لا يمكن أن تقضي اليوم كله تتحدث مع صاحبك، هذه ليلة غير عادية، يجب أن أعرفك ببقية المدعوين..

قادني إليهم، دخلت في نفس الدائرة التي تقف فيها السيدة، كانوا كثيرين، أسماؤهم ليست غريبة، ووجوههم تحتل أعمدة الصحف أحيانا، قال أحدهم وهو يهز يدي دون أن ينظر إليّ:

ـ هذا هو سر ميولك الطيبة الأخيرة يا عبدالسلام بك ورغبتك في بناء المستشفى.

ضحك والد سلوى في افتعال وهو يقول:



ـ لا تنس أن سلوى طبيبة أيضا..

نظر الرجل إليّ كأنه يحاول أن يراني: الآن اكتملت عندك عناصر الإدارة..

وضحك الجميع للنكتة وأحسست بعرق بارد يغمرني أدركت أن هذا الرجل يفرض سطوته على الجميع، ظلت أصابعه قابضة عليّ، جذبني قليلا، وأشار إلى السيدة وهو يقول في إيجاز: زوجتي.

صافحتني ببرود دون أن تأبه هي أيضا بالنظر إلى وجهي، وظل والد سلوى واقفا فوقفت بجانبه، عادوا مرة أخرى لأحاديثهم الخاصة، قال أحدهم:

ـ المهم أن نبدأ الآن في تقسيم شاطئ القناة..

انتصب الرجل، وجذب من سيجاره نفسا عميقا، قال:

ـ أخذنا مساحة معقولة على شاطئ «المنارة» سوف نبدأ على الفور في إقامة سلسلة من القصور والفيللات، هيا، الحقوا وقتكم..

هتف الرجل مذعورا: والجيش؟..

ـ العسكر رحلوا منذ زمن، لم تعد هناك أهمية لوجودهم،والصيادون لا يجرءون على الاقتراب منه، الشاطئ خال الآن وفي انتظارنا.

قالت سيدة في صوت ناعم:منطقة ساحرة، البحيرات، والهدوء، والمياه الصافية الزرقة..

تباعدت الكلمات، ذابت وسط الصدى المخيف والأتوبيس يزحف بنا، وفد من الأطباء الصغار يخوضون وسط الخضرة المحترقة، حدائق المانجو التي تعمدت بالبارود وتشربت بدماء الجنود، خيم صمت شامل إلا من صوت استغاثة العصافير، اتسعت الحديقة وشملت كل الحدائق التي احترقت ودهست وامتلأت قنواتها بالجثث، كنا نسير على حافة القناة أحيانا، على حافة الترعة الحلوة أحيانا أخرى، وهتف السائق، هذه الحرب لم تبق شيئا سليما، توقفنا أكثر من مرة لتزيل الأحجار، ولندور حول بقايا الدشم والمواقع المدمرة، بصمات الحرب غائرة، في الأغصان التامة الاحتراق، والحفر العمودية، وجثث الحيوانات المتناثرة على شاطئ الترعة، في اختلاط الدم والبارود والطين، وفي امتداد شاطئ البحيرات الكابوسي، المكان الذي حدثت فيه الثغرة وتحولت إلى جرح دام لا يتوقف عن النزيف، توقف الأتوبيس عن التقدم وتطلعنا من النوافذ ثم هبطنا غير مصدقين، دبابة مصرية وأخرى إسرائيلية، تقاربتا وتلاصقتا ثم دوى مدفعاهما، وانصهرتا معا، ثمن التراب كان غاليا، تحولت «جناين المانجو» على حافة الإسماعيلية إلى مصيدة للموت، ظللنا نجوس وسط الأشجار، أشباح تبحث عن بقايا حياة ما، خوذات صدئة، بقايا أحذية وصواني طعام، حواجز منهارة، ثم حرائق ممتدة، آثار العشب الأسود، وبقايا جذوع الشجر، بصمة سوداء هائلة بعرض السماء، صاح السائق، يجب أن نعود قبل حلول الظلام، هناك بقايا ألغام في الطريق، ولكننا لم نتحرك، هناك



من يقترب منا، فلاح يقود طفلا، خرجا من أحد أكواخ البوص على الشاطئ الممتد، عبر الطريق، وتأملا الشارة الموجودة فوق الأتوبيس، صاح الفلاح فينا، ألستم أطباء عالجوه إذن، كان الطفل يرتدي أسمالا مهلهلة لم تخف الحروق المنتشرة فوق كل جسده، حروق أكلت كل طبقة من الجلد الأولى وتركت خلفها قروحا مستعصية الالتئام، قال الرجل، إنه «نابالم» يا بهوات، كان بعيدا عن موقع الانفجار ولكن صهد النابالم مس جسده، لم نجرؤ على لمسه، كل شيء كان فيه يتألم، ولم تكن هناك جدوى للتوسل، كان هو أيضا إحدى بصمات الحرب الغائرة.

كان الرجل المهم لا يزال ينفث دخان السيجار ويتكلم..

ـ لقد أخذنا موقعا مثاليا على الأرض، خلفنا النخيل يحجبنا عن العيون وأمامنا تمتد مياه البحيرات، يمكننا أيضا أن نقيم حمامات للسباحة بحيث لا يرانا أحد..

بعثت ثقته بالحماس في نفوسهم، حتى أبو سلوى نسيني تماما وأخذ ينصت مسرورا لوصف هذا الفردوس الأرض، كنت أتساءل: وماذا لو حفروا الأساسات فاكتشفوا بقايا المواقع وعظام الجنود العارية، هتف أحدهما معترضا:

ـ وماذا لو عاد الإسرائيليون؟

قال الرجل ضاحكا وهو يرتكن قليلا إلى كتف زوجته ويلمسها في حنان:

ـ لن يجرءوا على قصفها لأنهم سيحلمون بامتلاكها، إنهم في العادة لا يقصفون غير بيوت الفلاحين، الإسرائيليون لا يكرهون شيئا أكثر من الفلاحين لأنه لا يمكن اقتلاعهم..

قال الرجل الآخر في ثقة شديدة بالنفس:سوف نقتلعهم نحن..

واصلوا الحديث، والتقسيم، والتأكيدات، كأن الإسرائيليين قد جاءوا أيضا وأعطوهم الضمانات الكافية، التفت الرجل فجأة إلى والد سلوى، وضع يده على كتفه وهو يقول آمرا:

ـ ما رأيك يا عبد السلام بك أن تقيم مستشفاك على شاطئ القناة، سوف تكن منتجعا سياحيا رائعا..

قهقه عبد السلام، واختلطت أصوات ضحكاته بصفير النابالم الخافت، كأن الذين ماتوا قد حرروا هذه الأرض من أجل شهواتهم، من أجل قصورهم ومنتجعاتهم، ميراث الحرب يذهب بددا..

أقبلت سلوى ووقفت بجانبنا، حدجتها المرأة من أسفل إلى أعلى في نظرة واحدة، أخذت سلوى تضحك من كل شيء، كانت مختلفة، من المؤكد أنها مختلفة عنهم، لا يمكن أن تحب شاعرا فقيرا، وتصبح فتاة عادية مثلهم أبدا، حتى منطق الاختيار كان مختلفا، كيف أصرت على زرعي وسط تربة هؤلاء الناس البالغي الغرابة، التفت أبوها وهو يقول:

ـ ليس الآن يا سلوى، أنا أريده قليلا..



وجذبني بعيدا، همس لي وهو يشير للرجل:

ـ صبحي بك، رجل مهم جدا، حاول أن تتحدث إليه بمفردك وأن تحوز إعجابه..

أشياء كثيرة لم أفهمها منذ أن دخلت بقدمي إلى هذا المكان، أي فخ هذا؟ ظل يجذب يدي، تركنا الجميع وسرنا معا إلى الداخل، الخدم يتحركون في حمى شديدة، لم أكن أعرف أنهم بهذه الكثرة، يحملون كميات هائلة من الأطعمة ومن زجاجات الشراب، لم يكن هذا عيد ميلاد عاديا بكل تأكيد، الرجل يسير في المقدمة وأنا خلفه بقليل، ونظر إليّ الخادم النحيف ببرود مبالغ فيه، سرنا عبر الصالة، إلى غرفة المكتب، المكان الذي شهد المواجهة الأولى، أغلق الباب بعناية، ثم التفت إليّ، كان جلده مشدودا على عظامه أكثر مما ينبغي، والحلة السمراء التي يرتديها تعطي بشرته لون الشمس الذائب، وأدركت هذه اللحظة وهو يقف أمامي أنني لن أحبه، وهو أيضا لن يحبني أبدا، ولن يغفر لي أيضا أني أخذت سلوى منه، قال في لهجة جافة ولكنها ليست عدائية:

ـ هل أحضرت الشبكة؟

ـ طبعا..

ـ هل أستطيع أن أراها..

كان غريبا أنه تذكرها، حتى سلوى لم تسألني عنها، كنت أحس أنني لو تراجعت فسوف يتقدم شخص بدلا مني ويقوم بإتمام

الطقوس دون فرق، مددت أصابعي وتحسست طبقة القطيفة بأصابعي، أخرجت العلبة وقدمتها له، فتحها، بدا وجهه شمعيا أكثر من ذي قبل، لم أر عليه أي نوع من التعبير، لم تختلج عضلة واحدة، ربما لأنه لايوجد، ظل صامتا لبرهة ثم قال ببرود:

ـ جميلة بلا شك.

لصوته طنين زائف، لم تطاوعني نفسي على أن أشكره، أمسك بالخاتم الصغير وقربه من عينه كأنه لا يراه، ثم هتف:

ـ وهذا أيضا جميل..

أمسكت أنفاسي منتظرا انتهاء كل المقدمات، ولكني كان يجب أن أتكلم، ووجدت نفسي دون أن أعي أدافع عن نفسي، وأصابني هذا بالغضب، قلت:

ـ أعلم أنه صغير، ولكن قيمته المعنوية أكبر بكثير كما أعتقد..

همهم وهو يهز رأسه: مفهوم، مفهوم..

ثم رفعها ببطء، وحدق فيّ قائلا:

ـ أنا لا أهتم، ولا أعتقد أن سلوى تهتم أيضا، ولكن هؤلاء الناس الذين يملئون الحديقة يتوقعون شيئا مختلفا..

ـ أي شيء؟..

ـ شيئا يتحدثون عنه لعدة أيام قادمة..

بدأت أرتعد رغما عني، قال:



ـ لقد أحضرنا شبكة مناسبة، أعني أنا وسلوى، أعني أن سلوى هي التي اختارتها، جاء جواهرجي العائلة بالمصادفة وكان عليها أن تختار شيئا ما..

كان يجب أن أصرخ في وجهه، أو أستدير وأنسحب، كان يجب عليّ أن أفعل أشياء كثيرة، ولكني ظللت واقفا مشلولا تماما، تحرك هو واستدار وراء المكتب وفتح الدرج، وأخرج علبة من القطيفة كانت مدخراتي تكفي بالكاد لشرائها خالية، قلت:

ـ إنها كبيرة جدا بالنسبة لجيبي

فتح العلبة تحت أنفي فتألقت بكل ألوان الطيف، رأيت وهج الشمس وألق النجوم في لحظة واحدة، قطع من زجاج غريبة، متعددة الأوجه، تضمها تعرجات من الذهب الأبيض، فصوص الماس والزبرجد، ناعمة وجميلة وباترة، قال في رقة:

ـ ما رأيك؟

أخرجت صوتي المختنق وقلت: وهل لي رأى؟..

أغلق العلبة فاختفت كل الأضواء والوهج، عادت الغرفة إلى حالتها الطبيعية، قال:

ـ لا تكن حساسا، المسألة أنني يجب أن أحافظ على مظهري أمام هؤلاء الناس، ألسنتهم لا ترحم أحدا..

ومد يده بالعلبة وهي مغلقة ووضعها تحت أنفي مرة أخرى حتى شممت رائحة الغراء الذي يلصق القطيفة وقال لي بنعومة: خذ..



هتفت: كلا..

وبدأت أستعيد ذات نفسي التي كانت على وشك التهاوي، قال:

ـ لا يوجد وقت للجدل، وهذا رأي سلوى أيضا.

ـ كلا، لا أستطيع..

حدق فيّ مستغربا، كأنه لم يكن يتوقع أي مقاومة من جانبي، أو لعله خشي أن تتدهور الأمور إلى درجة لا يمكن تداركها، أعاد العلبة إلى درج المكتب، وقال مهددا:

ـ من الأفضل أن تتحدث أنت وسلوى معا..

ـ بالتأكيد..

كنت عاقلا أكثر مما ينبغي، في حاجة للمسة من التهور، توقظ كل مكامن الجنون في داخلي، استدرت، فتحت الباب، سرت وسط الخدم المنشغلين، ازداد الصخب في الحديقة، وأخذت الكلاب تنبح دون أن ينتبه إليها أحد، بحثت عن سلوى فلم أجدها، رأيت السيدة زوجة الرجل المهم وهي تتحدث مع «الكوتش» في اهتمام، كان زوجها قد سار بعيدا مع بقية المجموعة، جلس بجوار أحد الأحواض المليئة بالرمل وأخذ يخط لهم فوق سطحها بالعصا، لعله كان يشرح لهم خطته للاستيلاء على ضفة القناة بأكملها، فوجئت بسلوى أمامي بابتسامتها الآسرة التي لا تحمل هما ولا تتقبل لوما، قالت:

ـ أنت تبحث عني بالتأكيد..؟



أخذتها من يدها، سرنا لأقصى الحديقة، بجانب الكلاب المتحفزة قلت لها:

- لا أريد مجوهراتك، شبكتي فقط هي التي سأقدمها..

قالت مبتسمة: ولا يهمك، سأقبل أي شيء حتى ولو كان خاتما من القصدير..

هدأ غضبي فجأة، استطاعت أن تنتزع من داخلي كل الفتائل المشتعلة، وقفت حائرا صامتا، وربتت سلوى بيدها على رءوس الكلاب حتى استرخت جميعها ثم جذبتني من يدي:

- تعال، سأعرفك على ضيوف جدد..

دخلت في دورة أخرى من المصافحات والابتسام والأسماء المتشابهة، كانوا أصغر سنا، يعلقون ابتسامات باردة على وجوههم، ورثوها عن آبائهم بالتأكيد، سار «الكوتش» على مهل، توقفت المرأة أمام أحد الخدم كان يحمل أكواب الشراب، خلطت ثلاثة أكواب معا ثم شربتها كلها في جرعة واحدة، ظل زوجها يواصل الشرح وقد عفر الرمل كل حلته السوداء، جاء الأب جامد النظرات، صلب الوجه، لا يوحي وجهه بأي فرح، دوت صرخة خافتة من بين الأشجار، ولم يلتفت أحد إلى مصدرها، توقف الرجل عن الرسم على الرمل وقد حسب أن الحرب قد أعلنت من جديد، انطفأت أنوار الحديقة فأخذت الكلاب تنبح في جنون، ثم فتح باب «الفيللا» وظهر صف من الخادمات يتقدمهن الخادم النحيف، يحملن «تورتة» ضخمة فوق محفة، الشموع الموقدة، المغروسة



فيها، هي الوحيدة التي تتألق وسط الظلام، شموس صغيرة مرتعدة فوق الرءوس، اتجهن بها إلى المنضدة الرئيسية في وسط الحديقة، تقدم أحد المدعوين في سرعة حتى حسبنا أنه سوف يدخل برأسه في «التورتة» ولكنه سقط مترنحا على الأرض قبل ذلك، وقف الجميع، كونوا حلقة واسعة، جاء الأب ووقف بجانب سلوى، حاولت التراجع قليلا ولكن سلوى أمسكت بأصابعي، بدأنا جميعا نغني لها،«سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا سلوى»، نفخنا في الشموع بأقصى قوتنا، انطفأت الشموع لثوان قليلة ثم عاودت الاشتعال من جديد من تلقاء نفسها، صفقوا جميعا، وهتف الأب في انتصار إنها شموع ذاتية الاشتعال، مستوردة خصيصا من إيطاليا،غنينا ونفخنا في الشموع بقوة أكثر فانطفأت وعاودت الاشتعال، رمقني الأب بنظرة نافذة وسريعة، كان يتساءل إلى أي مدى أستطيع المقاومة؟ وقبل أن نصفق مرة أخرى، صاحت سلوى:

ـ هيا، لنرقص جميعا..

وارتفعت الموسيقى من بين الأشجار، أمسكت بي ووضعت يدها على كتفي وعندما ارتبكت قالت:

ـ سوف أعلمك..

أحضر الخدم السكاكين وبدءوا يغوصون بها في طبقات «التورتة» ويزيحون الشمع الذي كان مايزال مشتعلا، لم تكن سلوى ترقص معي بقدر ما كانت تجذبني بعيدا خارج دائرة الجميع، وأنا أتحرك معها طائعا، وبدأت المرأة الوحشية ترقص وحدها، أجزاء جسدها



تهتز في إثارة، و«الكوتش» يصفق لها في حماس بالغ، وعاد زوجها يخط على الرمل بالعصا ويعفر ثيابه وثياب كل من حوله، وأصبحنا وحدنا تقريبا، وكان جسد سلوى دافئا بين ذراعي، قالت فجأة:

- أبي غاضب، وعصبي للغاية، فلتقبل مؤقتا..

كانت تستدرجني حتى المدى الأخير، قلت في صوت محتقن:

- كلا، سوف أقدم شبكتي فقط..

- لا تكن عنيدا يا حبيبي، سأرتديها في الحفل فقط، وبعد ذلك سأخلعها ولن أرتدي إلا شبكتك.

توقفنا عن التظاهر بالرقص، صعدت المرأة فوق المنضدة وقد ربطت حزامًا حول وسطها، وانزلقت حمالتا الفستان من على كتفها العاري وبدا نهداها على وشك الخروج وانخرطت في الرقص بحماس، واصل «الكوتش» التصفيق وهو يناديها بأسماء غريبة، كانت يدا سلوى باردتين وجسدها باردا، قالت:

- لا تتوقف عن الرقص.. يجب ألا يلاحظ الجميع شيئا..

هتفت من بين أسناني: لماذا اخترتني؟..

- ماذا تعني؟..

- كان أمامك أن تختاري أي أحد غيري، من النادي، من الكلية، من عشرات الأماكن التي تذهبين إليها، شخصا لا تحتاجين أن تصنعي له كل شيء، أن تعيدي تشكيله من جديد، مواصفاتي ليست



مطابقة لما تريدين، لا يمكن أن تدفعي بظهري إلى الحائط وتطلبي مني الموافقة على كل شيء، ألا ترين الخطأ الذي وقعت فيه؟ لا تعرفين شيئا عن عالمي، ولم تبال بالتعرف عليه، كنت مجرد فأر للتجارب يكتب شعرا ويحلم بالتغيير، كيف يمكن تطويع الطبيب الفقير مثلي بكل ما فيه من طموحات متواضعة، كي يصبح مثلك، ويقف بين أناسك، شريكا ومتواطئا في صفقاتهم المشبوهة، ماذا تريدين؟ لماذا اخترتني أنا، كان أمامك الكثيرون كي تصنعي أنت وأبوك أي شيء تريدينه منهم؟..

هتفت من بين أسنانها: ربما لأنني كنت غبية..

ـ وربما لأنني لا أصلح لهذا النوع من التجارب..

ـ أنت تريد أن تسبب لنا فضيحة، الآن..

ـ لم أكن أريدها ولكني لا أستطيع القيام بالدور الذي رسمتموه لي.

ـ ربما لأنك أصغر منه..

ـ ابحثي عن واحد على مقاس الدور إذن، الحديقة مليئة بالشبان، والشكبة مازالت في درج أبيك..

أدرت لها ظهري، سمعتها تتمتم ببعض كلمات حانقة، كان الفخ ناعما نعومة العشب الذي أخطو عليه، زاهيا كالأضواء الملونة، عذبا عذوبة الموسيقى، وكان يجب أن أرفع قدمي قبل أن ينطبق عليها، كنت أنسحب من حياتها، ألتقط أنفاسي من هواء الشوارع، خليط من التراب ورائحة الشجر، ببطء بدأت أصواتهم تتباعد، تغيب،



والمدينة تستعيد أصواتها الطبيعية، كانت هناك أغنية لعبدالحليم حافظ ضلت طريقها وسط خليط من الأصوات فزادت من أسى القلب، جلست على حافة النهر، دخلت وسط العوارض الحديدية، الحارس العجوز نائم وسط القش محتضنا مفتاحه الضخم وقد ترك جذوات من النار مشتعلة وفوقها كوز صدئ، نظرت إلى الماء، تمنيت لو أن فاطمة برزت لي فجأة، ولكن الزمن كان قد استطال وأصبح من المستحيل أن يتحقق قانون المصادفة بعد أن استنفدناه..

بيتنا مظلم تماما، بلا شعاع واحد من الضوء، تعثرت على السلم، وأضأت المصباح فغمر الضوء الشقة الخالية، لم أشعر بوجودهما، كنت أريد أن أتحدث معهما، أعترف لهما بما فعلته وأخفيته، كان يجب أن أخلع هذه الثياب أولا، وأنتظر عودتهما، كنت مندهشا كيف استطاعا الحركة والخروج، أي الدروب سلكا؟ إلى أين توجها..؟ ثم خيل إليّ أني سمعت صوتا هامسا، أنفاسا واهنة تكاد تضيع وسط صمت الشقة الموحش، خرجت من غرفتي إلى غرفتها، كانت غارقة في الظلام، عندما أضأت المصباح كان أبي جالسا في موضعه المعتاد أمام سريرها، وهي مسجاة فوق السرير، كان هو وحده الذي كان يتنفس، ينتزع أنفاسه بصعوبة، يلتقطها من أعماق بعيدة الغور، لكنها لم تكن تتنفس، كانت هادئة الوجه، مغمضة العينين، ذابت كل ملامح الشقاء والألم، عادت طفلة صغيرة، تبددت من جسدها كل الذكريات وأيام الماضي، عادت إلى صفاء الراحة وسكينتها، سلام بارد حزين، بذلت أقصى ما في جسدها من ماء الحياة، كان جسد أبي يهتز وهو يحاول المقاومة، جلست

بجانبه، أصبحنا رجلين وحيدين، طفلين ضائعين، وكان هذا الجسد المسجى هو الذي يربطنا بالحياة، الرباط الوحيد المؤكد، ترى.. هل كان يحدث فرق إذا كنت أخبرتها بما حدث لي؟ هل أقول لها عن الدور الذي كنت أقوم به بينما تزفر روحها وحيدة، تعاني من البرودة والجحود، على وجهها طيف ابتسامة، أعطت ملامحها نوعا من الشفافية الآسرة، أصبح لون جلدها فاتحا وقد ذاب ما عليه من غضون، ارتخت فتحتا الأنف وضاق الفم، أصابعها مفرودة على حافة الغطاء، مستكينة تماما، لم تبد أي مقاومة عندما انتزعت منها الحياة، لم تجرؤ على أن تحلم حلما واحدا، كان الليل طويلا وصامتا، وظللنا جالسين، دون أن نتفوه بكلمة واحدة، الصمت هو سلوانا الوحيدة، انطفأ النور من تلقاء نفسه، ولكننا ظللنا نراها رغم الظلام، كنا نتذكرها معا، الدقائق والساعات والأيام، تجمعت الآن وتجمدت وسط برودة الصمت، تكاثف الليل الطويل على جلودنا، وتباعدت الطرق وبدت أضواء الفجر، يا أمي.. هذا يوم غريب من أيام العالم أنت لست فيه.

بدأت إجراءات الجنازة، تجمع الناس وانتشر الخبر سريعا، أحاط الجميع بنا، ولكننا كنا وحيدين، سرنا عبر الطرقات الضيقة، رأيتها وهي محمولة على أكتاف الرجال، أخذ الزمن من جسدها ما أخذ وترك طبقة رقيقة من الجلد فوق عظام نحيلة، كانوا يرددون في صوت متداخل (الله يا دايم، الله يا دايم، ولا دايم إلا الله)،أحسست أن الافتقاد مرير، وأن مشاركة الآخرين تزيد من حدة الأحزان، الطريق للمقابر ممتلئ بالتراب وعروق الملح، والمقابر الممتدة



لا تمتلئ ولا تشبع، الحفرة واسعة وجسدها الضئيل، انزلق في سهولة ويسر كأنما كان ينتظر هذه اللحظة، يا له من فراق يا أمي، بدءوا يهيلون التراب، وأحسست بأصابع أبي وهي ترتخي من على ذراعي، رأيته وهو يجثو أمام فتحة القبر التي أخذت تضيق شيئا فشيئا، كنت أحس بوجعه، وجع النقصان الذي لم يعد له تمام، قال له أحدهم:

ـ وحد الله، أنت مؤمن..

وظلت الفتحة تضيق، والظلام يحل عليك يا أمي، لم يكن أبي يبكي، كل ما فعله أنه مال بجسده، ووضع يده تحت رأسه ونام على الأرض التي دفنت تحتها، هدأت ملامحه المعذبة هو أيضا، أحسست فجأة أنها المرة الأولى التي ينام فيها بمثل هذا العمق منذ سنوات، قالوا لي:

ـ احمل أباك، هذا لا يجوز..

وقال آخر: هذا لا يليق، الرجال يجب أن يتمالكوا أنفسهم عند الحزن.

ولكن أبي كان مستغرقا في نومه الهادئ، يلتقط أنفاسه فتتحرك ذرات التراب على حافة القبر، وترتعش أعواد الصبار، ولابد أنه كان يحلم بها في هذه اللحظة بدءوا ينصرفون، جاء فقيه أعمى، وجلس على حافة القبر وأخذ يقرأ في سرعة، ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ ظللت جالسا أمامه، وعندما فرغ وانصرف ظللت جالسا، استمع إلى أنفاس أبي وهي تتردد في هدوء، ما أشد



مرارة هذا السلام الذي يبعثه الموت، لم أدر ماذا أفعل؟ نهضت، ولمست كتفه وهمست في أذنه:

ـ هيا يا أبي، لنذهب..

فتح عينيه ونظر إليّ باستغراب وقال: اتركني هنا، اذهب أنت، هنا راحتي.

ـ فلنقاوم أحزاننا يا أبي، عد معي إلى البيت..

ـ هنا بيتي يا علي، هنا بيتي.

وأعاد وضع ذراعه تحت رأسه واستغرق في النوم من جديد، هل أتركه؟ هل أجرؤ على حرمانه من لحظة السلام هذه؟ جاء «الدفان» فأعطيته كل ما في جيبي من نقود، وجدت علبة القطيفة مازالت في جيبي، قال:

ـ اذهب أنت، اتركه براحته، سأبقى هنا بجانبه وسوف أعاونه على العودة إلى البيت.

كنت بحاجة أنا أيضا لأن أبتعد، تضمني تلافيف الشوارع الضيقة، أغيب وسط الوجوه التي لا تعرفني حتى تذوب أحزاني الخاصة، أسير كأنما فقدت حياتي أنا أيضا، أقف أحيانا أمام الواجهات الزجاجية، وأتأمل إعلانات السينما، وكل الوجوه التي تعبرني في صمت، وهبط المساء وأنا أقف على حافة النهر والمدينة تعكس أضواءها الحية على صفحته، بدأت الأصوات تنسحب بعيدا، كفت



المدينة عن مضغ الأصوات وكفت السيارات عن اللهاث، وتوقف الضحك والبكاء.

لا أدري إلى متى ظللت واقفا، أحسست بيد توضع على كتفي، استدرت وجدت «الكوتش» يقف في مواجهتي، قال:

ـ كنت أعرف أنني سأراك في هذا المكان.

نظرت إليه في دهشة، كيف أصبحت تحركاتي مألوفة له لهذه الدرجة؟ قال:

ـ ذهبت إلى بيتك، سمعت الخبر المؤسف، البقية في حياتك.

كان رقيقا على غير العهد به، جلس أمامي وتطلع إليّ بعد برهة وهو يقول:

ـ هل حالتك تسمح بالكلام؟

ـ أي كلام..

ـ عن سلوى.

ـ أمازالت هناك سلوى؟..

ـ لقد أرسلتني إليك، إنها تمنحك فرصة أخيرة..

أدرت وجهي إلى النهر، كأن هناك فرصة أخرى للمساومة، قلت:

ـ بعد كل ما حدث بالأمس؟

لم أكن أرغب في الكلام، لم أرغب في أن أنفجر في البكاء الذي تأخر طويلا، قال ببرود:



ـ لم يحدث أي شيء..

ـ الفضيحة..

ـ لم يلحظ أحد أي شيء، لم يشعر أحد بانسحابك..ولم يلحظ أحد أن الخطبة لم تتم، لقد سكروا جميعا، اختلفوا حول كيفية تقسيم شاطئ القناة، شتموا الرجل المهم فأخذ يجري وراءهم بالعصا التي كان يخط بها على الرمال.

حدقت فيه مذهولا وهو يتحدث بطريقة اعتيادية تشبه وصفه لشروق الشمس، وأصل القول:

ـ أما زوجته، السيدة إياها، فقد خلعت فستان السهرة وأخذت ترقص بملابسها الداخلية وغاصت بأقدامها في «تورتة» عيد الميلاد الضخمة..

ـ وماذا فعلت سلوى؟

ـ انتابها الفزع فهربت إلى غرفتها، ولكن حماك العزيز قفز فوق المنضدة، أخذ يرقص معها ثم علق في رقبتها الشبكة التي كان قد أعدها لك.

فجأة انفجرت في الضحك، نظر إليّ مبهوتا بعض الشيء ثم انفجر هو أيضا في الضحك، لم نستطع التوقف وبدأ الصدى يردد صوت الضحكات، كانت الدموع ترقد في جانب عيني ولكني قاومتها بالمزيد من الضحكات، توقفت فجأة:



ـ من يصدق أنني أضحك في مثل هذا اليوم؟!

ـ الضحك هو أحسن وسيلة للمقاومة، هيا، لم ينته يومك بعد.

سرنا معا تحت السماء الباردة، كان يتحدث عن العديد من الأشياء، يحاول أن يبعدني عن دائرة الحزن التي أدور فيها، هتفت به:

ـ لن أعود، لست أهوى أسلوبك أو عقد الصفقات..

ـ أعرف، لقد عرضت عليها أن آخذ الشبكة وأحل محلك في هذه الخطبة، ولكنها رفضت..

لم أكن قادرا على الضحك أو البكاء، قلت: عليك أن تحاول مرة أخرى.

ـ سوف أفشل مرة أخرى، هكذا القاعدة دائما، تأتي الفرص لمن لا يريدها.

فكرت في نفسي فجأة، ترى هل مازال أبي نائما على قبر أمي؟ ماذا أفعل إذا عدت إلى البيت ووجدته خاليا منه أيضا؟ كنت في حاجة أكثر إلى مؤانسة «الكوتش»، في حاجة إلى سير طويل وسط كل دروب المدينة، توقف «الكوتش» نظر إليّ وهو يقول:

ـ هل أنت ذاهب إلى مكان؟

ـ كلا، كل ما في الأمر أنني خائف من العودة إلى المنزل..

نظر إليّ بغموض وهو يقول: هل تأتي معي؟..

قلت بلا مبالاة: فلنذهب إلى أي مكان؟



قال بنفس الدرجة من الغموض:

ـ أعرف أن العرض غير مناسب، في مثل هذا اليوم بالذات، ولكنني أعرف حالات كثيرة كان هذا الحل هو أفضل طريقة للتغلب على الحزن..

ـ ماذا تعني؟

ـ قلت لك عن ذلك من قبل!

ظللت صامتا، كأن هناك شيطان يترقبني في هدوء، أخرج سيجارة وأشعل الثقاب فرأيت عينيه المتوهجتين تتطلعان إليّ، تترقبان رد فعلي، كنت أقف على حافة الحزن والجنون، قلت ساخرا:

ـ تريدني أن أقابل زوجة الأمس؟

قال بلا مبالاة: من يدري، ربما كانت هناك..

كل شيء يبدو لا واقعيا إلى حد مخيف، الحزن والرغبة، أمي في القبر، وأبي نائم على ترابها، وأنا أطلب العزاء في أحد بيوت البغايا، هتفت فجأة:

ـ ولم لا..؟..

وبدأنا نعاود السير، هذا الشيطان يقودني كل مرة إلى فخ جديد، ومع ذلك فها أنا ذا أتبعه طائعا، كانت شوارع المدينة زلقة دون مطر، كل شيء يلمع والسيارات تمرق في صوت خافت، لم يكن عبد الحليم حافظ قادرا على الغناء وسط هذه الدرجة من الأسى، تشابكت الشوارع وتفتت إلى دروب، تحولت الدروب إلى خيوط



عنكبوت، هذه المدينة لن أعرفها أبدا، كل واحد يقودني إلى عالم غريب من عوالمها، وأنا الشاهد الأخير البالغ السذاجة الضئيل الحكمة، كل لمسات السعادة تتحول تحت يدي إلى حزن رهيف، من السهل الدخول ومن المستحيل التراجع، و«الكوتش» يسير في خطوات جادة كأنه متوجه إلى غرفة العمليات، أرضه وعالمه وفخاخه البالغة الإغراء، بدأت ألهث دون أن أشعر بالاطمئنان، لا أدري لم تضيق دروب هذه المدينة فجأة، لماذا تحاصرنا دائما بين جدرانها القديمة، ما سر هذه الشيخوخة التي أصابتها ولماذا تختفي السماء دائما في وقت الحاجة إليها؟

خرجنا فجأة إلى ساحة واسعة، امتد أمامنا بيت ضخم ذو أسوار عالية، توقف أمامه وهو يشير إليّ، صحت في دهشة:

ـ هذا بيت الأشراف..!!

ـ هذا هو المكان..

ظللت واقفا في ذهول، كنت أعرف البيت منذ طفولتي، رغم أني نسيت الطريق إليه، كان هذا بيت الأشراف كما نطلق عليه، منه تخرج المواكب المزينة الأضواء في كل الاحتفالات والمناسبات، وإليه تعود بعد أن تطوف بالمدينة كلها، وفي الليل تعقد حلقات الذكر وترتفع أصوات الحضرة مختلطة بالأدعية والمرّ والبخور، قال «الكوتش» ضاحكا:

ـ لم يعد هناك أشراف، مات آخر نقيب منهم، وهاجر بقيتهم إلى



بلاد الخليج، وظل البيت مهجورا حتى بعثت فيه الحياة من جديد.

تذكرت نفسي طفلا، أقف أمام السور الشاهق، والبوابة الخشبية تفتح في مرات معدودة كل عام، وطوائف الزائرين والمريدين تتتابع، كل طائفة تحمل بيارق بلونها المميز، والنقيب يجلس في مكانه العالي، لحيته طويلة وعمامته خضراء، يراقبهم وأنا أرتعد من عذوبة ابتسامته، ومن شدة رغبتي أن يمد يده ويضعها على رأسي، أقول لأبي: يا أبي من أين جاءته عذوبة هذه الابتسامة، قال: ورثها من سلالته، فكيف تبددت السلالة وانقلبت الأحوال؟ قال «الكوتش»:

ـ لن نقضي الليل واقفين أمام الأسوار..

لم يكن هناك أي صوت، ولا أي حركة، كنا واقفين في عراء غريب، أمام بيت تحيط به هالة غامضة، تراكمت عليه فتات الزمن وعبق الذكريات، اقتربنا من الباب الخشبي الضخم، حدقت في النقوش الغائرة، وجوه ملائكة أم شياطين، الظلام جعل كل شيء متشابها، في الباب الكبير باب آخر صغير يكفي لدخول رجل واحد بالكاد، أمسك «الكوتش» بالمطرقة النحاسية ودق على الباب بطريقة معينة، أشار لي أن أقترب فشعرت بالتردد، كيف انسقت وراءه كل هذه المسافة، فتح الباب ببطء، فتحة صغيرة، وأطل من خلفه وجه غليظ أو شارب ضخم، حين رأى «الكوتش» انفرجت ملامحه وأوسع الباب على الآخر هاتفا:

ـ اتفضل يا دكتور..

حدّق فيّ بارتياب ولكن «الكوتش» أشار إليه فتركني آمر خلفه،



أغلق الرجل الباب برتاج ضخم ووضع خلفه أيضا عارضة خشبية، دخلنا إلى حديقة داخلية، القمر يلقي عليها الضوء الشاحب فتبدو خضرتها الداكنة وعمرها الموغل في الزمن، حديقة عجوز كثيفة، نبتت في الأرض دون بذور، وأخذت آخر أشعة الشمس ثم مدت جذورها إلى أغوار جوف الأرض، فيها شيء آسر ووحشي، من كثافة الشجر، والثمار اليابسة والنباتات المتسلقة والتي تكسو جدران السور من الداخل، ورائحة البرتقال العطن والليمون البنزهير، صوت مياه متدفقة من مكان ما، والريح تحرك الأغصان ببطء، تماما كما ينسرب الزمن من بين أصابعي، رأيت نفسي طفلا،وأنا آخذ لمحة خاطفة من هذا الفردوس، وأنا أكمله في أحلامي الصغيرة فلا أظفر بشيء هتفت:

ـ لا أكاد أصدق عيني.

ـ هنا كانت تقام «الحضرة» وتعقد حلقات الذكر، ولكن الدراويش ذهبوا بعيدا.. انقرضوا أو ارتدوا أو تخلصوا من خرقهم، بعض البنات قلن لي إنهن في بعض الليالي كن يسمعن صوت الأذكار القديمة، يرددها صوت درويش مرتعد، لحظتها كن يمتنعن عن العمل..

حدقت في وجهه، لم أدر إن كان يهزل أو يتحدث بجدية، لم أكن في حالة تسمح لي بالتجاوب معه، كنت أحسب أنه سوف يقودني إلى بيت رخيص كالتي تظهر في الأفلام، ولكنه مرة أخرى أدخلني عالما جديدا، سرنا في ممر من الخضرة، كان يجب أن أزيح أغصان



الشجر حتى أستطيع أن أرى ما أمامي، كأنها رحلة مطهر غريبة، ظهر أمامنا مبنى آخر رابض في صمت وسط الحديقة البرية، جدران من الأحجار الداكنة الخشنة، قطعت دون أن تشذب، ظلت تحتفظ بطابعها الوحشي القديم، تخترقها نوافذ صغيرة متتابعة كلها مغطاة بالزجاج الملون، ويشع من خلفها ضوء خافت وظلال تتحرك في بطء، لم تكن هناك نافذة تشبه الأخرى، كل واحدة تأخذ شكلا مميزا.

صعدنا درجا رخاميا ناعما، ووقفنا أمام باب آخر، وعاد «الكوتش» يدقه من جديد بنفس الطريقة، وظللنا واقفين لبرهة كأن هناك عيونا تتأكد من شخصياتنا، فتح الباب وبدت خلفه امرأة زنجية، حدقت فينا بملامحها الغليظة ثم أفسحت لنا ممرا للدخول، احتوانا المبنى الرطب، سمعت صوت كل شيء فيه قبل أن أراه جيدا، أصوات التهدج، وتأوهات الرغبة، مزيج من الطهارة والعهر، تجمعت خلف الجدران الخشنة وامتزج بها عطن الزمن وتساقطت في قطرات ندية فوق الحوائط فأعطتها بريقا غامضا، كأنها رغبات حية لم تستطع الأيام أن تطمسها، الأرضية أيضا مكسوة بالأحجار الضخمة، أصبحت ناعمة من طول ما انحنت عليها الجباه ووطئتها الأقدام، نبت من بين فجاجتها عشب أخضر رهيف، مصر على النمو رغم الضوء الخافت ورطوبة الزمن، خيل إليّ أنني أرى أطيافا تحوم حول المكان، تتمايل مع إيقاع الوجد، نظرت إلى أعلى، حيث تتجاوز الغرف، أشباح تهيم، دراويش وعاهرات، تداخل كل شيء إلى درجة مريرة، على الأرض امتدت الأبسطة الملونة، كان هناك نوع من الطلاء، وملصقات رخيصة غير مناسبة، محاولة



لإخفاء الآيات القرآنية المحفورة على الجدران.

ظل «الكوتش» واقفا بجواري، تاركا لي وقتا أمارس فيه كل صنوف الحيرة والدهشة، ظل الصمت مخيما مثقلا بما فيه من أسرار قديمة، تلفت في المكان الذي كان خاليا، تبخرت الزنجية فلم أعرف من أي باب اختفت، ثم سمعت صوت خطوات قادمة، شخص يخرج من بين الظلال، امرأة ضخمة، يضم الثوب جسدها بصعوبة، وجهها محمر، محاط بهالة من الشعر يلفها شريط أحمر، صدرها بارز إلى حد كبير يكاد يفتق الثوب، كل شيء فيها مبالغ فيه، كأنما اختزنت في جسدها كل التاريخ السري للشهوة، سلالة غجرية احترفت هذه المهنة منذ أن رقصت أول عذراء في المعبد وفقدت عذريتها قربانا للآلهة، قالت:

ـ أهلا يا «كوتش»، ليس هذا ميعاد الكشف الدوري، أم أن هذه زيارة ودية..

أشار إليّ وهو يقول: معي ضيف..

حدقت تتفحصني، قالت: مازال صغيرا، أصغر مما ينبغي.

أحسست بالاختناق والندم لأنني أطعته، قال بصوت نصف ساخر:

ـ ظروفه العاطفية صعبة، وجئت به هنا بحثا عن النسيان.

نظرت إليّ وهي تقول: ألا يستطيع هو أن يشرح حالته؟

ـ هذه هي المرة الأولى بالنسبة له.. وهذا هو شأن المبتدئين دائما.



أشارت إلينا فجلسنا على أريكة خشبية، جلست أمامنا فوق حشية من الجلد، جاءت المرأة الزنجية وهي تحمل «شيشة» وضعتها أمامها، وضعت الحجر فوقها ورصت قطع الجمر بعناية، أخذت المرأة نفسا عميقا ثم زفرت الدخان الأزرق برائحته المميزة، ناولتها لـ «الكوتش» الذي جذب هو أيضا نفسا عميقا جعل ألسنة اللهب تشتعل في الجمر، شممت رائحة المخدر، هل يزرعونه في الحديقة أيضا، أم أنه من بقايا أيام الوجد القديمة؟..

رفعت المرأة وجهها إليّ، ونفثت الدخان في وجهي تقريبا، وهي تقول: كيف تريدها؟

بلعت ريقي وقد فوجئت بالسؤال: ماذا؟..

جاءت الزنجية وغيرت حجر الشيشة، وانبعث الدخان أشد كثافة، هتفت المرأة:

ـ قل لي طلبك، كيف تريدها، صغيرة، كبيرة، بيضاء، سمراء، طويلة، قصيرة؟

هتفت كاذبا: لم آت من أجل هذا..

كنت خائفا من الإقدام، وغير قادر على التراجع، قال «الكوتش» وهو يشعل الشيشة مرة أخرى:

ـ لا تكن خوّافا، إنهن بنات مضمونات، أنا أمارس عملي هنا بكل دقة..

ـ لست خائفا من هذا؟..



قالت المرأة في لهجة ساخرة: خائف من ماذا إذن، ألم تبلغ بعد؟!

كيف وضعت نفسي في هذا المأزق؟ كيف أصبحت أسير هذه الجدران الرطبة، ظللت صامتا، والزنجية تأتي وتروح، تحمل الحجر الفارغ وتضع واحدا آخر، قالت المرأة:

ـ اسمع، سوف أكرمك من أجل خاطر الدكتور، عندي واحدة خاصة، سوف تعجبك بالتأكيد، وعندما تأتي إلى هنا مرة أخرى، لن تطلب غيرها؟..

تطلع الكوتش إلى وجهي، بدا كأنهما قد قدما إليّ عرضهما الأخير الذي لا يجوز أن يرفض، قال في صوت أجش مختنق بالدخان:

ـ لم تعد لديك حجة، لا تشوه سمعة الأطباء..

أكان من المحتم أن أتخلص من عذريتي بهذه الطريقة، في هذا المكان، في هذا اليوم؟!

قالت المرأة: إذا أردت فاصعد..

وعاد الكوتش يلح: هيا، البنات نظيفات ومضمونات، هل أعطيك شهادة صحية الآن؟

وضحك في صوت رائق وقد بدا أن المخدر قد امتلكه تماما، وظلت المرأة تسحب أنفاس الدخان دون أن يبدو عليها أي تأثر، نهضت واقفا، حدق فيّ «الكوتش» بعينين غائبتين، وحاصرتني المرأة بعينيها الواضعتين تحيط بهما هالة من الدخان الأزرق، اكتسبت هي أيضا نوعا من غموض المكان، أنفاس الشهوة تحيط



بها قالت في صوت بارد ومؤكد:

ـ سوف تصعد إليها، ستندم إذا لم تصعد، إنها لم تستقبل زبونا منذ ثلاثة أيام، لذا ستستقبلك بشوق، وبرغبة حقيقية..

رنت كلماتها وسط الفراغ الصامت، ظللت واقفا عاجزا عن الانصراف، جاءت المرأة الزنجية وغيرت الحجر، أشارت لها المرأة برأسها:

ـ خذيه إلى غرفتها..

سارت الزنجية فسرت خلفها، صعودا على السلالم الصخرية غير المشذبة، درج عال يجعلني أوسع خطاي، كأنها تمنحني مساحة ضئيلة من التردد، استندت إلى الجدار، كان باردا ورطبا ومندّى بالماء، واصلت الزنجية الصعود، سارت أمامي في الممر العلوي الذي يطل على الباحة، رأيت المرأة و«الكوتش» من أعلى وهما يتبادلان الأنفاس، لا يعكر الصمت غير صوت كركرة المياه، كأنها التهدجات الأخيرة لأحد الدراويش قبل أن يستغرقه الوجد ويفقد الوعي، كانت هناك بطول الممر أوان نحاسية حافلة بالنباتات، نباتات وحشية لا أدري كيف استطاعت أن تنمو وسط هذه العتمة الرطبة، بدأت أشم الروائح النفاذة، عطر وعرق وسوائل لزجة، سمعت الأصوات الخافتة من خلف أبواب الغرف المغلقة، تأوهات متقطعة، وذروة مليئة بالانتشاء، انتفضت عروقي بالدماء، استيقظ جسدي ليطرد الخوف والتردد والحزن، بدأ سحر الرغبة



الخفي يدب في كل خلية من خلاياي،

عبرت الزنجية كل الأبواب، سارت حتى الباب الأخير في آخر الممر، تركتني أمام باب خشبي قديم داكن مطعم بالنحاس الصدئ والفضة الكابية، ثم أخذت الزنجية تبتعد، رأيتها وهي تعبر الممر وتهبط السلم ولم يعد معي أحد، لم يعد يراني أحد، وظل الباب مغلقا، آخر فرصة للتراجع، ولكن، كيف أعود دون أن تراني المرأة، ودون أن يشهر بي «الكوتش»؟ جسدي يدفعني لأن أمد يدي وأدق على الباب وأحس بنقوشه الخشنة على جلد أصابعي، لم يأت رد من الداخل كنت أبله بلا شك، فالزبون ليس في حاجة للاستئذان، أعدت الطرق بنفس الدرجة من البلاهة فلم أسمع ردا، دفعت الباب فأطاعني، انفتح إلى الداخل محدثا صوتا رفيعا مثل تأوهات طائر يحلم.

غرفة ضيقة، نصف مظلمة، ضوء خافت مائل للحمرة، السقف مقوس كأنه قطعة من قبو سري قديم، وفي الوسط سرير من النحاس الأصفر، ترتفع قوائمه الأربع مثل أذرع ضارعة، وفي الركن صوان خشبي صغير ومرآة، لم أعرف من أين يأتي الضوء، كأنه يشع من بين شقوق الأحجار حيث استكانت الرغبات والنزوات القديمة، ثم رأيت الفتاة جالسة على حافة الفراش، ظهرها لي، لم تكن تراني، تجمعنا الغرفة الضيقة وتفصل بيننا مساحة من العتمة والغربة ومساومات البيع والشراء، ترى، كيف أدفع، وأي مبلغ أقدمه؟ هل أدفع هنا؟ أم أسفل عند السيدة؟ وهل سيعملون لي تخفيضا خاصا



لأنني جئت في صحبة الطبيب المعالج؟..

كيف أبدأ، حلمت دائما أن تكون هذه البداية مع الفتاة التي أحبها، ولكن الحب ضاع، أحدثت صوتا فلم تتحرك، تشعر بوجودي ولكنها لا تأبه بي، شعرها طويل، منسدل على كتفيها النحيلين العاريين، ثوبها رقيق، لا أعرف لونه على وجه التحديد، ينسدل إلى أسفل ويترك مساحة عارية عند الظهر كأنه ينبي عن الجسد الذي يحتويه، اكتشفت في هذه اللحظة أنني حافظت على عذريتي بطريقة بالغة السذاجة ودون جدوى، كيف تتم ممارسة طقوس هذا الفعل في هذا المكان؟ من الذي يبدأ، أنا أم هي؟ ومن منا سيقود الآخر؟.. كيف يمكن أن يحدث نوع من المؤانسة والتجاوب بين جسدين بهذه البرودة، وهذا التباعد، كيف يستطيعان التغلب على هذا الصمت الثقيل؟..

ظللت واقفا، لم ترحمني أو تخرجني من حيرتي، لبثت في نفس جلستها المستكينة تنتظر ما يفعل بها، دون أي مقاومة، وعليّ أن أخرج من حالة الجمود التي أعاني منها، أن أكمل سلسلة الأعمال النزقة التي قمت بها منذ أن قررت المجيء إلى هذا المكان، بحثت عن صوتي، وقلت:

ـ هل أخلع ثيابي؟..

رن صوتي في صمت الغرفة الضيقة، أخذته الأحجار المقوسة وحولته إلى صدى غريب، صوت مهزوم لا ينتمي إليّ، عاجز عن



الحب وعن مواصلة الحياة، وهاهو ملجئي الأخير، تلك الغرفة الشبيهة بالقبو أبحث فيها عن أي نوع من التواصل، وحياتي شذرات متفرقة، تخضع للمصادفات العمياء والحوادث العارضة، من حب إلى فراق، ومن قسوة إلى يأس، لا شيء حقيقي يمكنني امتلاكه، ربما كانت هذه المرأة الصامتة الجالسة على حافة الفراش وظهرها لي هي الشيء الوحيد الذي يمكنني امتلاكه، أحسست أنني على وشك الاختناق من هذا البرود الصامت، قلت فلتكن جريئا ولتلعب لعبة العهر بنفس طريقة العهر التي تليق بها، مددت أصابعي وأخذت أفك أزرار قميصي، وحزام بنطلوني، خلعت حتى الجورب واستغرق كل هذا دقائق معدودة مليئة بالتوتر، لم أكن أسمع سوى صوت أنفاسي ثقيلا، مكتوما، وعندما وقفت عاريا سمعت صوت رعدتي، بدا كل شيء مبتذلا وغير قابل للتصديق، كنت قد وصلت إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه، نهضت هي ودون أن تلتفت نحوي أنزلت حمالات الثوب الرقيق وجعلته ينزلق من على جسدها، بدا نحيفا، متناسقا، يعكس الضوء الأحمر ويخلطه بالمسام البيضاء فيكسبه نوعا من الحيوية المفعمة بالرغبة، جلست على السرير مرة أخرى ومازال ظهرها لي، كيف تكون الخطوة التالية، وما هو التصرف الصحيح..؟ مادمت قد أصبحت عاريا فلابد أن أفعل شيئا ما، جلست خلفها تأملت ظهرها النحيف العاري، خيل إليّ أنني ألمح ظلال عظامها وهي تقشعر في انتظار لمساتي، مددت يدي ووضعتها على ظهرها، كان باردا، فيه بعض من رطوبة الجدران الصخرية التي تحكم قبضتها علينا،



كانت تنتفض تحت لمسة أصابعي، أهي تفعل ذلك مع كل زبون؟ تعطيه جسدها بهذا البرود وهذه الدهشة، أزحت شعرها من فوق كتفيها، ورأيت عنقها الرقيق، كان هناك على كتفها اليسرى أسفل عنقها «خال» أسود كبير وبارز بعض الشيء، حدقت فيه مترددا، وتحسسته بأصبعي واختلج في أعماقي طيف بعيد لذكرى بعيدة وأسى بعيد وافتقاد بعيد، كان يجب ألا أستسلم فوضعت شفتي المرتعدة عليها، أحسست بارتجاف جسدها ينتقل إليّ، لم أدر سر هذا الارتجاف، أهي من النشوة أم من المباغتة؟ ألصقت لحمي بظهرها العاري ومددت ذراعي وأحطت جسدها، يد على بطنها، ويد على صدرها، وشفتي معلقة بالخال، أحسست فجأة بشفقة آسرة وبعطف غامر، وبرغبة حارة في بعث الدفء إلى هذا الجسد الصغير المقرور، جسدي أيضا كان صغيرا ومقرورا وضائعا ويعاني من رغبة حزينة، أدخلت وجهي في شعرها، شممت رائحة العطر الخافت، دخل أنفي، ثم تسرب إلى جسدي مصطحبا معه قليلا من الدفء، لم نعد جسدين صغيرين، أصبحنا جسدا واحدا كبيرا قادرا على مقاومة الوحدة والرطوبة، أدرت وجهها وعثرت على شفتيها فأهويت عليهما وأنا مغمض العينين، كانتا رقيقتين، باردتين، انزلقتا داخل فمي وبدأ تيار من النشوة يسري بيننا حتى خيل إليّ أنهما على وشك الذوبان، استدار جسدها، ونام ثدياها على صدري، دون أي ما صوت، تداخل الجسدان وانزلقنا معا على الفراش على الملاءات الباردة التي لها رائحة الصابون الرخيص، كلا، كانت رائحة جسدها، عطرا وأعشابا وزهورا برية ومياها متدفقة وعبقا



قديما، نشوة تنبع من أغوار قديمة، أول لمسة، وآخر همسة، وما بينهما أيام من الافتقاد والبحث واليأس والبعث والموت، كنت بين ذراعيها، نائمًا على صدرها، أنفاسها هواجسي، آهاتها الخافتة، صدى بعيد، جسدها يتمطى تحت فمي ويستجيب ببطء لدفء الرغبة والتوقد، هل كان يجب أن نقول شيئا ما؟ أم نترك الفرصة كاملة لحوار جسدينا، اعتدل جسدها واحتواني فلم تعد هناك أهمية للكلمات، لم نعد متعجلين، إيقاع النشوة يتصاعد، والخوف من الوحدة يتبدد، ومنابع الدفء تتدفق، أغوص فيها أم في أعماق ذاتي، أكتشف جسدها أم أكتشف أشواقي القديمة، أضغط عليها فتتأوه في صوت عال، أول صوت واضح مميز أسمعه منها غير أنفاسها اللاهثة، اخترق الصوت أذني ورأسي نفذ إلى شغاف روحي، نهضت من فوقها، رفعت رأسي وتأملت ملامحها، شعرها مشعث، متهدل على وجهها، وعيناها مغمضتان، وفمها مفتوح يتشرب آخر قطرة من قطرات الاشتهاء، ولكن العتمة اللعينة تخفي عني بقية التفاصيل، صحت مرتعدا:

ـ أريد أن أشعل الضوء..

فتحت عينيها وقالت في خفوت وحزم: كلا..

بدأت أسناني تصطك وأحسست بتيار بارد يتسرب من مكان ما يمر بين جسدينا ويبدد لحظة الدفء الضئيلة التي غمرتنا، أمسكت كتفها وهززتها، قلت:

ـ يجب أن أراك في الضوء..



تأوهت في صوت خافت على حافة البكاء والتوسل: لا تفسد كل شيء.. لا تفسد كل شيء..

حاولت أن تحتويني من جديد، أبعدت ذراعيها من حول عنقي، نزعت نفسي من بين ساقيها، استلقيت على الفراش، وأوشكت على الصراخ، بحثت عن شيء أتشبث به، وعن هواء أتنفسه، وصحت من أعماق قلبي:

ـ أنت هي.. أنت هي.

لم تجاوبني، كدت أختنق، تلوى جسدي العاري وأنا أصرح مجروحا:

ـ كنت أعرف أنني سأقابلك هنا.. كان «الكوتش» اللعين يعرف أنني سأقابلك هنا.

قالت بصوت خافت: أنا لا أعرفك..

كنت طفلا ضائعا،أحس فجأة بعرى اليتم يجتاح بدنه، قلت:

ـ كنت تعرفين بوجودي من اللحظة التي دخلت فيها من الباب الخارجي، كنت تشمين رائحتي، وتسمعين صوت أنفاسي، تعرفين أن المرأة القوادة سوف تختارك لي، وأن الزنجية ستقودني إلى غرفتك..

عاريا، خجلا، باردا، وهي عارية، وبعيدة، وقاسية، نهضت من على الفراش كانت في مواجهتي، رأيتها في العتمة تحدق فيّ، رأيت ملامحها تظهر ببطء من خلف شعرها المشعث، ورأيت بروز ثدييها، وسرّة بطنها، واستدارت فخذاها، قالت:



ـ وماذا بعد، ماذا يحدث لو أنني قلت إنني لا أعرفك، ومارسنا هذا الشيء ثم انصرف كل منا إلى حال سبيله..

كأن الأمر يمكن أن يتم بهذه البساطة، صرخت:

ـ مستحيل، مستحيل يا فاطمة أن أراك في هذا المكان، في هذه الصورة.

قالت في برود، برود لا حد له، كأن الكلمات هي حد سكين قاطع:

ـ أنا أيضا، رأيتك في هذا المكان، على هذه الصورة..

هززت نفسي، أمسكت يدها وهززتها، هل كان يمكن أن أفيق من هذا الكابوس؟ هل كان يمكن ألا نسقط معا في نفس اللحظة وفي نفس المكان، ألا نصرخ هكذا ونحن عاريان على فراش غريب، في بيت مشبوه؟ صحت:

ـ لماذا جئت إلى هنا، لماذا لم تأت إليّ؟..

قالت في استهانة، وهي تعتدل، وتضم ركبتيها إلى صدرها، وتلف يديها عليها:

ـ كنت أعرف أنك سوف تأتي إلى هنا..

ـ كان يمكن أن أنقذك..

ـ لم تستطع أن تنقذ نفسك، لم تقدم لي شيئا..

كان وجهها باردا، صلب الملامح، حاد النظرات، لا ندم، لا شعور بأي خجل، قلت:



ـ الحب، قدمت لك الحب..

حاولت أن أهدئ نفسي، قلت: ماذا حدث، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ لا تهم كل القصص، ولا المبررات، مادمنا قد وصلنا إلى النهاية فلا شأن لك بأي شيء.

أمسكت بها، جذبت شعرها، ظلت صامتة، متألمة، هززتها، أهويت بقبضتي على جسدها، ظلت صامتة، متحملة كل صنوف انفعالاتي حتى المدى الأخير، خيل إليّ أنها تنتظر حتى أهدأ وأستكين ثم نبدأ معا لعبة الجنس الباردة من جديد، نهضت واقفا، واكتشفت أنني عار، خلعت ثيابي بمحض إرادتي، انتابني خجل مضاعف فأخذت أرتديها بسرعة وبقيت هي عارية، تحدق فيّ وهي مازالت تضم ركبتيها إلى صدرها، وشعرها منسدل حول وجهها، كانت متحفزة، قطة تتأهب لفرد أظافرها عند أول بادرة، ولكنني كنت قد هدأت قليلا، عندما تغطى لحمي، وقل خجلي، استطعت أن أقول ملتقطا أنفاسي:

ـ ألم تفكري فيّ ولو للحظة واحدة؟..

كان صوتي حائرا، ضعيفا، منزوع الإرادة، قالت في صوت يشبه صوتها القديم، ورقتها القديمة:

ـ فكرت فيك كثيرا، وسألت عنك، ولكن الطرق تباعدت، عرفت أنك ارتبطت بإحدى الطبيبات، زميلتك، غنية، وجميلة، لم



أتصور أن تأتي إلى هنا الآن، كي تلومني لأنني لم أفكر فيك.

غاصت كلماتها في قلبي مرة أخرى، عاجز عن التقاط أنفاسي أو عن البقاء واقفا، جلست على حافة السرير، رفعت رأسها وحدقت فيّ بعينين جامدتين، قالت في يأس:

ـ ماذا كان عليّ أن أفعل إذن؟

قلت وقد أسقط في يدي: لقد كنت تتعلمين، تريدين الشهادة، والمحاماة..

همهمت: أحلام، أحلام..

قلت محاولا التبرير:

ـ هذه الطبيبة، لقد ارتبطت بها في إحدى لحظات اليأس والافتقاد المر، ثم تراجعت..

ـ بعد أن فات الأوان..

ـ لم يفت الأوان بعد يا فاطمة، مازلت..

ولم أكمل، لم أستطع أن أكمل، كيف يمكن أن أقولها؟ قالت:

ـ لست مطالبا بأن تقول شيئا، لقد تساوينا، أنت هنا، وأنا هنا، على نفس الفراش، لا يهم من يدفع الثمن، أو من يقبض الثمن..

لم أتصورك بهذه القسوة يا فاطمة، لم أتصور أن يتحلل ما بيننا فجأة كأنه خيط من خيوط العنكبوت، حل بيننا صمت ثقيل رطب

لزج، ظللنا عاجزين عن إبداء أي حركة، لو تحركنا قيد أنملة لانهار من حولنا هذا العالم الهش، نظرت إلى ركن الغرفة، رأيت درويشا قديما جالسا متكوما، يرتدي خرقة بالية، ويردد أدعية غامضة، ويدس نفسه في الركن كأنه يريد أن يختفي عن الأنظار، كان ينتظر لحظة انصرافي عن فاطمة، ظلت هي أيضا جالسة، طاوية ذراعيها، متضائلة تريد أن تختفي عن كل جوارحي.

حاولت أن أتذكر أي صورة من صورها القديمة، ولكن جسدها العاري المهان فوق السرير النحاسي كان يحاصرني دائما، تمنيت أن تنهض وأن ترتدي ثيابها، وأن تخفي عريها، وأن تقدم لي أي نوع من الاعتذارات الزائفة، ولكن رغم ذلك سمعت صوتها يقول بنفس درجة البرود والتصلب:

ـ هل تتردد على هذه الأماكن كثيرا؟

هززت رأسي بالنفي، قالت في سخرية:

ـ أهو قدري إذن أن تأتي للمرة الأولى، فتجد نفسك على فراشي؟

في هذه اللحظة كان جسمي كله يهتز، قلت:

ـ قدرنا معا يافاطمة، ماتت أمي بالأمس، ودفنتها اليوم..

أحسست بها وهي تنهض، وتأخذ رأسي وتضعها على بطنها العاري، وتدخل أصابعها في شعري وهي تهتف في حرقة وقد ذابت من صوتها كل درجات البرود:

ـ كم أنا حزينة من أجلك!



فتشبثت بها وبدأت أبكي، يارب السماوات، منذ متى لم أبك؟ منذ متى كانت دموعي تغسل جسدها وعرقها يغسل وجهي، كم كنت في أمس الحاجة إليها! كأن كل غرائزي، كل مافي حواسي، كل ما تراكم في أعماقي طوال سنوات الطفولة والشباب من لحظات عشقها وحرماني منها هي التي قادتني إليها في تلك الليلة الغريبة، كان هناك رابط حزين يصل بيننا، والدرويش الراقد في الركن مازال يحدق فينا والأضواء المعتمة تدب فيها حيوية جديدة، قلت لها وأنا أشهق باكيا:

ـ لن أتركك، لا أستطيع أن أتركك، لقد تركتك طويلا..

فكت ذراعي من حول جسدها، وجلست أمامي ووضعت يدها على ركبتي وهتفت:

ـ سوف تخرج من هذا الباب، وتهبط الدرج، وتنساني تماما، ولا تأت إلى هنا مرة أخرى.

صحت من أعماقي: سوف تأتين معي، ستبقين معي بقية حياتي.

ـ لن تنسى أبدا أنك التقطتني من هذا المكان، أنا نفسي لن أنسى.

كنت على حافة الجنون، رائحة جسدها، وملمس لحمها، ودفء قربها، قد أيقظ داخلي كل الأمنيات المستحيلة، الفرصة الأخيرة في أن أعيش الحياة كما أريدها، قلت في تصميم:

ـ لن أتركك في هذه الغرفة القذرة.

صاحت هي أيضا في تصميم: لا مكان لي غيرها..

جذبتها نحوي ولكنها نزعت ذراعيها من يدي، تلفت حولي في جنون:

ـ هذه الغرفة سجن، مصيدة قذرة، مقبرة لك ولي، لا يوجد فيها إلا رغبات عفنة وأجساد مستنزفة، أنت لا تنتمين إلى هذا المكان، من المستحيل أن تنتمي فاطمة إلى مثل هذا المكان..

أمسكت بعمود السرير النحاسي، هززته بعنف حتى تخلخلت مفاصله وهوت أخشابه على الأرض، تصاعدت الأتربة المعطرة بالعفن، لم تتحرك فاطمة، لم تكن تخشاني حتى بعد أن وصلت إلى هذه الدرجة من الجنون، هبطت بالعمود النحاسي على الدرويش الراقد في الركن فغاصت ذراعي في الفراغ، هويت على مرآة معلقة على الحائط، رأيت وجه فاطمة فيها وهو يتفتت إلى قطع صغيرة، هويت على زجاجات عطرها فتفجرت منها رائحة العرق اللزج، على كل زجاج المصابيح المعتم المعلق في السقف المقوس فانكشف المكان فجأة، ورأيتها عارية كما لم تكن عارية من قبل، رأيت جسدها صغيرا، مليئا بجروح، وبقايا قروح، وآثار التئامات، كنت فارسا أحمق، بلا جواد، سيفه عمود أهوج من نحاس..يخوض معركة خاسرة ولكنه مصمم على خوضها حتى النهاية، صحت:

ـ ارتدي ثيابك وتعالي معي.

هزت رأسها رافضة، أمسكت بالثوب الذي كانت ترتديه وضعته على جسدها ومددت يدي وقبضت على يدها بقوة وفتحت الباب



ودفعتها إلى الخارج، قالت في توسل:

ـ اتركني أرجوك، لا أستطيع الخروج من هنا، لا أستطيع أن أتبعك.

هل كان يمكن أن أفلتها مرة أخرى؟ كنت على استعداد لأن أقتلهم جميعا، المرأة الزنجية والمرأة القوادة، والكوتش إذا لزم الأمر، عدلت الثوب على كتفها العاري، صاحت في توسل أخير:

ـ لن يتركونا نخرج أحياء..

أصص الزرع تحدق فينا ببلاهة، والأحجار الضخمة، وبقايا الأوعية والتأوهات تحيط بنا، رأيتهم يقفون متحفزين في نهاية الممر، لم يكونوا دراويش قدامى بالتأكيد، يسدون عليّ وعليها الطريق، لم أكن أستطيع أن أتركها، أو أقف، أو أتراجع لم أكن أراهم على وجه التحديد، ولم أكن أعرف أن «الكوتش» معهم أم لا، التفوا حوالي، صرخت فيهم أحاول أن أشق طريقا بين أجسادهم، أحسست بركلة حادة ومؤلمة في بطني، اندفع من فمي تيار من اللعاب والسائل المعوي، مددت يدي أتشبث بفاطمة فلم أجدها، كان يجب أن أعتدل وأستقيم وأرى أين تقف على وجه التحديد، فوجئت بضربة أخرى، درت أبحث عنها، وأنا أتقلص من فرط الألم، لمحت آخر لمحة من وهج جسدها العاري وهو يختفي من أمام عيني، آخر لمحة من الأمل، طعم الدم المالح يملأ فمي، والضربات تتوالى في كل مكان، جسدي مباح لهم جميعا، لكل اللكمات والركلات، لكل صنوف المهانة والإذلال والألم، لم أكن أريد أن أسقط على الأرض، ربما كانت تراني، ولا أريد أن

أسقط أمامها، أجسادهم تحاصرني، تصب شحنات الغضب المؤلم في جسدي الذي يتطوح بلا مقاومة، لم أستطع أن أقف على قدمي أكثر من هذا، سقطت، حاولت النهوض، ضربوني على ظهري حتى سمعت صوت طقطقات عظامي. دفعوني ركلا حتى وصلوا بي إلى السلم الحجري، انحدرت عليه دون أن أستطيع التشبث بأي درجة، انزلقت درجة، وراء درجة، لم أحاول أن أمنع جسدي من الدوران، أو رأسي من الارتطام، انزلقت واعيا كل الوعي، عاجزا كل العجز، وكنت أراهم وهم مازالوا يحيطون بي، يقومون بركلي للمرة الأخيرة حتى يتأكدوا أنه لم تعد فيّ قدرة على المقاومة، حملوني من ذراعي، ومن قدمي، خرقة باردة دامية، ساروا بي عبر الساحة الحجرية فارتفعت أصوات الأدعية والابتهالات ترثي لهزيمتي وانسحاق روحي، أحسست بتيار من الهواء النقي، ارتفع جسدي مخترقا الهواء ليستقر مرتطما بالأرض، لم يعد هناك ألم، كانت عيناي مفتوحتين، وفوقي سماء مليئة بنجوم غريبة وسحب داكنة، وقمر غائم، سمعت الباب وهو يغلق، وامتد السور الحجري أمامي إلى ما لا نهاية، كان ملمس التراب ناعما تحت جسدي المكدود، تأملت السور في عجز وفكرت، أنني لن أستطيع أن أتحرك بعد الآن، سوف أموت وأتعفن في هذا المكان، تحت هذه السماء، وفي برودة هذا الليل.

ثم سمعت صوت الباب وهو يفتح، هل جاءوا كي يضربوني مرة أخرى؟ هل جاءوا كي ينقلوني إلى مقبرة بعيدة كي ينفوا الشبهة عن أنفسهم؟..



كانت فاطمة هي التي جاءت، عارية تماما، شاحبة تحت القمر الشاحب، رأيت شعرها يشبه غزل القطن المهوش في شوارع بلدتنا القديمة، ورأيت ثدييها اللذين كانا مثل أول برتقالتين تقاسمناهما معا، ورأيت استدارة بطنها التي نمت عليها ذات يوم برأسي فشعرت براحة لم أحسها بعدها، رأيت الشعر الأشهب، مثل حرقتي وقهري، ومالت عليّ حتى أحسست بملمس شعرها، وشممت رائحة جسدها، وتخيلت أنها سوف تعطيني لمسة ساحرة من لمساتها فتدب فيّ الحياة، ولكنها كانت تحمل في يدها قطة صغيرة، عاجزة عن المواء.. وضعتها فوق صدري فانكمشت القطة واستكانت عليّ، ونهضت فاطمة، ابتعدت، وأغلقت الباب خلفها، وظلت القطة رابضة فوق صدري المجروح عاجزة عن الحركة، تماما مثلي

تمت الدورة، وانقضى كل شيء يا فاطمة، يا غرامي الحزين.





انكسار الروح

هذه الرواية، أنشودة حزينة لكاتب شجيّ، هو واحد من أصحاب أعذب الأســاليب العربية وأنصعها، لا قلق في مفرداته ولا مهجور، تكتنف كل جملة لديه روحٌ غنائية واضحة، ومن تناسق الجمل تغدو الكتابة عنده لحنًا ممتدًا.

محمد المنســي قنديل، أسلوبه هو هبته وموهبته، لكنه لم يركن إلى بـكارة الموهبــة وحدها، بل راح ينهــل من كل رحيــق ثقافي، ويتغذى ليكــون علامة خاصــة على كاتب متعــدد القدرات، وهو يعــود هنا إلى بيتــه الأول فيبــدع بلغــة القــص روايــة بالمعنى والمســعى. أنشــودة هذه الرواية هي قصائد الشــاعر الروائي «علي» ومهارة أصابع الصديق «مصطفــى» وحب قطرة ندى تذوب مع الشــعاع، إنهم بشــر يجتازون مســتنقعات الفقر والموت بإنجازات القصائد ورهافة الحس، وأشــواق القلب، فإلى أين المسير؟! في الرواية تكمن الإجابة.

محمد المخزنجي



محمد المنسي قنديل، روائي مصري، ولد في المحلة الكبرى عام ١٩٤٩. تخرج من كلية طب المنصورة عام ١٩٧٥، ولكنه انشــغل بإعادة كتابة التــراث فاعتزل الطب وتفــرغ للكتابة. صــدر له عن دار الشــروق روايــة «قمر على ســمرقند» التي فازت بجائزة «ســاويرس» لــلآداب (٢٠٠٦) وترجمت إلــى الإنجليزية، و«يوم غائم في البــر الغربي» التي وصلت للقائمة القصيرة في جائزة البوكر للرواية العربية (٢٠١٠).

دار الشروق
www.shorouk.com